٢

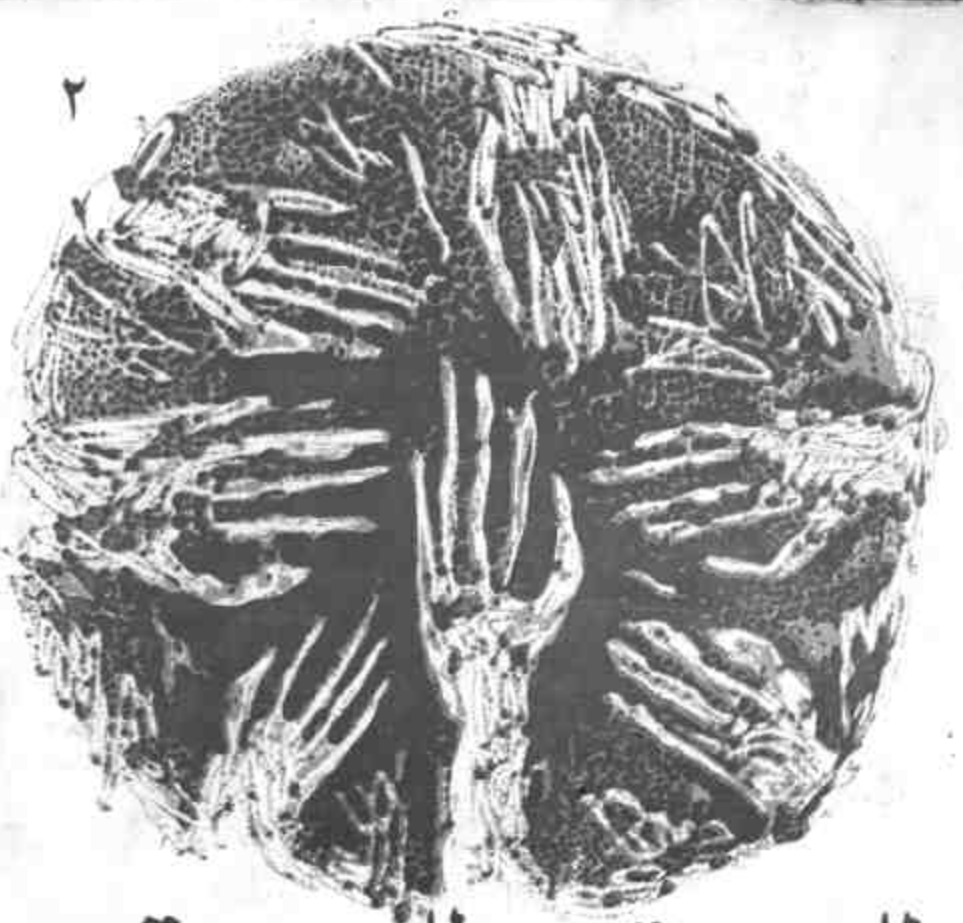

للحبّ وقت وللمَوت وقت

تأليف : إريك ماريا ريمارك
ترجمة : سمير التنداوى

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

الفصل الرابع عشر

قال الفيلسوف : « لدينا اليوم لحم عجل ممتاز على طريقة فيينا » .

وأجاب جريبر : « حسن سنتناول هذا اللحم وكل ما تقترحه علينا فنحن معتمدون عليك كلية » .

— والنبيذ ؟ .

— هو أو غيره إن أردت . سنترك لك هذا أيضاً .

وابتعد الساقي مسروراً . ومال جريبر إلى الوراء ونظر إلى إليزابيث . وكان كمن انتقل من جبهة قد أحرقت بالطلقات ، إلى منطقة من مناطق السلام . وكان بعد الظهر قد ولى . ولم يبق غير انعكاسات اللحظة التي بدت الحياة فيها فجأة قريبة بأشجارها التي انبثقت من أحجار الأسفلت والأنقاض لكي تمسك بالضوء بأيد خضراء . وفكر جريبر : أسبوعين! أسبوعين حياة . لا بد أن أمسك بها كما تمسك شجرة الكافور بالضوء .

وعاد الفيلسوف وسأل : « ما رأيكم اليوم في يوهانيس بيرجر كابينيرج ؟ تعتبر الشمبانيا بالنسبة له مجرد مياه معدنية غازية » .

وقال جريبر : « كابينيرج » .

— سمعاً وطاعة يا سيدي فأنت ذواقة . والنبيذ مناسب للحم العجل .

سأحضر لكم أيضاً سلاطة خضراء طازجة ، فهى التى تظهر بهجة النبيذ ، نبيذ رائق كالنبع الصافى .

وفكر جريبر : إنها الوجبة السابقة لتنفيذ حكم الإعدام . أسبوعان آخران من وجبات حكم الإعدام ! فكر فى هذا دون مرارة ، لم يخرج حتى الآن عن نطاق الإجازة فقد بدت طويلة طولا لا نهائياً ، إذ حدثت أحداث كثيرة وبقى أمامه الكثير . والآن وفجأة منذ أن قرأ البلاغ ، ومنذ أن كان عند بوهان عرف أن الإجازة قصيرة جداً .

ونظرت إليزابيث تجاه الفيلسوف وقالت : « بارك الله فى صديقك روبير ! فقد جعلنا ذوّاقين » .

— نحن لسنا ذوّاقين يا إليزابيث . نحن أكثر من ذلك . نحن مغامرون . وما كان من قبل رمز الأمان الكامل والرخاء قد تحول اليوم إلى مغامرة كبيرة .

وضحكت إليزابيث : « نحن نجعلها كذلك » .

— إنه الزمن . وهناك شىء لا يمكننا أن نشكو منه ، الحياة الرتيبة والملل .

ونظر جريبر إلى إليزابيث ، وكانت جالسة أمامه على أريكة ومرتدية ملابس ضيقة مناسبة ، وقد اختبأ شعرها تحت قبعة صغيرة فأصبح شكلها كالصبى . وقالت : « الحياة الرتيبة ! ألم تشتر اليوم ارتداء ملابس مدنية ؟ » .

— لم أستطع ذلك إذ لم أجد مكاناً أبدل فيه ثيابى .

وقد أراد جريبر أن يفعل هذا عند القونس ، ولكنه لم يذهب إليه نتيجة لزيارته لبوهان .

وقالت إليزابيث : يمكنك أن تفعل هذا عندى .

— عندك ؟ والسيدة ليزر ؟ .

— لتذهب ليزر إلى الشيطان ! وقد فكرت فى الموضوع .

وقال جريبر : « لتذهب أشياء كثيرة أخرى إلى الشيطان ! وأنا أيضاً قد فكرت » وأحضر الساقى النبيذ وفتح الزجاجة ، ولكنه لم يصبه ، فقد بقى خافض الرأس يصغى ثم قال : « ها قد بدأت . آسف يا سيدى ! » . ولم يكن فى حاجة إلى أن يشرح ما قصد ، فقد دوت صفارات الإنذار فى اللحظة التالية وغطت على مناقشات القاعة .

واهتز كأس إليزابيث وسأل جريبر الفيلسوف : « أين يقع أقرب مخبأ ؟ » .

— لدينا واحد هنا بالمبنى .

— أليس هذا المخبأ مخصصاً لنزلاء الفندق ؟ .

— وأنت يا سيدى من النزلاء . والمخبأ ممتاز وأحسن من كثير من الخنادق بالخارج . إذ لدينا هنا ضباط من رتبة رفيعة .

— حسن وماذا عن اللحم المقلى ؟ .

— لم أضعه بعد على النار . سأحتفظ به إذ لا يمكن أن نقدم الطعام فى الخبأ . وأنت تفهم السبب يا سيدى .

« طبعاً » ثم أخذ جرينر الزجاجة من يد مرابو وملأ الكأسين وقدم كأساً لإليزابيث : « اشربى هذه — اشربيها مرة واحدة » .

وهزت رأسها : « ألا يجب علينا أن نذهب ؟ » .

— لدينا بعض الوقت ، فهذا أول إنذار . ربما لا يحدث شىء — تماماً كالمرة الماضية . اشربى هذه الكأس مرة واحدة ! فهى تعين على قهر الخوف .

وقال الخادم : « أعتقد أن الحق معه . خسارة أن يبتلع مثل هذا النبيذ مرة واحدة . ولكن هذه حالة خاصة » .

ثم شحب لونه وابتسم بصعوبة وقال لجرينر : « سيدى ! كنا من قبل ننظر إلى السماء كى نصلى والآن ننظر إلى السماء لنلعن . هذا ما ما وصلنا إليه » .

ونظر جرينر إلى إليزابيث : « اشربى فلدينا وقت ويمكننا أن نشرب الزجاجة كلها إن أردنا » .

ورفعت الكأس وشربتها كلها ببطء . فعلت ذلك وقد ارتسم على وجهها التصميم والعزم ، كما عبرت قسماته فى نفس الوقت عن شىء من الإسراف واللامبالاة . ثم وضعت الكأس ثانية وابتسمت : « وليذهب الخوف إلى الشيطان ! يجب أن أعتاد هذا : انظر كيف أرتعش ! » .

— أنت لا ترتعشين . بل الحياة فيك هى التى ترتعش . هذا لا دخل له بالشجاعة . فالإنسان الشجاع هو الذى يستطيع أن يحمى نفسه : ومن كان غير ذلك فهو مغرور . وحياتنا أعقل منا يا إليزابيث .

— حسن . أعطنى ثانية لأشرب ! .

وقال مرابو : « زوجتى ! ابنى مريض بالسل . وهو فى الحادية عشرة والخبأ ليس مثيناً ، ومن الصعب عليها أن تحمل ابنى إلى أسفل فهى نحيلة ، ثلاثة وخمسون كيلوجراما . فى شارع زيد شمالى رقم ٢٩ ولا يمكننى أن أعاونها إذ يجب أن أبقى هنا » .

وأخذ جرينر كأساً من المنضدة المجاورة وملأها وقدمها للساقى : « هيا اشرب كأساً ! وهناك قانون عسكرى قديم يقول إن لم يستطع الإنسان أن يفعل شيئاً فعليه أن يحاول ألا يجزع ! هل يساعدك هذا ؟ » .

— من السهل جداً على الإنسان أن يقول هذا .

— تماماً . كلنا ولدنا كمثاليل . اشرب هذه كلها ! .

— غير مسموح لى . أنا فى وقت العمل .

— هذه حالة خاصة . وقد قلت أنت ذلك الآن .

« حسن يا سيدى » ونظر الساقى حوله ثم تناول الكأس : « أتسمح لى أن أشرب نخب ترقيتك ؟ ! » .

— نخب ماذا ؟ .

— لعب ترقيتك إلى صف ضابط ؟ .

— شكراً لك . عين حادة .

ووضع الساقى الكأس : « لا يمكننى أن أشرب الكأس مرة واحدة يا سيدى . لا يمكننى أن أشرب مثل هذا النبيذ المعتق مرة واحدة ، بل ولا يمكننى أن أشرب الكأس مرة واحدة فى حالتى هذه » .

— إن هذا يشرفك ، خذ الكأس معك ! .

— شكراً يا سيدى .

وملأ جرير كأسه وكأس إليزابيث مرة ثانية وقال : « أنا لا أفعل هذا لأبين أننا غير خائفين . وإنما أفعله ببساطة لأنه من الأحسن أثناء الغارة الجوية أن تشرب ما لديك . فالإنسان لا يعلم إن كان سيعثر عليه ثانية » .

ونظرت إليزابيث إلى زيه العسكرى : « ألا يكشف أمرك فى المخبأ ما دام المخبأ مليئاً بالضباط ؟ » .

— لا يا إليزابيث .

— لم لا ؟ .

— لأن الأمرين سيان عندى .

— ألا يكشف أمر المرء إن كانت المسألة بالنسبة له سواء ؟ .

— الاحتمال أقل . فالخوف يلفت النظر . والآن تعالى فقد تدلينا على خوفنا .

* * *

كان جزء من قبو النبيذ مبنياً بالحراسانة المسلحة ، ومستنداً على أعمدة من الصلب ، مبنياً كمخبأ للغارات . وكانت هناك مقاعد ومناضد وآرائك متناثرة ، وبعض السجاجيد البالية على الأرض . أما الحوائط فنظيفة ومطلية بطلاء أبيض . كان هناك مذياع وعلى صوان جانبى وجدت زجاجات وكؤوس . كان مخبأ فاخراً .

ووجدا مكاناً فى أحد الجوانب بجوار الباب الذى يؤدى إلى قبو النبيذ الأصلى . وتبعتهم مجموعة من النزلاء بينهم سيدة رائعة الجمال فى ثياب السهرة . وكان ظهرها عارياً ولمع ذراعها الأيسر بعديد من الأساور . وتبعتها سيدة شقراء عالية الصوت ذات وجه يشبه سمكة البلطى . ثم عديد من الرجال ، وبضع سيدات فى منتصف العمر ، ومجموعة من الضباط ، ثم ظهر ساق ومساعد له وفتحا الزجاجات .

وقال جرير : « لينا أحضرنا نبيلنا » .

وهزت إليزابيث رأسها .

— معك حق . إنها فعلة ملعونة .

وقالت : « يجب ألا تفعل هذا فهو يجلب سوء الحظ » .

وفكر جرير ، معها حق . ثم نظر بغضب إلى الساقى الذى دار حاملا الصينية . ليس هذا من الشجاعة فى شىء ، بل طيش . فالخطر أمر جاد لا يصلح للشراب . أمر جاد عميق . ويعرف الإنسان هذا بعد الموت الكثير .

وقال أحدهم لجواره : « إنه الإنذار الثانى . إنهم آتون » .

وجذب جرير مقعده بجوار إليزابيث فقالت إليزابيث : « أنا خائفة رغم السيد الجيد ورغم كل العزم والتصميم » .

— وأنا أيضاً .

وأحاط كتفيها بذراعه . وأحس أنها متوترة . فاجتاحته فجأة موجة من الحنان . كانت كحيوان أحس بالخطر وانكمش على نفسه . لم تتظاهر بشىء ولم ترد ذلك . كانت شجاعتها سلاحها . وقد انكمشت الحياة فيها عند سماع صوت صفارة الإنذار التى تغيرت نغمتها وأصبحت الآن تعنى الموت . ولم تحاول أن تخفى هذا .

ورأى أن مرافق الشقراء يرمقه . كان ملازما اول . ونحيفاً ذا ذقن مدببة . وضحكت الشقراء وأعجب بها الجالسون حول المنضدة المجاورة .

واجتاحت الخبأ هزة خفيفة ، أعقبها صوت انفجار مكتوم . فتوقف الحديث ثم عاد ثانية أكثر ارتفاعاً ودوياً . وتبع ذلك ثلاثة انفجارات أخرى سريعة وقريبة .

وأمسك جرير بإليزابيث وضمها . ورأى أن الشقراء قد كفت عن الضحك . وهزت الخبأ ضربة شديدة غير متوقعة ، وأتى مساعد الساقى بالصينية جانباً وانكمش بجوار أعمدة (البوفيه) الخشبية المخروطة وصاح صوت حاد : « لا تخافوا فهى بعيدة جداً عن هنا ! » .

وفجأة بدأت الحوائط تتشقق وتتساقط أجزاء صغيرة منها . واهتز الضوء كما يحدث فى فيلم سيئ الإضاءة . ودوى صوت الهيار وتتابع الظلام والنور بشكل عنيف . وفى هذا الضوء ظهرت المجموعات الجالسة حول الموائد وكأنها لقطات فى فيلم يعلى العرض . ووقفت السيدة ذات الظهر العارى وكانت فى البدء جالسة ، وقفت أثناء الضرب المتتالى والضوء الساطع . وفى المرة الثالثة تركت المكان ولجأت إلى أقرب مكان مظلم . وأمسك بها الناس فصرخت . ثم انطفأ الضوء تماماً ودوى انفجار هو مائة صدى . بدا وكأن ثقل الأرض كلها قد ارتفع وأن الخبأ قد انهار . وصاح جرير : « إنه النور فقط يا إليزابيث قد انطفأ . إنه ضغط الهواء ولا شىء أكثر من ذلك . تحطمت توصيلة النور فى مكان ما . ولكن الفندق لم يصب » .

والتصقت به . وصاح أحدهم : « شموع ، لقاب ! يجب أن تكون هنا بعض الشموع . اللعنة ، أين الشموع ؟ أو مصابيح الجيب ! » .

وأشعلت بعض أعواد الثقاب . كانت الأضواء ضعيفة وسط المكان المدوى وأنارت الوجوه والأيدى . وكأن الدم قد دمر الأجسام ولم تظهر غير الأيدى والوجوه فقط — وكأنها معلقة .

— اللعنة ، ألا يوجد بالإدارة ضوء احتياطى ؟ وأين الساقى ؟ .

وتذبذبت دوائر الضوء إلى أعلى وإلى أسفل وعلى الحوائط وهنا وهناك .

وبدا ظهر السيدة العارى لحظة ، وكذلك بريق الجواهرات وفم مفتوح مظلم — بدا كل هذا وكأن ريحاً سوداء تعبث به . وكانت الأصوات وكأنها صرخات ضعيفة ترسلها فئران الحقول ، عبر نغمات حزينة صادرة من هوّات مفتوحة . ثم دوّى صراخ بدأ يشتد بشكل جنونى لا يحتمل ، وكأن كوكباً من الصلب يندفع نحو المخبأ مباشرة . واهتز كل شىء ، واهتزت دوائر النور وانطفأت ولم يهتز المخبأ ثانية ، فقد بدأ الانهيار المروع ، وكأنه قد دمر كل شىء وجعله يتناثر فى الهواء . وأحس جريبر أنه يطير ويخبط برأسه فى السقف . فأمسك إليزابيث بذراعيه وكانت هى تكن يحاول الإفلات منه . فألقى نفسه عليها وجذبها إلى الأرض ، وأسقط مقعداً على رأسها وانتظر انهيار السقف .

وتناثرت الشظايا واهتزت الدنيا وانقلبت وتشققت . وكأن يد عملاق قد ضربت المخبأ وألقت به فى الفضاء ، فأحس الناس أن رئاتهم وأمعاءهم قد انتزعت منهم ، وأن الدم يندفع من شرايينهم . بدا وكأنهم فى انتظار مجىء الظلام الأبدى والاختناق .

ولم يحدث شىء ، بل أضاء النور فجأة شعاعاً متردداً سريعاً وكأن عموداً من النور قد انبثق من الأرض . كان شعاعاً أبيض وصرخت سيدة : « أنا أحترق ، أنا أحترق ، العون ! الغوث ! » .

وقفزت إلى أعلى وضربت بذراعيها حولها ، فتناثرت الشرارات نتيجة ضرباتها ، وتلألأت الجواهر — وأضاء الوجه المرتعش لامعاً . ثم اندفعت

وتطايرت الثياب العسكرية نحوها . ثم سحبها أحدهم إلى الأرض ، فلوت نفسها وصرخت صرخة علت على صفارات الإنذار وعلى الانفجارات والدمار ، صرخة حيوان مكتومة ، ثم متقطعة وهى تزحزح تحت المعاطف ومفارش الموائد والوسائد الموجودة فى المخبأ المظلم . وكأن الصوت خارج من قبر .

وأمسك جريبر برأس إليزابيث بين يديه بخفة ، وجذبه بشدة نحوه ، ووضع ذراعه حول أذنيها ، حتى توقف الحريق والصراخ ، وتحول الاشتعال إلى ظلام ودخان ، كان دخان الثياب ، واللحم والشعر المحترق .

— طبيب ، احضروا طبيباً ! أين الطبيب ؟ .

— ماذا ؟ .

يجب أن تنقل إلى مستشفى ! اللعنة ، لا يمكننى أن أرى شيئاً ، علينا أن نحملها إلى هناك .

وقال أحدهم : « الآن ؟ وإلى أين ؟ » .

وسكت الجميع وأنصتوا . كانت المدافع تدوى بجنون بالخارج ، ولكن انفجارات القنابل توقفت وكانت قذائف المدافع فقط هى التى تفرقع .

— لقد ذهبوا . انتهت الغارة .

وهمس جرير فى أذن إليزابيث : « إبق راقدة . لا تتحركى ! انتهى كل شىء لكن مع ذلك إبق ! لن يدوس هنا إنسان عليك لا تتحركى ! » .

وقال صوت كأنه صوت معلم بالمدرسة : « علينا أن ننتظر ، إذ يمكن أن يعود سرب آخر ، وليست الدنيا بالخارج مأمونة فهناك الثعابا ! » .

وسقط شعاع مستدير الضوء على الباب ، كان شعاع مصباح جيب . وبدأت السيدة الملقاة على الأرض تعاود الصراخ : « لا ، لا ! أطفئوا هذه النيران ! أطفئوها ! » .

— ليست نيرانًا ، ولكنها مصباح جيب ؟ .

وارتعشت دائرة الضوء بطيئة فى الظلام . كان مصباحًا صغيراً جداً .

— هنا ، تعال إلى هنا . من هذا ؟ من صاحب المصباح ؟ .

وصنع المصباح دائرة سريعة لمعت فوق السقف . وعادت فأضاءت قميصًا منشى ثم جزءاً من رداء القراك وربطة عنق سوداء ، ثم وجهًا مضطربًا : « أنا رئيس السقاة — فريتس ، إن قاعة الطعام قد انهارت ولا يمكننا أن نقدم الطعام ، فإن أراد السادة أن يدفعوا الحساب » .

— ماذا ؟ .

واستمر فريتس فى تسليط الضوء على نفسه : « الغارة انتهت وقد أحضرت معى مصباح الجيب والحساب » .

— ماذا ؟ يا للقطاعة ! .

وأجاب فريتس وهو واقف فى الظلام لا حول له : « سيدى إن رئيس السقاة مسئول أمام إدارة المطعم عن دفع الحساب من جيبه الخاص » .

وصرخ الرجل فى الظلام : « فظيع ! أنحن نصابون ؟ لا تضيء وجهك العكر ثانية ! تعال هنا ! بسرعة ! هنا إنسان مجروح ! » .

واختفى فريتس ثانية فى الظلام . وتحولت دائرة الضوء إلى الحوائط ، ثم فوق خصلة من شعر إليزابيث ، ثم سارت على الأرض إلى مجموعة من الأزياء العسكرية ، ثم بقى هناك واقفًا . وقال رجل بدا شاحبًا فى قميصه : « يا إلهى » .

ومال إلى الخلف ، وكانت يداه فقط مضاءتين . وقد ارتعدت دائرة الضوء فوقهما . وبدا أن رئيس السقاة قد ارتعد هو أيضًا وطارت السترات العسكرية جانبًا .

وقال الرجل مرة ثانية : « يا إلهى » .

فقال جرير : « لا تنظرى فهذا يمكن أن يحدث . يحدث فى كل مكان ولا علاقة له بالغارة الجوية . ولكن يجب ألا تبقى بالمدينة . سأنقلك إلى قرية لن يضربوها بالقنابل ، أعرف قرية وأعرف أناساً هناك . وسيقبلونك عندهم ، ويمكننا أن نسكن هناك . ستكونين هناك أكثر أمانًا » .

وصاح الرجل الذي ركع : « نقالة ، أليس لديكم نقالة في الفندق ؟ » .

« أظن لدينا يا سيد — » ولم يستطع رئيس السقاة أن يتعرف في الرتبة إذ كانت السترة ملقاة على الأرض مع بقية السترات بجانب السيدة . ولم ير غير إنسان يرتدي سروالا (بنطلونا) مرفوعاً بحمالات وسيفاً مربوطاً حول وسطه وسمع صوتاً آمراً . وقال فريتس : « عفواً إن كنت قد طلبت الحساب . لم أكن أعلم أن إنساناً قد جرح » .

— هيا أحضر النقالة . أو انتظر سآتي معك . كيف الحال بالخارج هل يمكننا أن نذهب ؟ .

— نعم .

ونهض الرجل وسحب سترته ، فأصبح فجأة رائداً ، واختفى شعاع الضوء . وبدا وكأن شعاع الأمل قد اختفى أيضاً . وسمع صوت السيدة المتأوه ، وصاح صوت ، وسمع صوت أحد الرجال صارخاً : « قائد ! قائد ! ماذا علينا أن نفعل الآن ؟ قائد ! » .

وقال أحدهم : « يمكننا أن نخرج » .

وقال صوت معلم المدرسة : « إن صفارة انتهاء الغارة لم تصدر بعد » .

— لتذهب أنت وصفارتك إلى الشيطان ! أين الضوء ؟ الضوء ! .

— نحن بحاجة إلى طبيب — مورفين .

وقال الصوت الصارخ : « قائد ، ماذا ستقول لا يرهارد ؟ ماذا » — وصرخت السيدة : « لا ، لا ، لا أريد ضوءاً — لا أريد ضوءاً » .

وعاد الضوء ، وكان هذه المرة ضوء مصباح بترولي ، حمله الرائد . وحمل اثنان من السقاة النقالة خلفه : لا يوجد تليفون فالاتصال مقطوع . هيا أحضروا النقالة إلى هنا ! » .

ووضع المصباح على الأرض وصاح الرجل ثانية : « قائد — قائد ! »

وقال الرائد : « هيا أبعد ، فيا بعد » ، وركع بجوار السيدة ، ثم انتصب ثانية — هكذا ! تم الموضوع . ستنام حالا . فهذه حقنة لجميع الحالات . بحذر ، ارفعوها على النقالة بحذر . علينا أن ننتظر بالخارج حتى نجد سيارة إسعاف ، إن وجدنا إحداها » .

وقال كبير السقاة فريتس طائعاً : « سمعاً وطاعة يا سيدي الرائد » .

وتأرجحت النقالة إلى الخارج . كما تدحرجت الرأس المخروقة السوداء عليها هنا وهناك وقد تغطى الجسم بمفرش منضدة .

وقالت إليزابيث : « أهي ميتة » ؟ .

وقال جريبر : « لا . ستشفى ، وسينبت الشعر » .

— والوجه ؟ .

« تستطيع أن ترى . فالعينان لم تتأثرا . ستشفى كل شيء . رأيت كثيرين من الجرحى ، أما هذه الإصابة ، فليست خطيرة » .

— ولكن كيف حدث هذا ؟ .

— لقد اشتعل الثوب . فقد كانت قريبة من أعواد الثقاب ولولا ذلك ما حدث شيء . فالحظ جيد وقد تحمل ضربة مباشرة قوية .

ورفع جريير المقعد الذى ألقاه على إليزابيث ، وسار على زجاج مكسور ، ورأى أن باب قبو النبيذ قد كسر ، وقد تعلقت بعض الرفوف مائلة وكسرت الزجاجات وتبعثرت وسال النبيذ على الأرض كزيت أسود .

وقال جريير لإليزابيث : « لحظة ! » ، ثم أخذ معطفه : « سأعود حالا » ، وسار إلى القبو . وعاد ثانية بعد لحظة . « والآن يمكننا أن نذهب » .

* * *

كانت النقالة التى رقدت عليها السيدة موجودة بالخارج . وصفر اثنان من السقاة بأصابعهما ينادىان عربة . وقال الرجل الذى يصحبها بصوته الصارخ : ماذا سيقول إيبرهارد ؟ يا إلهى : سوء حظ ملعون ! كيف يمكننا فقط أن نشرح له هذا ؟ » .

وفكر جريير : يظهر أن إيبرهارد زوجها . ثم أوقف أحد السقاة وسأله : أين ساقى قاعة النبيذ ؟ » .

— أيهما ؟ أوتو أو كارل ؟ .

— رجل عجوز صغير الحجم يبدو كطائر « أبى مركوب » .

ونظر الساقى إلى جريير وقال : « أوتو . أوتو مات فقد انهارت قاعة النبيذ وسقطت فوقه النجفة . أوتو مات يا سيدى » .

وصمت جريير لحظة : « أنا مدين له ببعض النقود » . ثم قال : « زجاجة نبيذ » .

وسح الساقى جبينه وقال : « يمكنك أن تدفع لى يا سيدى » .

« نوع النبيذ ؟ »

— زجاجة يوهانسبرجر كالبترج .

— صنف ممتاز ؟ .

— لا .

وأخرج الساقى قائمة من جيبه وأضاء مصباح الجيب . ثم أطلع جريير على الثمن .

وأعطاه جريير النقود فوضعها الساقى فى جيبه . وعرف جريير أنه لن يسلم النقود . وقال لإليزابيث : « تعالى ! » .

وبحثا عن طريق بين الأنقاض . وكان الجزء الجنوبى من المدينة يحترق ، وأصبحت السماء رمادية وحمراء ودفع الريح أمامه سحب الدخان .

— علينا أن نرى يا إليزابيث إن كان مسكنك لا يزال موجوداً .

وهزت رأسها : « أمامنا وقت طويل فلنبق فى مكان ما بالخارج » .

ووصلا إلى الميدان الذى به مخبأ الغارات الذى اختبيا فيه قبل ذلك . وكان المدخل غارقاً فى الأتربة وكأنه مدخل العالم السفلى . وجلسا على مقعد فى الحديقة .

وسأل جريير : « لعلك جائعة ؟ لم تأكل شيئاً » .

– لا بأس . ولكنى لا أستطيع أن آكل شيئاً »

وفتح معطفه ، فرنّ شيء ثم أخرج زجاجتين من جيوبه : « لا أعرف ماذا أخذت ربما كانت هذه كونياك » .

– وحملقت فيه إيزابيث : « من أين لك هذا ؟ » ؟

– من قبو النبيذ . فقد كان الباب مفتوحاً وتكسرت زجاجات كثيرة . ولنفترض أن هاتين الزجاجتين قد كسرتا أيضاً .

– أخذتهما هكذا ببساطة ؟ .

– طبعاً ؟ فالجندى الذى يتخلى عن قبو نبيذ مفتوح لا بد أن يكون مريضاً جداً . تعلمت أن أفكر بشكل عملى ، وأتصرف بطريقة عملية فالوصايا العشر لا تصلح للجند

نظرت إليه إيزابيث : « هذا بالتأكيد ! فأنتم تختلفون عنا كثيراً . وماذا يعرف الإنسان عنكم ! » .

– تعرفين عنا الكثير !

وأعادت كلامها : « ماذا يعرف الإنسان عنكم ! فأنتم هنا لستم أنتم . فأنتم تكونون حقاً ما أنتم فى المكان الذى جئتم منه . ومن يعرف عن هذا شيئاً ؟ » .

وأخرج جريبر من الجانب الآخر من المعطف زجاجتين أخريين : « هاك زجاجة تفتح دون فتاحة ، إنها شمبانيا » وأزال السلك .

– أرجو ألا يكون لديك مانع أخلاقى من الشراب .

– لا . لم يعد بعد .

– لا نريد أن نحتفل بأى شيء . ولذا لن يجلب لنا نحساً . سنشرب الشمبانيا لأننا عطشى وليس لدينا ما يروى ظمأنا غيرها . أما عنى أنا فأشرب نخب بقائنا أحياء .

وابتسمت إيزابيث : « لست بحاجة لأن تشرح شيئاً فقد تعلمت هذا . ولكن اشرح لى أمراً آخر . لم دفعت ثمن الزجاجة وقد أخذت معك أربعاً ؟ » .

– هناك فارق . فعدم الدفع فى هذه الحالة نصب .

وأدار جريبر الغطاء بحذر حتى أخرجه دون أن يدع الزجاجة تفرقع : « علينا أن نشرب من الزجاجة يا إيزابيث وسأعلمك هذا » .

. . .

وسكنت الدنيا وخيم شفق الغروب الأحمر وأصبح كل شيء فى هذا الضوء القريب غير حقيقى وقالت إيزابيث فجأة :

– انظر إلى هذه الشجرة إنها مزهرة .

ونظر جريبر إلى الشجرة وكانت قنبلة قد اقتلعت جزءاً كبيراً منها ، وتعلق جزء من الجذور فى الهواء بينما انكسر الجذع وانتزعت بعض الأفرع ، إلا أنها امتلأت بالزهور البيضاء التى أضاءها اللون الأحمر .

وقال جريبر : « لقد احترق البيت المجاور لها . وربما أقلقتها الحرارة فهى أبعد من بقية الشجر هنا . ولكنها مع ذلك أكثر شجرة أصيبت .

ونهضت إليزابيث إليها . وكان مقعدهما فى الظل . ودخلت إليزابيث منطقة انعكاسات أضواء الحرائق كراقصة تتحرك فى ضوء أحد المسارح . وأحاط بها الضوء كريح حمراء ، والعكس خلفها فبدت كنجم ضخم يعلن دمار العالم أو مولد مخلص جديد .

وقالت : « إنها مزهرة والربيع موسم الأشجار والأزهار ولا تهتم الأشجار بغير هذا » .

وأجاب جريبر : « ثم فهى تعلمنا ، إن تعاليمها لا تنتهى . وبعد ظهر اليوم رأيت شجرة الكافور . والآن هذه الشجرة تنمو وتمتلئ بالأوراق وتزهر . وحتى عندما تقتلع ينمو الجزء الذى له جذور باقية فى الأرض . إنها لا تنتهى . وهى لا تشكو ولا تحس بالأسى لنفسها » .

وعادت إليزابيث ببطء وجلدها يلمع فى الضوء الغريب الذى لا ظلال له . وبدا وجهها برهة مسحوراً ومأخوذاً بسحر الأزهار المتفتحة وسط الدمار ، ثم لا مبالاة النمو . وخرجت من الضوء وكأنها خرجت من دائرة ضوء كشاف ، واستعادت دفئها وتنفسها وحيويتها ثانية فى الظل . فجذبها نحوه إلى أسفل وبدت الشجرة فجأة ضخمة ، الشجرة التى تحاول الإمساك بالسماء الحمراء . واقتربت الأزهار ثم شجرة الكافور وتلتها الأرض . وانخفضت الشجرة فظهرت الحقول والسماء وإليزابيث وأحس لنفسه بداخلها ولم تقاومه .

الفصل الخامس عشر

كانت الغرفة ٤٨ تموج بالحركة . فقد وقف الثالث من لاعبى الورق ، ومعهم ذو الرأس البيضاوى ، فى ثياب الميدان كاملة بعد أن قرر الطبيب صلاحيتهم للقتال استعداداً للذهاب إلى الميدان محمولين فى سيارة .

وحملق ذو الرأس البيضاوى وهو شاحب الوجه فى رويتر وقال : « أنت وقدمك اللعينة ! . أيها المتهرب ! أتبقى هنا بينما أنا ، أنا رب الأسرة أذهب للقتال ! » ولم يجب رويتر . ونهض فيلدمان فى فراشه وقال : « اخرس يا ذا الرأس البيضاوى ! إنك لا تذهب إلى الميدان لأنه هنا ، وإنما لصلاحيتك للقتال . ولو كان رويتر صالحاً للقتال وتقرر أن يذهب إلى الجبهة ، لكان عليك أنت أن تذهب أيضاً . أفهمت . لا تقل كلاماً فارغاً ! » . .

وصاح ذو الرأس البيضاوى بغضب : « أنا ذاهب إلى الجبهة وأقول ما أريد ! بينما تبقون أنتم هنا حول المنضدة تأكلون وتنامون ، وأنا رب الأسرة أحارب . ويترع هذا المتهرب الممتلئ شحماً كؤوس الخمر كى لا تلتئم قدمه الملعونة ! » .

وقال رويتر : « أما كنت تفعل هذا لو استطعت » .

ـ أنا ؟ لا ! لم أتهرب أبداً ! .

ـ حسن ، لقد انتهى الأمر . فما صياحك إذن ؟

وسأل ذو الرأس البيضاوى وقد بوغت : « ماذا ؟ » .

ـ أنت مخمور لأنك لم تتهرب أبداً . إذن استمر ! ، فحرك ، ولا تصح ! .

ـ ماذا ؟ يا لها من طريقة ملعونة لإدارة الكلام ! هذا كل ما تستطيع أيها الخنزير ، أليس كذلك ؟ تدير الكلام إلى فم المتحدث . سيكتشفون أمرك ويمسكون بك حتماً . وإن لم يفعلوا أخبرت عنك ! » .

وقال أحد لاعبى الورق اللذين تقرر ذهابهما إلى الجبهة : « لا تتراق إلى الخطأ ! تعال : يجب أن تنزل . هيا تحرك ! » ؟

ـ لست أنا المخطئ ، بل هؤلاء . من العار أن أذهب أنا رب الأسرة بدلا من هذا السكير الخنزير . أريد العدالة ! .

ـ عدالة ! يا رجل ! وأين العدالة فى الجندية ؟ تعال ! يجب أن تذهب . وداعاً يا زملاء . ولن يرشد عن أحد فهو يثرثر فقط . اعتنوا بأنفسكم ولا تبرحوا الموقع ! .

وجذب لاعبا الورق ذا الرأس البيضاوى الثائر الذى تلفت حوله مرة أخرى عند ما بلغ الباب . وقد شحب وجهه وتصبب العرق منه . وأراد أن يقول شيئاً ، إلا أنهما دفعاه إلى الخارج .

وقال فيلدمان : « يا له من متشرد ! يمثل وكأنه ممثل محترف ! أتذكرون الضجة التى أثارها لأننى أقضى إجازتى نائماً ؟ » .

وقال روبيل فجأة : « كان يخسر وقد جلس وقتها على المائدة دون أن يشترك فى اللعب . خسر مبلغاً كبيراً ، ٢٣ ماركاً ، وليس هذا بالمبلغ البسيط ، وددت لو رددت المبلغ إليه .

ـ ما زال بإمكانك أن تفعل فالعربة لم تبرح المكان بعد .

ـ ماذا ؟ .

ـ ما زالت العربة بالخارج . انزل وأعطه المبلغ إن كان ضميرك يؤنبك .

ونهض روبيل وخرج فقال فيلدمان : « وهذا مجنون آخر ، إذ ماذا يصنع ذو الرأس البيضاوى بالنقود فى الجبهة ؟ .

ـ يمكنه أن يخسرها فى اللعب .

وذهب جريبر إلى النافذة ونظر منها إلى الخارج . وكانت القافلة العسكرية قد تجمعت . فقال روبتر : « أطفال وشيوخ ! منذ ستالينجراد وهم يجندون كل إنسان » .

ـ نعم .

وانتظمت القافلة وسأل فيلدمان فجأة مندهشاً : « ماذا جرى لروبيل ؟ إنه يتكلم ! » .

وذهب فيلدمان فى قميص نومه إلى النافذة ، وقال : « ها هو ذو

الرأس البيضاوى واقف . وسيكشف الآن بنفسه إن كان النوم هنا مع حلمه بالجبهة مساويًا لنومه بالجبهة وحلمه بالوطن » .

وقال روبير : « كلنا سيكتشف هذا قريبًا . فالطبيب يريد أن يقرر صلاحيتى للحرب فى المرة القادمة ، فهو رجل شجاع وقد شرح لى أن الألمانى الأصيل لا يحتاج إلى ساقين ليقاتل . إذ يمكنه أن يقاتل جالسًا » .

ووصلت الأوامر الصادرة فى الخارج إلى أسماعهم . وسارت القافلة . ورآها جرير وكأنه ينظر من خلال عدسة تصغر كل شىء . كان الجنود كعرائس حية تحمل أسلحة الأطفال وتسير متعثرة .

وقال روبير : « مسكين ذو الرأس البيضاوى . لم يكن غاضبًا منى بل من زوجته . فهو يعتقد أنها ستخونه بعد ما يرحل . وغاضب أيضًا لأنها ستحصل على مرتب زوجة الجندى لتنفقه فى قضاء متعتها مع حبيبها » .

وسأل جرير : « مرتب زوجة الجندى ؟ أيوجد شىء مثل هذا ؟ » .

وهز فيلدمان رأسه وقال : « من أين أتيت يا رجل ؟ زوجة الجندى تحصل على مائتى مارك . وهذا مبلغ طيب دفع الكثيرين إلى الزواج . إذ لِمَ يترك الجنود هذا المبلغ للدولة ؟ » .

وتحول روبير عن النافذة ، وقال لجرير : « كان صديقك بيندبج هنا وسأل عنك » .

— ماذا أراد ؟ أقال شيئًا ؟ .

— يقيم حفلا بمنزله ويود أن تكون موجودا .

— ولا شىء غير هذا ؟ .

— ولا شىء غير هذا .

ودخل روميل وسأله فيلدمان : « هل قابلت ذا الرأس البيضاوى ؟ »

وأومأ روميل متململا ، ثم قال بصوت متهدج : « لديه على الأقل زوجة . أما أن يذهب هكذا مثل بعد أن فقد كل شىء » . ثم أدار رأسه بعنف وألقى نفسه فى فراشه وتظاهر الجميع وكأنهم لا يسمعون شيئًا .

وهمس فيلدمان : لو شاهد ذو الرأس البيضاوى هذا ! لقد راهن على أن روميل سينهار اليوم » .

وقال روبير بغضب : « دعه ؟ فمن يعرف متى سنتهار أنت ؟ لا أحد يدرى » ، ثم اتجه إلى جرير : كم تبقى لك من الإجازة ؟ .

— أحد عشر يومًا .

— أحد عشر يومًا ! وقت طويل على ما يبدو .

وقال جرير « كان كذلك حتى أمس . ولكنه اليوم قصير بشكل مرعب » .

* * *

قالت إليزابيث : « لا أحد هنا . لا السيدة ليزر ولا طفلها . والمسكن ملك لنا .

ـ حمداً لله ! فقد قررت أن أقتلها اليوم لو قالت كلمة واحدة . هل حدثت أمس مشادة بينك وبينها ؟ .

ـ تعتبرني عاهرة .

ـ لم ؟ لم أمكث أمس إلا ساعة واحدة .

ـ كان ذلك بسبب أول أمس . فقد بقيت هنا الأمسية كلها .

ـ ولكننا غطينا ثقب المفتاح وأدرنا الحاكي طول الوقت . فكيف عرفت ؟ .

ـ « نعم كيف ؟ » وصعدته إليزابيث بنظرة سريعة .

ونظر إليها جرير وقد صعدت الحرارة فجأة إلى جبهته . وفكر : أين كانت عيناي في الليلة الأولى . ثم سأل إليزابيث : « وأين ذهبت الملعونة ؟ » .

ـ إلى القرى لتجمع معونات الشتاء او الصيف ، لست ادري . وستعود غداً مساء . أمامنا مساء اليوم وطول الغد .

ـ طول الغد ! كيف ؟ ألا تذهبين غداً إلى مصنعك ؟ » .

ـ لا ، فغدا الأحد . والأحد إجازة .

وقال جرير : « الأحد ! كم أنا محظوظ ! لم أعلم شيئاً عن هذا . وأخيراً أراك يوماً بالنهار ، فحتى الآن كان لقاؤنا في المساء والليل » .

ـ أكان كذلك ؟

ـ نعم . خرجنا أول مرة يوم الاثنين . وكانت معنا زجاجة الأرمانياك .

ـ « صحيح ! » ، قالتها إليزابيث مندهشة ، ثم واصلت : « وأنا أيضاً لم أرك بالنهار » ، وصمتت لحظة ، ثم نظرت إليه إلا أنها عادت ونظرت بعيداً : « نعيش حياة عليلة . أليس كذلك » .

ـ ليس أمامنا غير هذا .

ـ وهذا أيضا صحيح . ترى كيف سيبدو ، لو جلس كل منا قبالة الآخر في الشمس الحارقة ؟

ـ لنترك هذا للإرادة الإلهية . ماذا نفعل الليلة ؟ أنذهب إلى نفس المطعم الذي كنا فيه أمس ؟ كان سيئاً جداً . لقد افتقدنا (جرمانيا) . خسارة ؟ جرمانيا مغلق » .

ـ لنبق هنا . ولدينا من الشراب ما يكفينا وسأطبخ أي شيء » .

ـ أتتحملين البقاء هنا ؟ ألا تفضلين الخروج ؟

ـ المسكن بدون ليزر يبدو دائماً وكأننا في إجازة .

إذن لنبق . وسنكون سهرة ممتعة . أمسية بدون موسيقى ولن أحتاج إلى العودة للتكنات . ولكن كيف نأكل ؟ أيوسعك حقاً أن تعدي طعاماً ؟ لا يبدو عليك هذا .

– سأحاول . ليس لدى الكثير ، فقط ما أحصل عليه بالبطاقة .

– لا يمكن أن يكون هذا كثيراً .

وذهبا إلى المطبخ . ورأى جرير ما لديها من طعام لا يذكر : بعض الخبز ، وعسلاً غير طبيعي وزبداً صناعيًّا وبيضتين وبعض التفاح العطب . فقالت إليزابيث : يوسعى أن أحصل على كمية أخرى . إذ لم أستهلك كل شيء . وأعرف محلا يفتح في المساء .

وأغلق جرير الدرج وقال : « احتفظي بتموينك فستحتاجين إليه ! وسأجلب اليوم العشاء بطريقة أخرى . سأتولى الأمر » .

قالت إليزابيث قلقة : « لن تسرق شيئاً يا إرنست ، فالسيدة ليزر تعرف كل جرام يخصها » .

– أنا أتصور هذا . ولا أريد اليوم أن أسرق ، أريد أن أغتصب كجندي في بلاد الأعداء . وقد دعاني الفونس بيندنج إلى حفل صغير وسأذهب إليه وآخذ منه ما كنت سآكله إذا ما حضرت الحفل ، منزله ملىء بالطعام والمؤن . سأعود بعد نصف ساعة .

* * *

استقبل الفونس جرير بذراعين مفتوحتين ورأس أحمر ، وقال : « حسن ، ها أنت قد أقبلت يا إرنست : ادخل ! اليوم عيد ميلادي وعندي بعض الأصدقاء » .

وامتلأت الغرفة المزدانة بأدوات الصيد، بالدخان والناس ، وقال جرير بسرعة لألفونس في المر : « اسمع يا ألفونس ، لا يمكنني أن أبقى ، فقد مررت بسرعة وسأعود ثانية » .

– تعود ؟ لن يحدث هذا يا إرنست .

– بلى . فلدي موعد ارتبطت به قبل أن أسمع أنك دعوتني .

– « لا بأس ! قل للناس ، كان عليك أن تذهب إلى اجتماع رسمي مفاجيء . أو لاستجواب ! » . وضحك الفونس ضحكة مدوية : « هنا ضابطان من ضباط الجستابو ! سأعرفك بهما فوراً . فقل إنه كان عليك أن تقابل الجستابو ولن تكون قد كذبت ... أو أحضر معارفك إن كانوا ظرفاء ! » .

– غير ممكن .

– لِمَ ، لم لا ؟ كل شيء جائز عندنا ! .

ورأى جرير أنه من الأبسط أن يقول الحقيقة : « تصور يا ألفونس ! لم أعرف أنك تحيي عيد ميلادك ، بل حضرت إليك لآخذ بعض الأكل والشراب إذ سأقابل إنسانًا . وليس بوسعي أن أحضره بأي حال من الأحوال وإلا كنت أكبر حمار ، هل فهمت ؟ » .

وتمتم بيندنج : « فهمت ! قصة حواء الخالدة ! أخيراً ! كنت قد يئست منك . فهمت يا إرنست وعفوت عنك ولو أن لدينا هنا بعض النسوة المختارات . ألا تريد أن تلقي عليهن نظرة قبل أن تذهب ؟ . . .

(إرما) امرأة مدهشة ملعونة . بل بيسعك أيضاً أن تنام الليلة مع (جودرون) ، فهى على استعداد دائم لاستقبال جنود الجبهة ورائحة الخنادق تثيرها » .

— ولكن لا تثيرنى أنا .

وضحك ألفونس : ولا حتى رائحة معسكرات التعذيب التى تفوح من إيرما ؟ هذه الرائحة تجعل سينجمان يطير . إنه الفتى المثلى* الجالس على الأريكة : أنا لست كذلك . أنا عادى وأميل للسيدة الممتلئة . أترى هذه الصغيرة الجالسة فى الركن ؟ أتعجبك ؟ .

— ممتازة ! .

— أتريدها ؟ أتنازل لك عنها يا إرنست لو بغيت .

وهز جريبر رأسه وقال : « غير ممكن » .

— فهمت . لا بد أن صديقتك صنف ممتاز . لا ترتبك يا إرنست . فألفونس شهم . دعنا نذهب إلى المطبخ . ونبحث لك عن شىء ، ثم نشرب كأساً نخب عيد ميلادى . اتفقنا ؟! .

— اتفقنا ! .

ووقفت السيدة كلايترت فى المطبخ ، مؤتزرة بإزار أبيض وقال بيندبج « الموجود وجبة باردة يا إرنست وهذا لحسن حظك . اختر ما تريد . أو الأفضل . أعطى لنافة طيبة من الطعام ! ودعنا نذهب إلى القبو » .

وكان القبو ممتلئاً وقال بيندبج : « والآن دع الأمر لألفونس ولن

تندم . هناك أولاً حساء ضفادع محفوظ . يسخن ويؤكل ، وارد من فرنسا خذ علبتين ! » .

وأخذ جريبر العلبتين وواصل ألفونس البحث : « سفرجل هولندى ، خذ علبتين . يسخن أو يؤكل بارداً دون مجهود فى الطهى . وهناك لحم خنزير من براج فى علبة . إنه تموين تشيكوسلوفاكى . » ثم صعد فوق سلم صغير : « قطعة من الجبن الدانمركى وعلبة من علب الزبد . ليست سريعة الفساد . وهذه إحدى خصائص المعلبات . وهناك خوخ معلب . أم أن فتاتك تفضل الفراولة ؟ » .

وتأمل جريبر السيقان القصيرة الواقفة أمامه فى الحذاء اللامع الطويل وقد سطعت خلفه الزجاجات والعلب ، ثم فكر فيما لدى إليزابيث من مأكولات ضئيلة وقال :

— الاثنان معاً .

وضحك ألفونس وقال : « معك حق . ها قد عدت أخيراً إلى إرنست الذى أعرفه . لا جدوى من الحزن يا إرنست ! إننا سنموت حتماً ، إما حزانى أو سعداء . فاستمتع بالدنيا قدر ما تستطيع ودع رجال الدين يتكفلون بما بعد ذلك ؟ هذا شعارى .

وهبط السلم وذهب إلى قبو آخر يحتوى على زجاجات وقال : « لدى هنا مجموعة كبيرة من الغنائم . فأعداؤنا ممتازون فى صنع الخمور . ماذا تريد ؟ فودكا ؟ أرمانياك ؟ وهناك أيضاً سيليفوفيتس من بولندا » .

ولم يكن في نية جريبر أن يطلب خموراً . فالكمية التي سلبها من جرمانيا تكفيه . ولكن الأمر كما قال بيلديج . فالغنائم غنائم وعلى الإنسان أن يأخذها كلما وجدها . وقال الفونس : « ولدى شمبانيا كذلك . أنا لا أحب هذا الصنف إلا أنه رائع في جلسات الحب . خذ زجاجة تعيشك الليلة ! » وضحك عالياً : « أتعرف أحب شراب عندى ؟ إنه الكوميل . أتصدق هذا ؟ الكوميل الأصيل المعتق . خذ واحدة وتذكر الفونس وأنت تشربها ! » .

وحمل الزجاجات تحت إبطيه وذهب إلى المطبخ وقال لمدبرة المنزل : « اصنعي يا كلاريت لفافة للمأكولات ولفافة للزجاجات . وضعي ورقاً بين الزجاجات كي لا تتكسر ثم ضعي رطلا من البن كذلك . أيكفيك هذا يا إرنست ؟ » .

— أرجو أن أتمكن من حمله .

وتهلل وجه بيلديج وقال : « ألفونس يقوم بالواجب كاملاً . أليس كذلك ؟ وهو لا يبخل أبداً خاصة في عيد ميلاده . ولا يتخلى عن صديق قديم من أصدقاء الدراسة .

ووقف أمام جريبر وقد برقت عيناه وتوهج وجهه الأحمر . كان كصبي وجد عش عصافير . واهتز جريبر لطيبته إلا أنه تذكر أن حالة ألفونس اليوم تشبه حالته عندما قص عليه قصة هايني .

وغمز بيلديج لجريبر وقال : « القهوة لصباح الغد . فالتمتع بيوم الأحد انتفاعاً طيباً ولا تبت في الثكنات ! والآن تعال ! سأقدمك لبعض الأصدقاء . شيبت وهو قصاب من الجستابو . ومثل هذا الصنف ينفع دائماً . اجلس بضع دقائق فقط لتشرب فيها كأساً في صحتي وتمنى أن يبقى كل شيء على ما هو عليه الآن ! المنزل وما يحوى . . . . وبللت الدموع عيني بيلديج . وقال : « لسنا الآن إلا رومانسيين لا حول لنا . . . . » .

* * *

وقالت إليزابيث متأثرة : « لا يمكننا أن نترك هذا كله في المطبخ . فلنحاول إخفاءه . إذ لو رآه ليزر . أبلغت عني فوراً واتهمتني بالتعامل مع السوق السوداء . . . . » .

— يا للعنة . لم أفكر في هذا . ألا يمكن رشوتها بشيء من الأشياء التي لا نحتاج إليها .

— أهنا شيء لا نحتاج إليه ؟ .

وضحك جريبر وقال : « لا شيء حقاً غير عسل النحل الصناعي وكذلك السمن الصناعي . وحتى هذه الأشياء سنحتاج إليها بعد بضعة أيام .

وقالت إليزابيث : « كما أنها لا ترتشى . فهي فخورة بكونها تعيش على مخصصات بطاقتها فحسب » .

وفكر جريير : يمكننا أن نأكل جزءاً حتى مساء الغد . ثم قال بعدئذ : « لن يسعنا أن نأكل كل شيء . فماذا نفعل بالباقي » .

— نخلفه في غرفتي خلف الملابس والكتب .

— وإن شمت الرائحة ؟ .

— إنني أغلق الغرفة كل صباح عندما أذهب .

— ولو كان معها مفتاح آخر .

ونظرت اليزابيث إلى أعلى وقالت : « محتمل جداً ! لم أفكر في هذا » .

وفتح جريير زجاجة وقال : « سنفكر في هذا الأمر غداً بعد الظهر . ولنأكل الآن قدر ما نستطيع . افتحي كل شيء ! واملأ المنضدة كي تبدو كمائدة حفل عيد ميلاد . كل شيء مرة واحدة » .

— وحتى المأكولات المعلبة ؟

— سنضع العلب للزينة . لن نفتحها الآن . سنأكل أولاً هذا الطعام لأنه يتلف سريعاً . ولنضع الزجاجات مع الأكل . إنها ثروتنا كلها ، حصلنا عليها بالشرف المشوب بالسرقة والانحلال .

— وحتى الزجاجات التي أخذناها من جرمانيا ؟

— وحتى هذه فقد دفعنا ثمنها خوفاً مريراً .

وحملا المائدة إلى وسط الغرفة ثم فتحا اللفافات كلها ، وكذلك زجاجات البنديكتين والكونياك والكوميل . أما زجاجة الشمبانيا ، فلم يفتحاها ،

إذ يجب أن تشرب فور فتحها على خلاف الأصناف الأخرى التي تبقى .

وقالت اليزابيث : « رائع ! عماذا نحتفل » .

وناولها جريير كأساً وقال : « بكل شيء في وقت واحد ، فليس لدينا الوقت للاحتفال بها فرادى . سنحتفل ببساطة ، بكل شيء في وقت واحد . سنحتفل أساساً بوجودنا هنا وباليومين اللذين نقضيهما معاً بمفردنا .

ودار حول المائدة واحتضن اليزابيث بين ذراعيه وأحس بها ، أحس بها وكأنها جزء من نفسه قد اتضح داخله . جزء أكثر دفئاً وغناء ومرحاً بل وأخف من بقية نفسه . جزء دون حدود ودون ماض ، حاضر فقط وحياة لا تشوبها ظلال الإثم . واستندت إليه وقد سطعت المائدة أمامها وكأنها وليمة ضخمة وسألت اليزابيث : « أليس هذا كثيراً على جلسة شراب » .

وهز رأسه وقال : « إنها كالزجاجة ذات العنق الطويل الملتف ، ولكن قاعها يشبه قاع أية زجاجة أخرى . إننا على أية حال نبتهج لوجودنا هنا معاً » .

وشربت اليزابيث كأسها : « تخالجني أحياناً فكرة ، لو تركونا ندبر أمورنا ، لعرفنا كيف نبدأ الحياة » .

وقال جريير : « وها قد بدأناها الآن بداية طيبة » .

• • •

كانت النوافذ مفتوحة ومعلقة على منزل مقابل هدمته القنابل التى أصابته الليلة الماضية . ولم يكن بالنوافذ زجاج ، فغطتها إليزابيث بورق أسود وعلقت أمامها ستائر خفيفة زاهية اللون يتلاعب بها الريح ، مما قلل الشبه بين هذه الغرفة والقبر .

كانت الغرفة معتمة . وأمكنهما أن يتركا النوافذ مفتوحة . فسمعا من وقت لآخر أناساً يمرون بالشارع يتحدثون . كما سمعا صوت المذياع وصفق أبواب تغلق . وسمعا أحدهم وقد سعل ، ثم أغلق النوافذ ، فقالت إليزابيث : « نامت المدينة . . . وأنا سكرانة ! » .

ورقدا على الفراش كل بجانب الآخر وأمامهما المائدة ملآى ببقايا العشاء والزجاجات عدا الفودكا والكونياك والشمبانيا . فقد توقعا أن يجوعا ثانية . لذلك لم يرفعا الطعام عنها . وشربا الفودكا . أما الكونياك فعلى الأرض بجوار الفراش والشمبانيا فى الحوض تنساب فوقها المياه لتبريدها .

وضع حرير كأسه على المنضدة ورقد فى الظلام . أحس كأنه يعيش فى مدينة صغيرة فى عصر ما قبل الحرب . وطرق سمعه صوت خرير مياه صادر من نافورة ، وظنين لحل فوق شجرة ونوافذ تغلق وعزف كمان صادر من إنسان يعزف قبل النوم .

وقالت إليزابيث : « سيطلع القمر حالا » .

وفكر : سيطلع القمر حالا ! القمر ، رمز الحنان وسعادة الإنسان

البسيطة . كان هناك حنان وسعادة . التمع الاثنان مع دورته الدموية التى لا يحس بها . وتغلغلا فى تفكيره الهادئ ونفسه البطىء وخشياه كنسيم هادئ منراخ . ثم خطرت بباله مناقشة بوطان . . . بدت له كأنها حدثت فى أزمان غابرة . وفكر : غريب حقاً أن يحس الإنسان بعد اليأس الواضح بمشاعر عنيفة . . . وربما لم يكن هذا غريباً . بل وربما لا يحدث إلا هذا . فطالما كان الإنسان مشغولا بأسئلة كثيرة ، يكون عاجزاً عن الإحساس بالأمور الأخرى . أما عند ما لا يتوقع شيئاً ، فهو قادر على تقبل كل شىء ، وغير هياب .

ونهر النافذة شعاع من الضوء ثم اختفى ، ثم سطع ثانية وتوقف ، فسأل جرير : « أهذا هو القمر » .

— لا . فضوء القمر ليس بهذا البياض .

وسمعا أصواتاً ونهضت إليزابيث ووضعت قدميها فى خفين ، ثم ذهبت إلى النافذة ومالت إلى الخارج . لم تبحث عن رداء أو أى شىء آخر يستر جسدها . فقد كانت جميلة وواثقة من جمالها ، ولذلك تحررت من الخجل . وقالت : « إنها فرقة إزالة الأنقاض التابعة للدفاع الجوى . ومعهم كشاف . إنهم يحفرون ويزيلون الأنقاض المتراكمة أمام منزلنا . أما زال هناك موتى تحت الأنقاض ؟ » .

— هل استمر الحفر طول النهار ؟ .

— لا أدرى فلم أكن هنا .

— ربما يريدون إصلاح وصلات الكهرباء .

— نعم ، ربما .

وعادت إليزابيث وهى تقول : « تمنيت أحياناً أن أعود بعد الغارة فأجد المسكن قد انهار واحترق . المسكن والأثاث والملابس والذكرى . . . كل شىء . أتفهم هذا ؟ » .

— نعم .

— لا أعنى ذكرى أبى ، بل الذكريات الأخرى ، الخوف واليأس والكراهية . فلو احترق المنزل ، أخذ كل هذه الأشياء ، وبدأت من جديد .

ورمقها جريبر وقد سقط الشعاع الشاحب على كتفها وسمع ضربات الفؤوس المكتومة وصوت الحفر وإزالة الأنقاض ، فقال : أعطنى الزجاجة من الحوض ! .

— الزجاجة التى أحضرتها من جرمانيا ؟ .

— نعم ، كى نشربها قبل أن تطير فى الهواء . وضعى زجاجة بينديديع مكانها فى الحوض ! فمن يعرف موعد الغارة التالية ؟ هذه الزجاجات مليئة بالغازات الكربونية وستنفجر من ضغط الهواء . ووجودها فى المسكن خطر فهى كالقنبلة . ألدينا كؤوس ؟

— أكواب ماء .

— أكواب الماء تصلح للشمبانيا . . . هكذا شربنا الشمبانيا فى باريس .

— أكنت فى باريس .

— نعم ، فى بداية الحرب .

وأحضرت إليزابيث الأكواب وجلست بجانبه . وفتح الزجاجة بحذر فثار النبيذ فى الأكواب وأحدث طبقة من الفقاقيع ثم سألته : « كم مكثت فى باريس ؟ » .

— بضعة أسابيع .

— أيكرهوننا هناك ؟ .

— لا أدرى . إذ لم أحس بكراهية كثيرة . ولم نكن على استعداد لأن نحسها ، إذ كنا نؤمن بما تقوله لنا . . . كما أننا أردنا أن ننتهى من الحرب بسرعة ، كى نجلس فى المقاهى على أرصفة الطرق ، فنستمتع بالشمس ، ونشرب النبيذ الذى لم نعهده . كنا شباباً .

— شباب . تقولها وكأن هذا قد حدث فى أزمان غابرة .

— يبدو لى الأمر كذلك .

— ألم تعد اليوم شاباً ؟ .

— بلى ولكن بطريقة أخرى .

ورفعت إليزابيث كوبها فى ضوء الكشاف الذى تسلل من الخارج ، وهزته بلطف وتأملت الفقاقيع المتصاعدة . ونظر جريبر إلى كتفيها

وظهرها وموجات شعرها وعمودها الفقرى . ثم إلى الظلال الطويلة الناعمة . وفكر : ليست بحاجة إلى التفكير فى أن نبدأ من جديد ، إذ لا شىء يربطها بهذه الغرفة أو المهنة التى تمتهنها أو السيدة ليزو . فإليزابيث العارية تنتمى إلى ارتعاشة الوجود الخارجى ، وإلى الليلة القلقة . وفوران الدم الأعمى والغريبة التى لا تدرك كنهها . وكذلك إلى الصيحات الغريبة بالخارج . تنتمى للحياة . كما تنتمى للموتى الذين تخرجهم من تحت الأنقاض . . . إلا أنها لا تنتمى للصدفة والفراغ والضياع الذى لا معنى له . . . لم تعد تنتمى إليه . بدت وكأنها قد خلعت رداء تنكرها واتبعت فجأة ودون تفكير ، قوانين لا تعرف عنها شيئاً .

وقالت إليزابيث : « وددت لو كنت معك فى باريس ! » .

— وددت لو استطعت أن أصحبك بعد الحرب إلى هناك .

— أيسمحون لنا بالدخول ؟ .

— ربما . فلم ندمر شيئاً فى باريس .

— وهل دمرنا فى فرنسا ؟

— ليس بالقدر الذى دمرنا به فى البلاد الأخرى فقد سارت الأمور بسرعة .

— ربما دمرتم ما يكفى لأن يكرهونا عدداً من السنين ؟

— نعم ، ربما . فالإنسان ينسى لطول أمد الحرب . ربما يكرهوننا .

— وددت لو استطعت الذهاب إلى بلد لم يدمر فيه شىء ! .

— لم تعد توجد بلاد كثيرة كذلك . ثم قال : « أما زال لدينا ما يشرب ؟ » .

— نعم ، قدر كاف . وأين ذهبت أيضاً ؟ .

— إلى أفريقيا .

— وزرت أفريقيا أيضاً . لقد شاهدت كثيراً .

— نعم . ولكن لم أشاهده بالطريقة التى تمنيتها من قبل .

ورفعت إليزابيث الزجاجة عن الأرض . وملأت الكوبين . ونظر إليها جريبر ، وبدا له كل شىء غير حقيقى . وما كان الشراب هو السبب . فصحيح أنه قد ترددت الكلمات بينهما وكانت بلا معنى ، أما ما له معنى فلم يصدر فى كلمات ، ولم يكن بوسع إنسان أن يتحدث عنه ، كان كنهر لا اسم له ارتفع ـ ثم انخفض . وكانت الكلمات كالشراع الذى يعبره .

وسألت إليزابيث : « وهل زرت مكاناً آخر ؟ » .

وفكر جريبر : الشراع ؟ أين رأينا الشراع فوق الأنهار ؟ ثم قال : « هولندا ! وكان ذلك فى بداية الحرب . انزلقت القوارب فوق القنوات المستوية المنخفضة السطح فكانت وكأنها تسير فوق الأرض : قوارب لا صوت لها ، ذات أشرعة كبيرة ، كانت رائعة عند ما تنساب بين الحقول وقت الغروب ، وكأنها فراشات بيضاء وزرقاء وحمراء .

فقالت إليزابيث : « هولندا ! ربما أمكننا أن نذهب هناك بعد

الحرب . فنشرب الكاكاو ونأكل الخبز الأبيض ونتذوق الجبن المختلف الأنواع ، ثم نشاهد القوارب فى الماء » .

ونظر إليها جرير وفكر : الأكل ! ترتبط السعادة فى الحرب دائمًا بالأكل . وسألت إليزابيث : « ألم لم يعد بوسعنا أن نذهب إلى هناك ؟ » .

— لا أظن . فقد هاجمنا هولندا ودمرنا روتردام دون إنذار . رأيت الخرائب بعينى . . . لم يعد هناك بيت واحد قائم . ثلاثون ألف قتيل ! أخشى ألا يدعونا ندخل هذا البلد يا إليزابيث .

وصمتت فترة من الزمن . ثم رفعت كوبها وألفت به على الأرض فتحطم . ثم انكسر وصاحت : « ليس بوسعنا أن نذهب إلى أى مكان . . . إنما نحن نحلم فقط ! ليس بوسعنا أن نذهب إلى أى مكان ! إننا مسجونون هنا ، معزولون وملعونون ! » .

ونهض جرير وقد لمعت عيناها فى الضوء الآتى من الخارج وكأنها زجاج رمادى شفاف . وانحنى فوقها ونظر إلى الأرض . وكانت شظايا الزجاج تلمع داكنة وحوافها بيضاء . وقال : « يجب أن نطفىء النور ونلتقط هذا الزجاج وإلا دسنا عليه بأقدامنا . . . انتظرى ! سأغلق النافذة أولا ! » .

وتدحرج على جانب الفراش . وأضاءت إليزابيث الغرفة وأمسكت برداء ، فقد جعلها الضوء تحس بالخجل . ثم قالت : « لا تنظر إلىّ . .

لا أدرى لم فعلت هذا ؟ فلست فى الأحوال العادية كذلك » .

— إنك كذلك ، ومعك حق . ليس مكانك هنا ، وبوسعك أن تكسرى أى شىء » .

— وددت لو عرفت أين مكانى .

وضحك جرير وقال : « لست أدرى : ربما فى (سيرك) أو فى قصر فاخر أو بين أثاث من الصلب أو فى خيمة ، ولكن ليس فى هذه الغرفة البيضاء . وقد اعتقدت من أول أمسية أنك لا حول لك ولا حاجة إلى عون » .

— نعم أنا كذلك .

— كلنا كذلك . فنحن نعيش دون عون أو حماية .

وتناول جرير صحيفة ، وألقاها على الأرض ، واستعان بأخرى لدفع الزجاج فوق الأول وبلح العناوين . « استمرار تقصير الخطوط » ، قال عنيف حول « أوربل » . فلف الجريدة عما تحوى من زجاج ، ثم وضعها فى سلة المهملات . وفجأة بدا ضوء الغرفة الدافئ ، وقد تضاعف دفئه . وتوالت الطرقات وأصوات حفر جماعة الإنقاذ ثم شاهد هدايا بينديج موضوعة على المائدة . وفكر : بوسع الإنسان أن يفكر فى أشياء كثيرة فى وقت واحد .

وقالت إليزابيث : « لم أعد أحتمل منظر المائدة وأود رفعها حالا » .

— إلى أين ؟ .

— إلى المطبخ وأمامنا حتى مساء الغد ، وقت كاف لإخفاء الباقي .

— لن يبقى منها الكثير حتى مساء الغد. ولكن ماذا يحدث لو حضرت السيدة لوزر مبكرة ؟ .

— لو حضرت مبكرة لكون قد حضرت مبكرة .

ونظر جرير إليها مندهشاً فقالت : « أنا نفسي أعجب لتغيري كل يوم » .

— ليس كل يوم ، بل كل ساعة .

— وأنت ؟ .

— وأنا أيضاً .

— أهذا طيب ؟ .

— نعم ، ولا بأس إن لم لكن كذلك .

— لم يعد يهمنا شيء . أليس كذلك ؟ .

— بلى ؟ .

وأطفأت إليزابيث الضوء وقالت : « يوسعنا الآن أن نفتح هذه النافذة الكريهة » . وفتح جرير النافذة . فاندفعت الريح وأطارت الستائر . فقالت إليزابيث : « ها هو القمر » .

وصعد القمر سابحاً أحمر يسطع فوق السطح المنهار المقابل ، كان كالشيطان ذي الرأس الملتهب الذي يفترس كل من يقابله . وتناول جرير كوبين ملأهما بالكوكتيل حتى منتصفهما . ثم ناول إليزابيث كوباً . وقال :

« دعينا نشرب الكوكتيل الآن ! فالنبيذ لا يناسب الظلام » .

وارتفع القمر وازداد سطوعاً واكتسب لوناً ذهبياً . فرقد الاثنان وقتاً طويلاً صامتين ثم أدارت إليزابيث رأسها وسألت : « أنحن حقاً سعداء أم لسنا كذلك ؟ » .

وفكر جرير : نحن سعداء وغير سعداء. وهذا ما يجب أن يكون . فالأبقار فقط هي التي تحس بالسعادة خالصة . . . بل جائز أنها ليست كذلك . ربما الأحجار . . .

ورمقته إليزابيث ، وقالت : «وهذا أيضاً لا يهم . . . أليس كذلك ؟» .

— لا ؟ .

— أيوجد شيء مهم ؟ .

— « نعم » . ونظر جرير إلى الضوء الذهبي البارد الذي عمر الغرفة تدريجياً ، وقال : « لسنا موتى ، لم نمت بعد » .

الفصل السادس عشر

في صباح الأحد وقف جرينر في شارع هاكن . ولاحظ أن شيئاً قد تغير في منظر الأنقاض . إذ اختفى حوض الاستحمام ، وكذلك بقايا السلم . كما عبّد طريق ضيق يدور حول السور ويؤدي إلى الفناء . ثم ينعطف حالياً حتى يصل إلى أطلال المنزل . كأن جماعة رفع الأنقاض قد بدأت العمل .

اقتحم جرينر المدخل المعبّد ، ثم دلف إلى غرفة دفن جزء منها تحت الأنقاض . استنتج أنها غرفة الغسيل بالمنزل . وأدت الغرفة إلى ممر مظلم منخفض . فأشعل عود ثقاب ليضيء طريقه .

وفجأة صاح به إنسان من الخلف : « ماذا تفعل هنا ؟ اخرج حالا ! » واستدار إلا أنه لم يتبين أحداً في الظلام . وعاد فوجد بالخارج إنساناً يقف مستنداً على عكازين تحت إبطيه ويرتدي خوذة مدنية فوقها معطف عسكري . وصاح الرجل ثانية : ماذا تفعل هنا ؟ » .

— أنا أقطن هنا ، وأنت ماذا تفعل هنا ؟ .

— أنا الذي أقطن هنا ولا يقطن هنا غيري ، مفهوم ؟ أنت لا تقطن هنا .

عن أي شيء تبحث ؟ أجئت للسرقة ؟ .

وقال جرينر : « لا تثر هكذا يا رجل » : ثم نظر إلى العكازين والمعطف العسكري ، وقال : « كان والداي يقيمان هنا ، وكذلك أنا حتى التحقت بالجيش البريطاني . هل ارتاح بالك ؟ » .

— بوسع كل إنسان أن يدعي هذا ؟ .

أمسك جرينر بالأعرج من عكازيه وأزاحه بعنف جانباً ، ثم مر به خارجاً .

وشاهد في الخارج سيدة قادمة تحمل طفلاً وخلفها رجل بيده مأس . قدمت السيدة من وسط أنقاض قامت خلف المنزل . بينما دلف الرجل من الجانب الآخر . ووقف الثلاثة حول جرينر . ثم سأل الرجل حامل الفأس الرجل الأعرج ذا العكازين : « ماذا جرى يا أوتو ؟ » .

ضيقت هذا الرجل هنا وادعى أن والديه كانا يقيمان بالمنزل .

وضحك الرجل ضحكة عدوانية وقال : « أهناك شيء آخر ؟ »

فقال جرينر « لا » ، لا شيء غير هذا . . .

— ألم يخطر ببالك غير هذا ؟ ، ثم حرك الفأس في يده ورفعها صائحاً : « اذهب من هنا بسرعة إلى ثلاثة ، وإلا فكسر بسيط بالجمجمة . . . واحد » .

وقفز جرينر من الجانب نحوه وضربه ، فسقط الرجل . وانتزع جرينر الفأس من يده . وقال : « هذا وضع أصلح . والآن ضع

وناد الشرطة إن أردت . ولكنك لا تريد ذلك . أليس كذلك ؟ » .

ونهض الرجل صاحب الفأس ببطء . وقد سال الدم من أنفه . فقال جرير : « خير لك ألا تحاول مرة ثانية . فقد تدربت لدى البروسيين وتعلمت كيف أشتبك فى صراع بالأيدى . والآن قولوا لى : ماذا تفعلون هنا ؟ » .

فتقدمت السيدة إلى الأمام وقالت : « نحن نعيش هنا . أهذه جريمة ؟ » .

— لا . وأنا هنا لأن والدى أقاما هنا . ربما هذه جريمة ؟ » .

فسأل الأعرج : « أهذا صحيح فعلا ؟ » .

— وماذا تظن ؟ ألديك شىء يسرق ؟ » .

فقالت السيدة : « أشياء تغرى من كان معدماً لا يملك شيئاً » .

— ليس لديكم أشياء تغريني . فأنا جندى فى إجازة وسأعود ثانية . هل رأيتم الورقة المكتوبة على باب البيت الخارجى ؟ تلك التى أبحث بها عن والدى ؟ إنها ورقتى ؟ وهذا خطى .

فسأل الأعرج : « أهو أنت ؟ » .

— نعم أنا .

— هذا أمر آخر . إنك تدرك يا عزيزى أننا قد فقدنا الثقة بكل الناس . فقد دمرت القنابل بيتنا فأوينا إلى هنا . على الإنسان أن يأوى إلى مكان ما .

— هل أزالم بمفردكم كل هذه الأنقاض ؟ » .

— أزلنا جزءاً منها فقد عاونونا .

— من عاونكم ؟ » .

— معارف وأصدقاء لديهم عدة العمل وأدوات .

— هل وجدتم موتى ؟ » .

— لا ؟ » .

— أحقاً لا ؟ » .

— لا . لم نجد موتى . من الجائز أنه كان هنالك موتى قبل أن نحضر ولكننا لم نجد أحداً .

فقال جرير : « هذا ما أردت معرفته » .

وأجابت السيدة : « ما كنت بحاجة إلى أن تكسر وجه إنسان لتصل إلى هذا » .

— أهو زوجك ؟ » .

— هذا أمر لا يخصك . إنه أخى . وقد سال دمه .

— من أنفه فقط .

— ومن الأسنان أيضاً .

ورفع جرير الفأس ، وقال : « وهذه ؟ فيم أراد أن يستعملها ؟ ما كان يريد حقاً مهاجمتك » .

فقال جرير : « يا سيدتي العزيزة ، لقد تعلمت ألا أنظر حتى يهاجمني إنسان ؟ » .

ثم أطاح بالقماش بعيداً بقدر ما استطاعت ذراعه فسقطت فوق الأنقاض . ونظر الجميع إلى القماش واندفع الطفل ليحضرها وتسلق الأنقاض فأعادته السيدة . وتلفت جرير حوله ، ورأى حوض الاستحمام بجوار الأنقاض . وفكر : ربما استخدم حاجز السلم في التدفئة . وعلى الكومة ألقيت علب الأكل المحفوظة الفارغة ، وكذلك مشجب وأطباق مكسورة وفضلات ، وثياب ممزقة وصناديق أثاث . ونقلت الأسرة أثاثها إلى الداخل وبنت من الأنقاض مأوى لها ، واستخلصت منها كل ما استطاعت . فهو بالنسبة لها كالمن النازل من السماء . ولا مانع من هذا ، فالحياة يجب أن تستمر . وبدا الطفل في صحة جيدة : وهكذا تغلبت الأسرة على الموت وحولت الأنقاض إلى مأوى .

وقال جرير : « لقد عملتم بسرعة جنونية » .

وأجاب الأعرج : « وجب أن نعمل بسرعة ما دمنا نريد سقفاً يحمينا » .

واستدار جرير ليخرج ثم سأل : « هل وجدتم قطة ؟ قطة لونها أسود وأبيض ؟ » .

فقال الطفل : « قطتنا روزا » .

وأجابت السيدة بتحدٍ : « لا ! لم نجد أية قطة » .

فتسلق جرير الأنقاض نازلاً . وفكر : ربما شاركهم آخرون في السكنى بين الأنقاض . وإلا ما استطاعوا أن ينجزوا كل هذا العمل في وقت قصير . وربما أعانتهم بعض فرق رفع الأنقاض . ففي الليل يخرج المتقلون من معسكرات التعذيب ليرفعوا الأنقاض من المدن .

وعاد جرير وقد اجتاحه إحساس بأنه ازداد فقراً . ولم يدر السبب .

ووصل إلى شارع لم يدمر فيه شيء ، حتى « واجهات » الدكاكين كانت سليمة . وسار دون تفكير وأحس بالفرع فجأة إذ رأى إنساناً يتقدم نحوه . وأدرك بعد فترة أنها صورته على صفحة مرآة مائلة ملصقة على جانب أحد محلات الملابس . كان الأمر غريباً . إذ أحس كأنه يرى قريناً له . لا مجرد صورة ، أحس أنه يرى ذكرى يمكن أن تضيع من ذهنه إذا ما خطا خطوة تالية .

وظل واقفاً يحملق في الصورة الباهتة المنعكسة على صفحة المرآة المصغرة القاتمة ، فرأى محجري عينيه وتحتهما ظلال تحجب العينين . بدا وكأنه ليس له عينان . . . وفجأة تسلل إلى جوفه خوف بارد غريب . لم يكن رعباً أو ثورة ، ولم يكن صرخة عاجلة من صرخات الوجود تطلب الهرب والحماية ، بل كان خوفاً بارداً ساكناً ، خوفاً يكاد يكون غير

شخصي . خوفاً ليس بوسعه التغلب عليه . ولأنه غير ملموس فهو لا يقهر . بدا الخوف وكأنه متجه إليه من الفراغ حيث أقيمت «ظلميات» صامتة تسحب الدم من شرايينه وتسحب الحياة من عظامه . تأمل صورته فى المرآة وفكر : يجب أن تكون متموجة غير واضحة ، بل يجب أن تزول خطوطها وتتحلل وتمتصها هذه الظلميات الرهيبة . فتلاشى حدود الصورة العارضة المؤقتة التى تطلق عليها لفترة قصيرة اسم جريبر . وتذهب إلى اللاحدود الذى لا ينتصر على الموت بل يتضمن ما هو أكبر من ذلك ، يتضمن الذبول والتحلل ونهاية الأنا ودوران ذرات لا معنى لها . . . ثم العدم .

ووقف فترة ثم فكر برعب عميق ، ماذا يتبقى ؟ ماذا يتبقى بعد أن يزول ؟ لن يتبقى غير الذكرى المؤقتة فى رءوس أناس قلائل ، فى رءوس والديه — لو كانا على قيد الحياة — وفى رءوس بعض الزملاء وربما فى رأس إلزابيث . ولكن إلى متى ؟ ونظر إلى المرآة وأحس كأنه قد خف وزنه حتى أصبح كقطعة الورق . أصبح ضئيلا ، ظلالا فارغة . ويمكن أن تذروه الريح بعيداً . . . قد امتصته «الظلميات» ، فلم يعد غير إطار فارغ . ماذا يتبقى ؟ وبماذا يمسك ؟ وأين الأرض الثابتة التى يلقى عليها مراسيه ؟ وأين يترك الشىء الذى يمسك به حتى لا يطاح به بعيداً ؟ .

ونادى عليه أحدهم من الخلف : «إرنست» .

فاستدار بسرعة ، ووجد رجلا ذا ساق واحدة يستند على عكازين ... وفكر جريبر : أهو أعرج شارع هاكن ؟ وأخيراً تعرف على شخصيته كان موتسيج زميل الدراسة . فقال : «كارل ! أهو أنت ؟ لم أعرف أنك هنا» .

— أنا هنا منذ مدة ، منذ نصف عام تقريباً .

ونظر كل منهما إلى الآخر وقال موتسيج : «ما فكرت فى هذا أبداً» .

— فى ماذا ؟ .

ورفع موتسيج عكازيه ، ثم أعادهما ثانية : «فى هذا» .

— أنت تخلصت على الأقل من الحرب اللعينة ، بينما يجب على أن أعود .

— هذا يتوقف على الزاوية التى ينظر منها المرء إلى موقفنا . وإذا استمرت الحرب عاماً آخر كان ذلك حظاً سعيداً . أما لو انتهت فى ستة أسابيع فهو حظ لعين .

— ولم تنته فى ستة أسابيع ؟ .

— لا أدرى ، أقول : «لو» .

— طبيعى .

وقال موتسيج : «لم لا تزورنا . يرجمان معنا . فقط قطعت ذراعاه من المرفق .

— وأين أنتم ؟ .

— في مستشفى المدينة ، قسم المتوترين . نحتل الجناح الأيسر كله . تعال مرة ؟ .

— سآتي حتما .

— حسن . يقول الجميع هذا دائما ولا يأتي حمار واحد منهم .

— سآتي دون شك .

— سيسعدك ذلك فنحن مجموعة ظريفة . . . على الأقل في غرفتي .

ونظر كل منهما إلى الآخر مرة ثانية . لم يتقابل الاثنان منذ ثلاث سنوات إلا أنهما قالا في لحظات كل ما يمكن أن يقال .

— إذن ، إلى اللقاء يا إرنست .

— إلى اللقاء يا كارل .

وهز كل منهما يد الآخر وسأل موتسيج : « أتعرف أن زيبرت قد مات ؟ .

— لا .

— منذ ستة أسابيع ، ولايتز ؟ .

— ولايتز أيضاً ؟ وهذا أيضاً لم أسمع به .

— لايتز وليجين سقطا في نفس اليوم كما جن كل من بروتيتج وهولمان .

— لا . لم أسمع بهذا .

— سمع به برجمان . إذن إلى اللقاء يا إرنست . ولا تنس أن تزورنا .

ورحل موتسيج مبتعداً وفكر جريبر : يحس موتسيج بسعادة داخلية عندما يتحدث عن الموتى . ربما خفف هذا من مصيبته . ونظر إليه وهو يحجل ورأى أن ساقه قد قطعت من أعلى الفخذ . . . كان موتسيج يوماً أحسن عداء بين زملاء الدراسة ولم يدر جريبر ، أيحس بالأسى لحاله أم بالحسد له . لكن الحق مع موتسيج ، فالأمر يتوقف على ما سيحدث مستقبلا .

* * *

ودخل جريبر غرفة إليزابيث ووجدها متكئة على الفراش ، متدثرة بمعطف من معاطف الحمام أبيض اللون ، وقد لفت شعرها بمنشفة بدت كالعمامة . كانت جميلة هادئة مشغولة بنفسها كطائر كبير زاهي اللون ، اقتحم غرفة واستقر فيها فترة ليغادرها ثانية . وقالت : « استهلكت كمية الماء الساخن المقرر لأسبوع كامل ، رفاهية كبيرة ، ولسوف ترفع ليزر عقيرتها بصيحة جميلة » .

— دعيها تصيح ، إذ لن تفتقد الماء الساخن . فالنازي الحق لا يستحم إلا نادراً ، فالنظافة إحدى خطايا اليهود .

وذهب جريبر إلى النافذة وأطل منها . كانت السماء غائمة والشارع هادئاً ، ووقف في النافذة المقابلة رجل غزير الشعر ذو سروال مرفوع

بحمالات وتثاءب . بينما جاءت من النافذة الأخرى أنغام (بيانو) وصوت حاد نفاذ يغنى أنغاماً متصاعدة . وحملق جرير فى مدخل المخبأ ، ثم فكر فى الرعب البارد الغريب الذى اجتاحه عند ما كان بالشارع أمام المرآة ، فاعترته القشعريرة ثانية : ماذا تبقى ؟ وفكر : لا بد أن يبقى شىء . دعامة يمسك بها كى لا يضيع فى هذا الكون ويتمكن من العودة . ولكن أى شىء ؟ إليزابيث ؟ هل تنتمى إليزابيث إليه ؟ إنه لم يعرفها إلا منذ وقت قصير وسيبرح ثانية لسنين طويلة . أتن تنساه فى هذا الوقت ؟ وكيف يحتفظ بها ؟ بل يحتفظ بنفسه داخلها ؟ .

والتفت حوله وقال : « إليزابيث ! يجب أن نتزوج » .

— نتزوج ؟ ولم إذن ؟ .

— لأنه أمر لا معنى له . ولأننا لم نتعارف إلا منذ أيام . ولأننى يجب أن أرحل ثانية خلال أيام قليلة . ولأننا لا نعرف إن كنا نريد أن نبقى معاً ، بل ولا يمكن معرفة هذا فى مثل هذا الوقت القصير . . . لكل هذه الأسباب .

ونظرت إليه وقالت : « أنعى لأننا نحس بالوحدة واليأس . وليس أمامنا غير هذا ؟ .

— لا .

— وصمتت إليزابيث . فقال جرير : « ليس هذا فقط » .

— لم إذن ؟ .

وتأملها فوجدها تتنفس . وفجأة بدت له غريبة عنه . كان صدرها يرتفع وينخفض واختلف تنفسها عن تنفسه واختلفت يداها عن يديه وأذكارها وحياتها عن أفكاره وحياته . قد لا تفهمه . بل كيف يمكن أن تفهمه وهو نفسه لا يدرك بوضوح لم أراد هذا فجأة ؟ .

وقال : لو تزوجنا ، فلن تخيفك ليزر . ستكون آمنة كزوجة أحد الجنود .

— حقاً ؟ .

— نعم ! وارتبك جرير تحت نظراتها : « سيكون هذا على الأقل أثره » .

— ليس هذا سبباً . فأنا قادرة على مواجهة ليزر . زواج ! ليس لدينا حتى الوقت لهذا .

— ولم لا ؟ .

— سيحتاج الأمر إلى أوراق وتصاريح وشهادات تثبت دمنا الآرى ثم الكشف الطبى والأمور الأخرى الكثيرة . . . وهذا يحتاج إلى أسابيع .

وفكر جرير ؟ أسابيع . لقد قالتها ببساطة . وأين أكون أنا فى هذا الوقت ؟ ثم قال : « يختلف الأمر بالنسبة للجنود . فزواج الحرب يتم بشكل أسرع ويستغرق بضعة أيام . وقد عرفت هذا من الكتابات » .

— هل خطرت الفكرة ببالك في الكنات ؟ .

— لا ، بل صباح اليوم . . . إلا أن الجنود يطرقون دائماً موضوع الزواج ، وكثير منهم يتزوج أثناء الإجازة ، ولم لا ؟ فعندما يتزوج الجندي المحارب تتقاضى زوجته راتباً شهرياً . أظن أنه مائتا مارك . لم نترك للدولة هذا المبلغ ونحن نخاطر بروحنا ؟ لم لا تستفيد بحق متاح لنا ؟ بوسعك الإفادة منه ، وإلا أخذته الدولة ، أليس كذلك ؟ .

— تماماً ، مادمت تنظر إلى الأمر هذه النظرة .

فقال جريبر بارتياح : « هذا ما قصدت قوله . وبوسعنا أيضاً الحصول على ألف مارك كقرض زواج . وبذا تستغنين عن الذهاب إلى مصنع المعاطف العسكرية .

— لا ، فهذا لا دخل له بالموضوع . إذ ماذا أفعل طول النهار وأنا وحيدة بمفردي ؟ .

— صحيح .

وأحس جريبر بالعجز لحظة وفكر : ماذا صنعت الدولة بنا . إننا شباب . ويجب أن نكون سعداء معاً ما شأننا بحرب أثارها آباؤنا ؟ ثم قال : « ستصبح وحيدين بعد فترة . إلا أن إحساسنا بالوحدة سيقل بعد الزواج » .

وهزت إليزابيث رأسها .

فسأل : ألا تريدين الزواج ؟ .

فقالت : لن يقل إحساسنا بالوحدة بل سيزداد .

وسمع فجأة صوت المغنية التي تقطن أمامهما . وكانت قد كفت عن التدريب على نغمة « السكالا » وبدأت تغني « أوكتاف » فلوى صوتها في صرخات ، ولم يجبها غير رجع صداها . وقال : « الموضوع قابل للإصلاح — إن كان هذا ما يشغل بالك — إذ بوسعنا دائماً أن نحصل على الطلاق حين نريده » .

— ولم نتزوج إذن ؟ .

— ولم نترك للدولة هذا المبلغ ؟ .

ونهضت إليزابيث وقالت : « كنت بالأمس مختلفاً عن هذا » .

— كيف ؟ .

وابتسمت ابتسامة باهتة وقالت : « دعنا من هذا الموضوع فنحن معاً . وهذا يكفي » .

— ألا تريدين حقاً ؟ .

— لا ؟ .

وتأملها فوجد شيئاً فيها قد ابتعد عنه . فقال : « يا للعنة — قصدت خيراً » .

فابتسمت إليزابيث ثانية : « قد يكون هذا سبب متاعب كثيرة . يجب ألا يكون الإنسان طيباً أكثر من اللازم . ألدينا شراب ؟ » .

— لدينا سيالترفيس .

— أهلا بولندى ؟ .

— نعم ؟ .

— أريد شيئاً لم نقتسه من الأعداء ؟ .

— ولدينا أيضاً زجاجة « كوميل » ألمانية .

— إذن أعطني كوميل ! .

وذهب جرير إلى المطبخ ليحضر الزجاجة وهو غاضب من نفسه . وتوقف لحظة فى الغرفة ذات الضوء الباهت أمام الأطباق وبقايا الطعام الذى أحضره من عند بيندبج . وكان جو الغرفة يعج برائحته غير الطازجة فأحس نفسه فارغاً محترقاً ، ثم عاد . ووجد إليزابيث مستندة إلى النافذة وقالت له :

— خسارة . . . الدنيا غائمة وستمطر .

— ولم قلت خسارة ؟ .

— إنه أول يوم أحد نقضيه معاً . وكان بوسعنا أن نخرج سوياً . فجو الربيع يسود ضواحى المدينة .

— أتريدين الخروج ؟ .

— لا . إذ يكفينى غياب لبزن ، إلا أنه أفضل لك من البقاء هنا .

— لا ، فهذا لا يهمنى فقد عشت فى الطبيعة مدة تجعلنى أستغنى

عنها فترة من الزمن . وأنا أحلم الآن بغرفة دافئة سليمة ذات أثاث غير مكسور . وهذا ما أجده هنا . وما أعتبره أكبر أمل يستحق أن يغامر الإنسان فى سبيله ، ولن أشبع منه أبداً . . . يمكننا أن نذهب إلى « السينما » إن أردت .

وهزت إليزابيث رأسها .

— إذن دعينا هنا ، فلو خرجنا انقسم النهار إلى أجزاء ، وانقضى اليوم بشكل أسرع مما لو بقينا . فهكذا يبدو النهار أطول .

واتجه جرير إلى إليزابيث وأخذها بين ذراعيه ، فأحس بخشونة معطف الحمام . ورأى عينيها ممتلئتين بالدموع فسأل : « هل قلت ما لا يصح أن يقال ؟ » .

— لا .

— إذن فقد فعلت شيئاً مجافياً ، إذ لم تبكين ؟ .

وأمسكها بقوة ورأى الشارع من فوق كتفيها . وكان الرجل ذو الشعر الغزير والسروال ذى الحمالات قد اختفى ، وظهر فى الخندق الذى حفر فى مخبأ البيت المنهار صبية يلعبون لعبة حرب الخنادق . . .

وقال جرير : « لا نريد أن تكون تعساء » .

وغنت المغنية من جديد ودوى صوتها المسلوخ الحاد بأغنية من أغنيات جريج القائلة : « أحبك ، أحبك ، أحبك رغم الزمن العصيب والحظ العاثر » .

فقالت إليزابيث : « لا . لا نريد أن نكون تعساء .

• • •

وانهمر المطر بعد الظهر ، وبكر الظلام بالحلول ، وتكاثفت الغيوم شيئاً فشيئاً . فانطرحا على الفراش دون نور . وكانت النافذة مفتوحة والمطر يتساقط سائلاً شاحباً كحائط سائل ينساب إلى أسفل .

وأصغى جرير إلى صوت المطر الرتيب وفكر : بدأت فترة الرحل فى روسيا ، وإن عاد فسيجد الدنيا كلها موحلة وسأل إليزابيث : « أيجب أن أرحل ؟ لقد حان موعد قدوم السيدة ليزر » .

وهمست إليزابيث بصوت نائم : « دعها تأتى . هل تأخر الوقت ؟ » .

ــ لا أدرى ، ولكن ربما بكرت فى الحضور بسبب المطر .

ــ بل ربما تأخرت بسبب المطر .

ــ وهذا جائز أيضاً .

« وربما عادت غداً » . قالتها إليزابيث ودفنت وجهها فى كتفه .

ــ وربما داستها عربة نقل . وفى هذه الحالة نكون أسعد الناس حظاً .

ــ وتمتمت إليزابيث : « إنك لست طيباً كما أظن » .

ونظر جرير إلى المطر المنهمر الداكن المنساب أمام النافذة ، وقال : « لو كنا متزوجين ما اضطررت أبداً إلى مغادرة البيت » .

ولم تتأثر إليزابيث بل تمتمت : « لم تريد أن تتزوجنى ؟ إنك تكاد لا تعرفنى » .

ــ أعرفك بما فيه الكفاية .

ــ منذ متى تعرفنى ؟ منذ بضعة أيام ؟ .

ــ بل منذ أكثر من عام . وهذه مدة كافية .

ــ أكثر من عام ؟ كيف هذا ؟ لا تنصف وقت الطفولة فقد تول منذ عهد بعيد .

ــ لم أنصفه . لقد حصلت على إجازة قدرها ثلاثة أسابيع مقابل عامين فى ميدان القتال . وها هنا أسبوعان تقريباً . والأسبوعان يقابلان خمسة عشر شهراً فى الجبهة . فأنا أعرفك بما يقابل العام تقريباً ، أى ما يوازى أسبوعين إجازة .

وفتحت إليزابيث عينيها ، وقالت : « لم أفكر فى هذا أبداً » .

ــ ولا أنا . وإنما خطر ذلك ببالى توّاً .

ــ متى ؟ .

ــ توّاً وأنت نائمة : فى الظلام أثناء انهمار المطر تخطر ببال الإنسان أشياء كثيرة .

ــ أيجب أن ينهمر المطر أو تظلم الدنيا حتى تخطر ببالك الأفكار ؟

ــ لا . ولكن يختلف تفكير الإنسان فى هذه الحالة .

ــ أخطرت ببالك أشياء أخرى ؟ .

— نعم ، فكرت : كم يكون رائعاً لو استخدم الإنسان يديه وذراعيه فى شىء آخر غير إطلاق النار وقذف القنابل !

ولفظرت إليه : « لم لم تقل هذا ظهر اليوم » ؟

— هذا الكلام لا يقال ظهراً .

— كان هذا أفضل كثيراً من مرتب الزوجة الشهرى وقرض الزواج .

ورفع جرير رأسه وقال : « ولكنه نفس الشىء يا إليزابيث فقط فى كلمات أخرى » .

وتمتمت شيئاً غير مفهوم ، ثم قالت بعد ذلك : « أحياناً تكون الكلمات هامة جداً وخاصة فى مثل هذه المناسبة » .

— لم أعتد استخدامها ولكنى سأجد بعضها . والأمر يحتاج إلى بعض الوقت .

وتنهدت إليزابيث قائلة : « الوقت ! أمامنا وقت قصير . أليس كذلك ؟ » .

— نعم . كان لدينا بالأمس وقت أكثر مما لدينا اليوم وغداً سيقل ما لدينا منه .

ورقد جرير ساكناً وقد توسدت رأس إليزابيث ذراعه وانساب شعرها الداكن على الوسادة الباهتة فانعكست ظلال الأمطار على وجهها .

— وتمتمت إليزابيث : « أردت أن تتزوجنى . فهل عرفت إن كنت تحبنى ؟ » .

— وكيف أعرف هذا ؟ ألا يحتاج الإنسان لكى يعرف هذا إلى وقت أطول واتصال أكثر ؟

— ربما . إذن لم أردت أن تتزوجنى ؟

— لأننى لا يمكننى أن أتخيل الحياة بدونك .

وتمتمت إليزابيث لحظة ثم سألت : « ألا تعتقد أن ما حدث لك معى قد يحدث لك مع أخرى غيرى ؟ »

ونظر جرير إلى البساط المتحرك الذى تنسجه الأمطار أمام النافذة وقال : « وربما أمكن أن يحدث هذا فى الماضى ، من يدرى ؟ أما الآن وبعد أن حدث ما بيننا . لا يمكننى أن أتصور أنه يمكن أن يحدث لى مع سواك » .

وحركت إليزابيث رأسها على ذراعه وقالت : « ها قد تعلمت شيئاً . فأنت تتحدث بطريقة مختلفة عن طريقتك فى الظهر . ولكنه الليل . أتظن أن على أن أنتظر — فى حياتى معك — محى الليل ؟ »

— لا ، ولكننى سأتعلم هذا ، ولن أتحدث عن راتب الزوجة الشهرى ثانية .

— ولكننا لا نريد أن نحتقره . أليس كذلك ؟

— نحتقر ماذا ؟

— الراتب الشهرى .

وحبس جريبر أنفاسه لحظة ، ثم سأل : « أتريدين حقاً الحصول عليه ؟ » .

— ما دمنا قد تعارفنا منذ أكثر من عام ، فعلينا أن نتزوج ويوسعنا أن نحصل على الطلاق ثانية أليس كذلك ؟ .

— لا ! .

ورقدت بجانبه وقد خالجها النعاس . أما هو فرقد بجانبها يقظاً يتسمع الأمطار وقد اتضح له فجأة ما كان يريد أن يقوله لها .

الفصل السابع عشر

وقال بيتمبيج من وراء الباب ، خذ كل ما تريده يا إرنست ، امتلك كما تملك فى بيتك ! » .

— حسن يا ألفونس .

وخرج جريبر من حوض الاستحمام وكانت ملابسه موضوعة على مقعد فى ركن الحمام رمادية اللون وخضراء ، غير محببة للنفس وكأنها خرق بالية . وبجوارها حلة مدنية زرقاء أحضرها له رويتر .

وكان حمام بيتمبيج غرفة كبيرة مغطاة بالقيشانى الأخضر . ويلمع فيها الصينى ، وكذلك الصنابير المتكلة . كان جنة إذا ما قورن (بالدوش) أو غرف الاستحمام الجماعية فى الثكنات . التى تعج برائحة المطهرات الكيماوية . وكان الصابون من فرنسا والمناشف معتنى بها ، ومواسير المياه سليمة لم تصب فى الغارات . والماء الساخن متوفر بقدر ما يحتاج الإنسان . وحتى الأملاح التى تلون المياه وتمنحها رائحة زكية كانت موجودة . إذ كانت هناك زجاجة مليئة بلورات بنفسجية .

ورقد جريبر فى الماء مسترخياً لا يفكر فى شىء . واستمتع بسعادة الدفء . وقد تعلم أن الأشياء الصغيرة فقط هى التى لا تخيب ظن الإنسان ،

الأشياء الصغيرة مثل الدفء والماء والمأوى والخبز والسكينة ورضى الإنسان عن جسده . وتمنى لو قضى بقية الإجازة هكذا ــ مرتاحاً سعيداً لا يفكر فى شىء . وكان رويتر على حق . فلن يحصل الإنسان على إجازة أخرى قبل مضى مدة من الزمن .

دفع المقعد ذا الزى العسكرى بعيداً ، ثم أخذ قبضة من الأملاح البنفسجية وبعثرها بلذة حوله فى الماء . كانت قبضة من السعادة والسلام .. إنها تماماً كالمناضد المغطاة بالمفارش البيضاء فى مطعم جرمانيا ، وكالنبيذ والأطعمة النادرة المتقنة الصنع وكالليالى التى قضاها مع البزايث .

وجفف جسمه وارتدى ثيابه ببطء ، فأحس بالملابس المدنية ناعمة رقيقة بعد أن اعتاد جسمه على الملابس العسكرية . فبعد أن ارتدى حلته لم يحس أنه ارتدى شيئاً . لم يلبس الحذاء الضخم ولا الحزام ولا السلاح . ولم يكن معتاداً أن يسير هكذا . ثم تأمل نفسه فى المرآة ولم يعرف نفسه إذ أطلت عليه صورة شاب يافع غير غريب ، فنظر إليه بدهشة . رأى . . . إنساناً كان يعرفه لو صادفه بالخارج .

وقال الفونس : « إنك تبدو كطفل يحتفل بأول مناولة له ، وليس كجندى . ماذا جرى ؟ أتريد الزواج ؟

وأجاب جريبر دهشاً : نعم ، كيف عرفت هذا ؟

وضحك الفونس : « شكلك يدل على ذلك . فأنت تختلف عما كنت من قبل . لم تعد كالكلب الذى يبحث عن عظمة وقد نسى أين

خبأها . أتريد الزواج حقاً ؟ » .

ــ نعم .

ــ ولكن هل تروبت يا إرنست ؟

ــ لا .

ونظر بيندبيج إلى جريبر مرتبكاً . فقال جريبر : « لم أعد منذ زمن أتروى فى شىء ولا أجد الوقت لذلك » .

وابتسم الفونس ابتسامة ماكرة ، ثم رفع رأسه وتشمم : « ما هذا » ــ ثم تشمم ثانية « أهذا أنت يا إرنست ، يا للعنة ، لا بد أنها أملاح الحمام . هل أخذت منها ؟ إنك تفوح كحوض ملىء بزهور البنفسج » .

وشم جريبر يديه وقال : « لا أشم شيئاً » .

ــ أنت لا ، ولكننى أشم الرائحة ، ستخف الرائحة على أية حال إنها رائحة خداعة ، أحضرها لى صديق من باريس . . . لا تكاد أول الأمر تحس بها إذ أنها تشتد فتصبح كشجرة مليئة بالأزهار . هيا نغرقها برائحة الكونياك الطيب .

وأحضر بيندبيج زجاجة وكأسين : « فى صحتك يا إرنست ، ستتزوج إذن ! تهنئتى القلبية . أنا أعزب وسأبقى بالطبع كذلك . هل أعرف زوجتك المقبلة ؟ » .

وجرع جريبر كأس الكونياك كله مرة واحدة . وقال : « لا » . وغضب من نفسه لأنه أفشى سر الزواج . ولكن كان السؤال مفاجئاً له .

— خذ كأساً أخرى يا إرنست ، فالإنسان لا يتزوج كل يوم ! .

— حسن .

ووضع بينديج كأسه وقد تأثر بلطف : إن احتجت إلى أى عون . . . إنك تعرف أنك تستطيع أن تعتمد على الفونس .

— أى عون ؟ إنه أمر غاية فى البساطة .

— بالنسبة لك فقط فأنت جندى ولا تحتاج إلى استخراج أوراق كثيرة .

— بالنسبة لنا ، أنا وزوجتى فهذا زواج حرب .

— أظن أن زوجتك عاجة إلى استخراج الأوراق المعتادة . إلا أنك ستباشر الموضوع . فإن سارت الأمور ببطء ، فبوسعنا أن نساعدك فلدينا أصدقاء أعزاء فى الجستابو :

— فى الجستابو وما شأن الجستابو بزواج الحرب ؟ هذا لا شأن له بالجستابو .

وضحك الفونس راضياً : « ليس هناك من شئ لا يخص الجستابو » إنك كجندى لا تدرك ذلك . فلا تهتم بهذا . فأنت لا تنوى الزواج

بيهودية أو بفتاة شيوعية . ولكن من الجائز أن يقوم الجستابو — رغم ذلك — ببعض الاستعلامات . المسألة روتينية طبعاً .

ولم يجب جريبر إلا أنه فزع كثيراً ، فلو قاموا باستعلامات ، اكتشفوا أن والد إليزابيث فى معسكرات التعذيب . لم يفكر فى هذا من قبل ولم يخبره إنسان به .

— أمتأكد أنت يا إلفونس من هذا ؟ .

وملأ بينديج الكأسين ثانية : « أعتقد هذا . ولكن لا تبال ، فأنت لا تنوى أن تخلط دمك الآرى بدماء أقل من مستواها أو بأعداء الوطن » . ثم ابتسم ساخراً : « أهكذا تدخل قيد الزواج مبكراً يا إرنست ؟ » .

— نعم .

— حسن ، إذن لنشرب فى صحتك . من مدة وجيزة قابلت بعض رجال الجستابو هنا ، وهم يستطيعون مساعدتنا إن سارت الأمور ببطء ، وذلك بقليل من الضغط منهم . إنهم يشغلون مراكز كبيرة وخاصة (ريزه) هذا النحيف ذو المنظار .

وحملق جريبر أمامه : لقد ذهبت إليزابيث صباح اليوم إلى مبنى البلدية لتقدم الطلب بعد أن أصر هو على ذلك . وفكر : باللعنة ! أى خطأ ارتكبت . ماذا يحدث لو التفتت الأنظار إليها ! لقد تركوها حتى

الآن . ولكن ألم تقل الحكمة القديمة ، اختبئ إذ لاح في الأفق أى خطر ! لو التفتوا إليها لأرسلوها إلى المعتقل لمجرد أن أباها هناك — وأحس بسخونة . ماذا يحدث لو بدأوا الاستعلام عنها ؟ لو سألوا عنها السيدة ليزر مثلا ، عضو الحزب المحترم ؟ .

وسأل بيندبج : « ماذا جرى ؟ إنك لم تشرب كأسك . أتسبب السعادة السرحان ؟ » .

ثم ضحك كثيراً للنكتة التى قالها ونظر إلى جريبر . كان ألفونس قد تحول فجأة إلى قوة غاشمة خطيرة فى حين لم يكن قبل ذلك إلا صديقاً طيباً منتفخاً .

وقال بيندبج : فى صحتك يا إرنست ، اشرب ! فهو كونياك ممتاز . إنه (نابليون) .

— فى صحتك يا ألفونس .

وأعاد جريبر كأسه وقال : « ألفونس ! هل لك أن تسدى إلى معروفاً ؟ أعطنى رطلين من السكر ، فى كيسين ، واحد فى كل كيس » .

— سكر قوالب ؟ .

— سواء عندى أى نوع من السكر .

— حاضر . ولكن لم هذا السكر ؟ إنك الآن حلو حلاوة كافية .

— أريد أن أرشو إنساناً .

— ترشو ؟ لسنا بحاجة إلى الرشوة ! التهديد أسهل وأكثر فاعلية وبإمكانى أن أقوم به نيابة عنك .

— ليس فى هذه الحالة . فهى ليست رشوة بالمعنى الصحيح . إذ السكر لإنسان سيؤدى لى خدمة .

— حسن يا إرنست ، وسيكون حفل الزواج بمنزلى . أليس كذلك ؟ ألفونس شاهد زواج طيب .

وفكر جريبر بسرعة : لو حدث هذا قبل ربع ساعة لانتحل أى عذر للتهرب منه ، ولكنه الآن لا يثق بنفسه . وقال : لا أظن أننى سأقيم حفلا كبيراً .

— دع ذلك لألفونس : ستنام الليلة هنا ، أليس كذلك ؟ لم تتكبد مشقة الحضور إلى هنا وارتداء الزى العسكرى ثم العودة إلى الثكنات ؟ ابق حتى الصباح وسأعطيك مفتاح الدار وبوسعك الحضور فى أى وقت تشاء .

وتردد جريبر لحظة ، ثم قال : « حسن يا ألفونس » .

وابتهج بيندبج : « هذا عين الصواب ، وبذلك يتاح لنا أن نجلس سوياً ونثرثر كما يحلو لنا — الأمر الذى لم نظفر به حتى الآن ، تعال كى أريك غرفتك ! »

وحمل ملابس جريبر العسكرية ونظر إلى السترة ذات الأوسمة قائلا :

« ولنقص على كيف حصلت على كل هذه النياشين . لا بد أنك قمت بما يستحق كل هذا » .

ورفع جرير نظره ورأى نفس التعبير الذى كان على وجه بيندبج أثناء إصغائه إلى رجل الجستابو هايني وهو سكران يقص عليه أعماله . فقال : « ليس هناك شيء يحكى . فالإنسان يحصل على هذه النياشين بمرور الوقت » .

* * *

حملقت « ليزر » فى ثياب جرير المدنية لحظة ، ثم تعرفت عليه ، وقالت : « أنت ؟ إنك تعرف أن الآنسة كروزة ليست بالمنزل الآن » .

— نعم يا سيدتى .

— وماذا تريد الآن ؟ ووجهت إليه نظرة عدوانية وقد لمع على صدرها دبوس شبك به صليب معقوف وكانت تحمل فى يدها اليمنى مخضة تمسك بها وكأنها تمسك بسلاح .

— أريد أن أترك هذه اللفافة للآنسة كروزة . هل تتكرمين بوضعها فى غرفتها ؟ .

ونظرت إليه السيدة بتردد ، ثم تناولت كيس السكر .

فقال جرير : « ولدى كيس آخر . وقد قصت على الآنسة كروزة كيف تهيئين كل وقتك للخدمة العامة . لدى رطل من السكر لا أدرى

ماذا أفعل به . بينما لديك طفل يحتاج إليه ، ولذا أرجوك أن تقبليه » .

وتحول وجه السيدة وأخذ طابعاً رسمياً : « لسنا بحاجة إلى الأشياء المستوردة ، ونحن فخورون بكوننا نعيش بما يمنحه لنا الزعيم » .

— ولطفلك أيضاً ؟

— ولطفلى .

— « هذا هو التفكير السليم » ، قالها جرير وهو يحملق فى سترتها البنية .

« لو فكر كل إنسان فى وطنه مثلما تفكرين ، لأحس جنود الجبهة بسعادة أكبر . ولكن هذا السكر ليس مستورداً ، إنه من اللفافة التى يمنحها لنا القائد ، نحن جنود الجبهة العائدين فى إجازة كى يحملوها هدية لذويهم . وأهل مفقودون ، ولذا تستطيعين أن تأخذيها بلا حرج » .

وتخلت السيدة ليزر عن بعض قسوتها ، وقالت : « هل عدت من الجبهة » .

— طبعاً ، وإلا فمن أين أتيت إذن ؟

— من روسيا ؟

— نعم .

— زوجى أيضاً يحارب فى روسيا .

وتظاهر جرير باهتمام لا يحس به : « أين يحارب ؟ » .

— مع جيش الوسط .

— هذه الجبهة هادئة الآن ولله الحمد .

— هادئة ؟ ليست هادئة ، جيش الوسط فى عز المعمعة . وزوجى فى الصفوف الأولى .

وذكر جرير : الصفوف الأولى . وكأن هناك صفوفاً أولى وصفوفاً خلفية . وراوده خاطر بأن يشرح للسيدة ليزر حقيقة ما يختفى خلف كلمات الشرف والوطن والزعيم . إلا أنه تخلى عن هذا فوراً وقال : « أتعشم أن يحضر قريباً فى إجازة » .

— ينال إجازته عند ما يحين موعدها ، فنحن لا نطلب امتيازات ، ولم نطلب هذا أبداً .

وأجاب جرير بخفاء : وأنا لم أفعل هذا . بل على العكس ، كانت آخر إجازة حصلت عليها منذ عامين .

— أكنت طول هذا الوقت فى الجبهة ؟

— منذ البدء ، جريحاً أو مقاتلا .

ونظر جرير إلى السيدة : عضو الحزب المكافح ، السيدة التى لا تهتز وتساءل : لم أقف هنا أمام هذه المرأة لأبرئ نفسى ، بينما يجب أن أطلق عليها النار ؟

وأقبلت ابنة السيدة من الغرفة التى بها المكتب . وكانت فتاة نحيلة منطقة الشعر ، تحملق فى جرير واضعة إصبعها فى أنفها . وسألت السيدة : لم ارتديت هكذا فجأة ، ثياباً مدنية ؟

— أرسلت البزة العسكرية للتنظيف .

— آه ، ظننت . . . . . .

ولم يسأل جرير ماذا ظنت ، إذ رآها تبتسم فجأة عن أسنان صفراء مما أثار رعبه ، ثم قالت : « حسن ، شكراً ، سآخذ هذا السكر لابنتى » .

وأخذت اللفافتين . ولحظ جرير أنها تزنهما بين يديها كما عرف أنها ستقوم بفض لفافة إليزابيث حالما يبرح المكان . وهذا هو بالضبط ما أراده . . . ولدهشتها لن تجد غير السكر . فقال : « حسن يا سيدتى . . إلى اللقاء » .

ونظرت إليه السيدة بحدة وصاحت : « عاش هتلر ! » .

فرد : « عاش هتلر ! » .

* * *

خرج جرير من المنزل ووجد حارس المنزل مستنداً إلى السور بجوار الباب المؤدى إلى الشارع . وكان الحارس صغير الحجم ، ذا كرش مستدير وصدر نحيف مزدانياً سروالا من سراويل رؤساء المنظمات وحذاء عالياً . ووقف جرير أمامه ؟ فحتى هذا الرجل النكرة الإمعة قد أصبح الآن خطيراً ، ثم تحدث إليه : « جو رائع اليوم » ، وأخرج علبة السجائر وأخذ منها سيجارة ، ثم قدم العلبة للرجل . وتمتم الرجل شيئاً ، ثم سحب سيجارة ، وسأل جرير وهو ينظر إلى حلته المدنية نظرة جانبية ، « هل

أعفيت من خدمة الجيش ؟ » . وهز جرير رأسه وفكر : أيجب عليه أن يقول كلمتين عن إليزابيث ؟ إلا أنه لم يفعل . إذ فضل ألا يلفت نظر الحارس إلى شيء . وأخيراً قال : « سأرحل بعد أسبوع . هذه هي المرة الرابعة » .

وأومأ الرجل برأسه بلا مبالاة ، وأخذ السيجارة من فمه وتأملها ، ثم تفل بعض الطباق الذي التصق بشفتيه ، فسأله جرير : «هل مذاقها ردىء ؟» .

— لا ، ولكنني أدخن السيجار .

— والسيجار غير متوفر الآن . أليس كذلك ؟

— بإمكاننا أن نهتم بهذا .

— لي صديق ما زالت لديه بضعة صناديق من السيجار الطيب ... سآخذ منه حفنة أحضرها لك في المرة القادمة .. سيجار ممتاز .

— مستورد ؟

— ربما فأنا لا أفهم في أصناف السيجار ، إلا أنه محاط عند منتصفه بشريط .

— الشريط لا يعني شيئاً . فأوراق الشجر قد تحاط هي أيضاً بشريط .

— ولكن الرجل رئيس مدينة ، وهو يدخن طباقاً ممتازاً .

— رئيس مدينة ؟

— نعم . ألفونس بينديج . أعز أصدقائي .

— بينديج صديقك ؟

— بل زميل قديم من زملاء الدراسة ، وأنا قادم الآن من عنده . وكان بضيافته القائد « ريزه » قائد الجستابو . إننا زملاء قدامى وأنا ذاهب الآن لزيارة ريزه .

وتأمل حارس المنزل جرير ولم يفهم جرير سر نظرته . إذ كيف يعقل حارس المنزل أن يكون بينديج وريزه أصدقاء قدامى له ، وفي نفس الوقت يعاني الدكتور كروزه في معسكرات التعذيب ! . فقال جرير بلا مبالاة : « كانت هناك أخطاء وهي في سبيلها إلى التصحيح . وسيعود كل شيء إلى ما كان عليه ! سيدهش البعض . ولكن لا يجب أن يتسرع الإنسان في الحكم ! أليس كذلك ؟ »

وقال الرجل باقتناع : « صحيح » .

ثم نظر جرير إلى ساعته ، وقال : « علي أن أرحل الآن ولن أنسى السيجار » .. وواصل السير وهو يفكر ، إنها بداية الانحلال ، وسيطرت عليه ثانية حالة من القلق . جائز أن يكون كل ما فعله خطأ . . . وبدا له الأمر مشوباً بصبيانية . ربما كان الأصوب ألا يفعل ما فعل . وظل واقفاً يحدق في نفسه وثيابه . هذه الثياب المدنية الملعونة ! ، وعزا إليها كل الذنب . أراد أن يهرب من القيود العسكرية ويتحرر . إلا أنه دفع في مقابل تلك الزلة إلى عالم مليء بالخوف والقلق .

وتأمل : ماذا بوسعه أن يصنع ؟ إنه لن يرى إليزابيث قبل المساء . ثم لعن التسرع الذي دفعه إلى تقديم الأوراق . وفكر : حماية ! .

أعطيت لنفسى أمس أهمية وقلت إن الزواج حماية لها . ثم يتضح اليوم أن الزواج خطر عليها .

وصاح به فجأة صوت خشن وقح : « ما معنى هذا التزين وهذه المسخرة ! » . وأفاق إلى نفسه فوجد رائداً صغير الحجم يقف أمامه : « ألا تدرك خطورة الفترة التى تمر بها البلاد أيها المهرج ؟ » .

وحملق فيه جريير لحظة دون إدراك ، ثم أحس أنه قد حيا الرائد تحية عسكرية دون أن يعى أنه يرتدى ثيابًا مدنية . وأخذ الضابط العجوز هذا المسلك على أنه سخرية منه . فقال جريير : « عفواً كانت نيتى طيبة » .

— ماذا ، وتتجرأ وتتفوه بنكات سخيفة ؟ إنك لست جندياً فلم ؟

وتأمل جريير العجوز بعناية ، فإذا به الرجل الذى وبخه أثناء وقوفه مع إليزابيث فى تلك الأمسية أمام منزلها .

وغوى الرائد : « كان الأولى بصعلوك مثلك أن يغوص فى الأرض خجلا ، بدلا من إتيان هذه الحماقات » .

وغضب جريير ، وقال : « لا تشغل بالك بأمرى وعد ثانية إلى صندوق القمة الذى خرجت منه ؟ » .

وامتلأت عينا العجوز بتعبير مجنون فابتلع ريقه واحمر كالسرطان وحشرج قائلا : « سأجعلهم يقبضون عليك » .

— أنت تعرف تماماً أنك لا تستطيع هذا . فدعنى الآن فلدى عمل أقوم به .

— حقاً ؟ « وأراد أن يواصل لومه وتعنيفه ، إلا أنه اقترب خطوة وتشمم بفتحتى منخاره المملوءتين بالشعر ، ثم تقلص وجهه وقال بتقزز : « آه فهمت الآن ، هذا هو سبب عدم تجنيدك . إنك من الجنس الثالث يا للعار — خنثى ! متعطر ! عاهر ! » .

ويصق ومسح بيده على ذقنه ، وكانت كالفرشاة . ثم رمق جريير بنظرة مليئة بالاحتقار وابتعد . . . إنها أملاح البنفسج المعطرة ! ! وتشمم جريير يديه ، وكانت تتضوع بالرائحة وفكر : عاهر ! ولكن ألست عاهراً حقاً ؟ إن خوف الإنسان على إنسان آخر يدفعه إلى أكثر من ذلك ! السيدة ليزر ! حارس المنزل ! وكم من أمور أخرى كنت مستعداً حقاً لارتكابها ؟ ! لقد انهارت عندى القيم الفاضلة بشكل رهيب .

ووقف أمام دار الجستابو ، وفى مدخل الدار أخذ شاب صغير من رجال النازى يروح ويجىء متثائباً ، ثم خرج ضابطان من الجستابو يتضاحكان ، وتسلل رجل فى منتصف العمر خارجاً . . . تردد جريير ، ثم نظر إلى النوافذ وظل واقفاً . وأخيراً أخرج قصاصة من جيبه أعاد قراءتها ونظر حوله ثم إلى السماء واتجه ببطء إلى المكاتب . وقرأ رجل الجستابو الاستدعاء بلا مبالاة وتركه يدخل .

حملق جريير إلى النوافذ عالياً فخالجه خوف ثقيل لزج متزايد .

لقد خبر أنواعًا من الخوف لا حصر لها ، خوف حاد ، وخوف كبير ، وخوف أمام الموت . . . ولكن خوفه الآن مختلف عن هذا : إنه خانق متزايد غير محدود ، مهدد ، يدفع الإنسان إلى الوضاعة والقذارة والتحطيم . ولا يمكن إدراكه والإحاطة به كما لا يمكن «واجهته» . إنه خوف الانهيار والشك المدمر . إنه الخوف على الآخر الذى يدفع إلى الانحلال ، الخوف على ضحايا لا ذنب لهم ، الخوف على المطارد بغير حق ، الخوف من الطغيان والقوة والوحشية الدائبة . إنه الخوف الأسود الذى يسيطر على هذا العصر .

* * *

وانتظر أمام المصنع قبل موعد انصراف العمال بوقت طويل . وظل فترة إلى أن حضرت إليزابيث . وسيطر عليه الخوف ثانية عندما رآها . تملك الخوف أن تعتقل . ودهشت إليزابيث عندما رأته فى ثيابه المدنية وضحكت قائلة :

— كم تبدو شابًا !

— ولكنى لا أحس بالشباب . أحس أن عمرى مائة عام .

— لم ؟ ماذا حدث ؟ أترحل قبل انتهاء الإجازة ؟ .

— لا . ليس هذا هو السبب .

— أتحس أن عمرك مائة عام لارتدائك ثيابًا مدنية ؟ .

— لا أدرى ، يبدو أنى لست مع هذه الحلة الملعونة كل هموم

العالم . . . ماذا فعلت بشأن أوراق الزواج ؟

وأجابت إليزابيث مبتهجة : «قدمتها كلها ، قدمتها كلها فى فترة الغداء» .

فقال جرير : «كلها ! إذن لم يعد باستطاعتنا أن نفعل شيئًا» .

— وماذا كان باستطاعتنا أن نفعل ؟

— لا شىء . . أحسست فجأة بالخوف . ربما كان كل ما فعلناه خطأ ، ربما جلب لك هذا ضرراً .

— لى ؟ ولم ؟

وتردد جرير ، ثم قال : «سمعت أنهم يقومون فى الحسابير بالتحرى . وربما كان من الأصوب أن ندع كل شىء دون أن نلفت إليك الأنظار .

وتوقفت إليزابيث عن السير وسألت : «وماذا سمعت أيضًا ؟» .

— لا شىء أكثر من هذا . إلا أنى أحسست بالخوف فجأة .

— أتعنى أنى قد أعتقل لرغبتى فى الزواج ؟

— لم أسمع هذا .

— إذن ماذا سمعت ؟ أتقصد أنهم سيعرفون أن أبى فى معسكرات التعذيب ؟

وقاطعها جرير . . . «ولا هذا أيضًا ، إنهم يعرفون هذا . أقصد ربما كان من الأصوب ألا تلفت أنظارهم إليك ، فلا أحد يدرى ماذا

يريد الجستابو . . . فقد تخطر ببالهم ، أو ببال أحدهم أفكار سخيفة وأنت تعرفين كيف تسير هذه الأمور . . فما من قانون أو عدالة . . . » [!]

وصمتت إليزابيث لحظة ، ثم سألت : « وماذا علينا أن نفعل ؟ » .

— إنى أفكر فى الأمر طول النهار ، ولكننى أظن أنه لم يعد بيدنا أن نفعل شيئاً ، فلو سحبنا الطلب لفتنا الأنظار أكثر من ذى قبل .

وأومأت ، ثم نظرت إليه بغرابة : « ومع ذلك فبوسعنا أن نحاول » .

— فات الوقت يا إليزابيث وعلينا أن نخاطر وننتظر .

وواصلا السير ، ثم فكر : « إن وجود المصنع فى ميدان صغير يساعد على سهولة رؤيته » وتأمله جريبر ، ثم سأل : « ألم تسقط عليكم قنابل من قبل ؟ » .

— حتى الآن . . . لا ؟

— المصنع فى موقع مفتوح ، ومن السهل معرفة أنه مصنع .

— لدينا مخابئ كثيرة .

— أهى متينة واقية ؟

— أظن أنها كذلك إلى حد ما ؟

ونظر جريبر إلى أعلى ، وسارت إليزابيث بجانبه دون أن تنظر إليه ، فقال : « أرجوك ، افهمى حقيقة ما أريد ، أنا لا أخاف على نفسى بل عليك » .

— لا تخش علىّ !

— ألا تحسين بالخوف ؟ .

— أحسست بكل أنواعه حتى لم يعد هناك مكان لخوف جديد .

فقال جريبر : « وأنا أيضاً . ولكن عندما يحب الإنسان ، تجتاحه أنواع جديدة كثيرة من الخوف لم تدهمه من قبل » .

فالتفتت إليزابيث إليه وقد ابتسمت فجأة . فنظر إليها ، ثم أومأ برأسه قائلا : « لم أنس ما ذكرته أول أمس . حقاً لا بد أن يحس الإنسان أولا بالخوف ، كى يدرك أنه يحب إنساناً آخر » .

— لا أدرى ولكننى أظن أن هذا يساعد .

— إنها الحلة الملعونة ، سأخلعها غداً ، ظننت أن المدنيين يعيشون حياة يحسدون عليها .

وقالت إليزابيث ضاحكة : « أحدث هذا كله بسبب هذه الحلة ؟ » .

فقال وقد زال همه : « لا ، وإنما حدث لأنى عدت إلى الحياة ثانية . فأنا أحيا الآن . وأريد أن أحيا ، ويبدو أن هذا هو سبب إحساسى بالخوف الذى سيطر على طول النهار بشكل بشع ، ولكنه تناقص منذ أن رأيتك ، رغم أن الموقف لم يتغير فيه شىء » . هذا غريب حقاً ، فالخوف لا يحتاج إلى سبب .

فقالت إليزابيث : « وكذلك حال الحب ولله الحمد » .

ونظر إليها جريبر وقد سارت بجواره سعيدة خالية البال وفكر : لقد

تغيرت ، بل إنها تتغير كل يوم ، كانت هي الخائفة ، فأصبحت أنا الخائف . انعكس الموقف .

وعبرا ميدان هتلر وتجلت حمرة الشفق خلف أبراج الكنيسة ، فسألت إليزابيث : « أين تشتعل هذه النيران ؟ » .

– ليست نيرانا وإنما هو الشفق .

– الشفق ! لم يعد في بالنا ، أليس كذلك ؟

– لا .

وسارا معاً وقد ازداد الشفق حمرة وعمقاً وانعكس على وجهيهما ويديهما ونظر جريبر إلى الناس المقبلين نحوه فرآهم مختلفين عن ذي قبل . كان كل واحد إنساناً له كيانه . وفكر : من السهل أن تحكم وأن تكون جريئاً في حكمك ما دمت لا تملك شيئاً . فإن ملكت شيئاً ، اختلف العالم ، وأصبح الأمر أكثر صعوبة ، وقد يكون أسهل ، بل قد يكون مستحيلا ، والشجاعة ما زالت موجودة . أما الأمر الذي تحكم عليه أو له فيبدو مختلفاً ويتخذ أسماء أخرى .

وتنفس بعمق ، وأحس وكأنه عاد من مهمة استطلاعية طويلة خطيرة في بلاد الأعداء ، مهمة أكثر خطورة من أية مهمة أخرى . إلا أنه أحس مع ذلك بلحظة أمن .

وقالت إليزابيث : « هذا غريب حقاً . الشارع دمرته القنابل ولا أثر للربيع فيه . . . ومع ذلك أشم رائحة البنفسج . إنه الربيع حقاً ! » .

الفصل الثامن عشر

وحزم بوتشر أمتعته ، بينما وقف الباقون حوله ، وسأله جريبر : « هل وجدتها حقاً ؟ » .

– نعم ولكن .

– أين ؟

وقال بوتشر : « في الشارع . كانت ببساطة واقفة في شارع « كبلار شتراسه » ناصية شارع « بيرشتراسه » بجوار محل بيع شماسي . ولم أتعرف عليها من أول وهلة .

– وأين كانت طوال هذا الوقت ؟ .

– في أحد المعسكرات بجوار إرفورت ، والآن اصغ إلى . . . كانت واقفة بجوار محل الشماسي ومررت بجوارها دون أن أراها فنادتني : أوتو ، ألا تعرفني ؟ .

وتوقف بوتشر لحظة ونظر في الغرفة حوله وقال : « وكيف يمكن أن أتعرف يا زملائي على زوجتي بعد أن نقص وزنها أربعين كيلوجراماً » .

– وما اسم المعسكر الذي كانت به ؟ .

– لا أدري . أظن أنه « فالد لاجر » رقم ٢ وبإمكاني أن أسألها ولكن اصغ إلى . . . حملقت فيها وقلت : ألما . . . إنه أنت . فقالت :

أنا يا أوتو . . . حدثني قلبي أنك في إجازة . ولما عدت . . . وحملقت فيها . سيدة ضخمة في حجم حصان عربة البيرة . تقف أمامي الآن نحيلة ، بل هيكلا عظمياً وقد تهدلت عليها الثياب ! » وصدر عن بوتشر شخير مرتفع .

وسأله فيلدمان مهتماً « وكم طولها إذن ؟ » .

— ماذا ؟ .

— كم يبلغ طول زوجتك ؟ .

— متراً وستين سنتيمتراً تقريباً . ولكن لم ؟

— إذن فقد استعادت زوجتك وزنها الطبيعي .

وحملق بوتشر في فيلدمان وقال : « وزنها الطبيعي ؟ عم تتحدث يا رجل ؟ ليس بالنسبة لي فهي في نظري قتلة . وما شأني أنا بالوزن الطبيعي الذي تتحدث عنه ! أريد زوجتي كما كانت بمؤخرتها الكبيرة القوية التي كانت تكسر ثمرة البندق . ولا أريدها بمؤخرة كحبة الين البائسة . . . لم أحارب ؟ ألأجل هذا ؟ » .

وقال رويتر : « تحارب لأجل زعيمنا الحبيب ولأجل وطننا الغالي ، وليس من أجل وزن اللحم الميت في زوجتك . . . كان الأولى بك أن تدرك هذا شيئاً فشيئاً بعد ثلاثة أعوام قضيتها في ميدان القتال ! » .

وتجول بوتشر بنظراته بينهم غاضباً لا حول له ، ثم قال : « وزن

اللحم الميت ؟ ومن تحدث عن وزن اللحم الميت . . . كان حديثنا عن وزنها وهي حية ويمكنكم بعد ذلك أن . . . » .

ورفع رويتر يده محذراً : « قف ! . فكر كما يحلو لك ، ولكن لا تنطق بما تفكر فيه ! واحمد الله أن ظلت زوجتك حية » .

— إنني أحمده ، ولكن ألا يمكن أن تحيا وتكون قوية كما كانت من قبل ؟

فقال فيلدمان : « بوسعك يا بوتشر أن تغذيها فتعود كما كانت » .

— أهكذا ؟ وبأي شيء أغذيها ؟ أبالنزر اليسير المصرح به في بطاقة التموين ؟

— حاول أن تحصل على شيء بالطرق الجانبية .

فقال بوتشر : « الكلام سهل ونصائحكم غالية ، ولكن أمامي ثلاثة أيام هي الباقية من الإجازة . فكيف يمكنني أن أعيدها إلى وزنها في ثلاثة أيام ، فلو تمرغت في زيت كبد الحوت أو حتى أكلت سبع دجاجات يومياً فلن تزيد غير بضعة أرطال ، وهل يجدي هذا ؟ إنني يا زملائي في موقف صعب ! » .

— كيف ؟ إن كان الأمر ، أمر الدهن ، فأمامك صاحبة الخان البدينة فهي ممتلئة دهناً .

— تماماً . وقد ظننت أنني لن أفكر فيها عندما تعود إليّ زوجتي ،

فلست زير نساء ، بل محباً للحياة العائلية ، أما الآن فتعجبنى صاحبة الخان أكثر من زوجتى » .

وقال روبتر : أنت سطحى ملعون ؟

— لست سطحياً . . . فكل شىء بالنسبة لى بالغ العمق ، وهذه نقيصتى وإلا كنت الآن سعيداً ، إنكم مهرجون لا تفهمون هذا .

وذهب بوتشر إلى الدرج المخصص له ، ثم ألقى ببقية حاجياته فى حقيبة الميدان ، فسأله جرير : « أتعرف مكاناً تقيم فيه مع زوجتك ؟ أم أن مسكنك القديم ما زال قائماً لم يدمر ؟ » .

لا ، طبعاً فقد دمرته القنابل . ولكنى أفضل أن أعيش بين الخرائب على أن أقضى يوماً آخر هنا . وسر تعاستى أن زوجتى لم تعد تعجبنى رغم أنى ما زلت أكن لها الحب . فقد أحببتها قبل أن أتزوجها . ولكنها لم تعد تعجبنى بما هى عليه . وليس لى فى ذلك حيلة . . ماذا أفعل خاصة وأنها تحس بهذا ؟ .

— كم يوماً بقيت لك من الإجازة ؟

— ثلاثة أيام . . .

— ألا يمكنك أن تتظاهر عدة أيام بالسعادة ؟

وقال بوتشر بهدوء : « قد تتمكن المرأة ، فى الفراش ، من التظاهر بشىء لا تحسه . أما الرجل فليس بوسعه هذا . صدقنى ! لقد كان

من الأفضل لى بدلا أن أرحل دون أن ألتقى بها فكلانا يتعذب » .

وحمل أمتعته ورحل . وتبعه روبتر بنظراته ، ثم التفت بعد ذلك إلى جرير وسأله :

— وأنت ؟ ماذا قررت ؟ .

— سأذهب إلى الإدارة العسكرية وأسأل فى شىء من الحذر ، عما إذا كانت هناك أوراق أخرى مطلوبة .

وابتسم روبتر بسخرية قائلا : « ألم تفزعك مصيبة زميلك بوتشر ؟ .

— لم يفزعنى هذا وإنما تفزعنى أمور أخرى .

* * *

وقال الكاتب فى الإدارة العسكرية : « الجو مليد . الجو مليد فى الجبهة : أتدرى ماذا يفعل الإنسان فى الجو المليد ؟ » .

وأجاب جرير : يسحب غطاءه فوقه . فكل طفل يعرف هذا . ولكن ما شأنى أنا بهذا ؟ أنا فى إجازة .

وصحح الكاتب كلام جرير : « نظن أنك فى إجازة ولكن ما رأيك لو أطلعناك على أمر ورد اليوم ؟ » .

— هذا يتوقف على الأمر .. ثم أخرج علبة سجائر من جيبه وألقاها على المنضدة وأحس بمعدته تتقلص . وأعاد الكاتب قوله : « الجو مليد والخسائر فادحة ومطلوب حالا من يحل محل الخسائر . والقائمون بإجازة

وليس لديهم ما يضطرهم إلى البقاء سيرسلون فوراً . هل فهمت ؟ »

— وما هى الأسباب التى تضطر الإنسان إلى البقاء ؟ .

— موت الأقارب ، أو تدبير بعض الأمور العائلية الهامة أو مرض خطير .

وأمسك الكاتب بالسجائر وقال : « اختف إذن ، ولا تدعنا نراك وما دمنا عاجزين عن العثور عليك فلن نتمكن من إعادتك . . . وتجنب الثكنات كما يتجنب الإنسان الطاعون ! هيا أسرع إلى أى مكان إلى أن تنتهى إجازتك وبعدها سجل نفسك ! . . وماذا ينالك بعدئذ ؟ عقوبة عدم الإخطار عن عنوانك ؟ ستذهب على أى حال إلى الجبهة وينتهى الموضوع » .

فقال جرير : سأتزوج . أيعتبر هذا من الأسباب الاضطرارية ؟

— تتزوج ؟

— نعم وأنا هنا لهذا السبب ، وأريد أن أعرف الأوراق المطلوبة إلى جانب بطاقة التجنيد .

— زواج ! ربما كان هذا سبباً . أقول ربما .

وأشعل الكاتب سيجاره : « ربما كان هذا سبباً . ولكن لم أقدمت على ذلك ؟ إنك كأى محظوظ من جنود الجبهة — لست بحاجة إلى أوراق أخرى . وإن احتجت إلى شىء تعال إلىّ أدبر لك كل شىء . . هكذا

يهدوه دون أن يحس إنسان بشىء . ألديك ملابس مناسبة ؟ إنك لا تستطيع الزواج فى هذه الخرق ؟ .

— أمن الممكن أن أستبدل ملابسى ؟ .

فقال الكاتب : « اذهب إلى الثور المسئول عن مخازن الثياب ، واذكر له أنك ستتزوج . اذهب وقل له إنى بعثت بك إليه . . . ألديك سجائر أخرى ؟ » .

— لا ولكن بإمكانى أن أحصل على بعض منها .

— لا أريد السجائر لى ولكن للجاويش .

— سأفكر فى ذلك . ولكن هل تعرف إن كانت زوجة الجندى بحاجة إلى أوراق خاصة ؟ .

— لا أدرى — ولكن لا أظن هذا — إذ يجب أن تسير الأمور بسرعة .

ثم نظر الكاتب إلى ساعته وقال : هيا أسرع إلى تلك الغرفة ، فالجاويش موجود الآن ! .

* * *

ذهب جرير إلى جناح المخزن . وكانت غرفة المخزن فى الطابق السفلى ، وكان الجاويش مكتئراً . ولكل عين من عينيه لون يختلف عن لون الأخرى : فواحدة منهما بنية اللون فاتحة ، بينما الأخرى زرقاتها مشوبة باللون البنفسجى ، كأنها زهرة بنفسج .

وزمجر الرجل : « لا تحملق فىّ هكذا . ألم تر فى حياتك عيناً زجاجية ؟ » .

— بلى . إلا أننى لم أر عيناً تختلف فى اللون عن العين الأخرى »

— « هذه ليست عينى أيها الغبى » . . . وأشار بأصبعه إلى العين الزرقاء اللامعة . « بل استعرتها من أحد الزملاء . أما عينى فقد سقطت أمس على الأرض وكانت بنية اللون . هذه الأشياء لا تتحمل طويلا وكان الأجدر أن تصنع من السليولويد » .

— وتكون فى هذه الحالة معرضة للاشتعال .

ونظر إليه الجاويش . ثم ركز بصره على نياشين جريبر وابتسم ساخراً .

— تماماً . ومع ذلك ليس لدى زى عسكرى يليق بك . آسف فكل ما لدى أسوأ مما ترتدى الآن .

واتجه إلى جريبر بعينه الزرقاء . وكانت عينه البنية أكثر انطفاء من الأخرى . فوضع جريبر علبة من سجائر بيلديج على المنضدة . ولمحها الجاويش بعينه البنية فاستدار منسحباً وعاد ومعه سترة : « هذا كل ما عندى » .

ولم يلمس جريبر السترة ، بل أخرج من جيبه زجاجة ، كونياك صغيرة مبططة ، كان قد احتاط وخبأها فى جيبه . ثم وضع الزجاجة بجانب العلبة فاختفى الجاويش وعاد حاملا سترة أحسن من الأولى . وسروالا يكاد

يكون جديداً . وتناول جريبر السروال أولا . إذ كان سرواله مليئاً بالرقع والثقوب ، وقلبه بين يديه . ولاحظ أن هذا الثور قد وضعه بطريقة أحدثت بقعة فى حجم الكف . فنظر إلى البقعة صامتاً ثم إلى الكونياك .

وقال الجاويش : « ليس دماً ، بل زيت زيتون من أرقى الأصناف وقد أتى به الرجل الذى ارتداه فى إيطاليا . نظفه بالبنزين فتختفى البقعة ! » .

— ولم لم ينظفه صاحبه بدلا من استبداله بآخر ؟ .

وأظهر الجاويش أسنانه وقال : « سؤال معقول . ولكن الرجل أراد سروالا يحمل رائحة الجبهة ، مثل هذا الذى ترتديه الآن . إذ جلس إلى مكتبه عامين فى ميلانو يكتب أثناءها لزوجته خطابات عن الجبهة ، ولذا لم يستطع أن يعود إليها بسروال جديد لم يسقط عليه إلا طبق ملاطة . إنه حقاً أحسن السراويل الموجودة عندى » .

ولم يصدقه جريبر . إلا أنه لم يكن معه ما يمكنه من مواصلة المساومة للحصول على شىء أجود . ومع ذلك هز رأسه . فقال الجاويش : « حسن ! اقتراح آخر . إنك لست بحاجة لأن ترد إلى زيك . فاحتفظ بخرقك وخذ الزى الجديد . اتفقنا » .

— ألست بحاجة إلى الزى القديم كى لا تنقص عهدتك ؟ .

ونظر إليه الجاويش بلا مبالاة . وعكست عينه الزرقاء شعاعاً من أشعة الشمس تسلل من النافذة . وقال : « العدد غير مضبوط منذ أمد

طويل . أيوجد شيء مضبوط في هذا الزمن ؟ ألا تعرف هذا ؟ .

— لا .

فقال الجاويش حسناً هيا إذن .

* * *

مر جريير بمستشفى المدينة وتوقف أمامه إذ خطر بباله ، أنه كان قد وعد موتسيج بزيارته . وتردد لحظة إلا أنه دخل . خالجه فجأة تفاؤل خرافي بأن هذه الزيارة قد تبعد عنه السوء وتقيه منه .

كان المبتورون في الطابق الأول . أما من أجريت لهم عمليات حديثة ولا يمكنهم مبارحة الفراش . وذوو الحالات الصعبة فقد كانوا في الطابق الأرضي . كي يسهل نقلهم بسرعة إلى المخبأ في حالة الغارات الجوية ، فالمبتورون يستطيعون أن يتحركوا متساندين . ألا يستطيع رجل دون ساقين أن يتعلق برفيق رجلين دون أذرع وبذلك يصل الثلاثة إلى المخبأ في الوقت الذي يتصرف فيه ممرضو المستشفى إلى إنقاذ الحالات الخطيرة ؟ .

وقال موتسيج لجريير : أهذا أنت ؟ لم أظن أبداً أنك ستحضر .

— ولا أنا . ولكنك ترى أنني هنا .

— هذا جميل منك يا إرنست . ها هو شتوكمان معنا . ألم تكن معه في أفريقيا ؟ .

— نعم .

— فقد شتوكمان ذراعه اليمنى ، وها هو ذا يلعب الورق مع اثنين آخرين من المبتورين .

وقال شتوكمان : « وأنت يا إرنست ماذا جرى لك ؟ » ثم انزلقت نظراته تتفحص جريير باحثة لاشعورياً عن أي جرح .

وأجاب جريير « لا شيء » فنظر إليه الجميع نفس نظرة شتوكمان .

فقال جريير مرتبكاً : « إنني في إجازة » . وأحس بالإثم لأنه سليم معافى .

— ظننت أنه حدث لك في أفريقيا ما يسمح لك بالبقاء في الوطن .

— عالجوني ، ثم أرسلوني بعد ذلك إلى روسيا .

— كنت محظوظاً ، وكذلك أنا . إذ أسر باقي الزملاء ولم يتمكنوا من الفرار .

ولوح شتوكمان بالجزء المتبقي من ذراعه المبتورة . وقال : « لو سمينا هذا حظاً » وضرب الرجل الجالس في الوسط ورق اللعب فوق المائدة وسأل بخشونة : « أتلعب أم تثرثر ؟ » .

ورأى جريير أن الرجل قد فقد ساقيه . إذ بترتا من أعلى ، كما فقد إصبعين من يده اليمنى . ولم يكن بعينيه رموش . بل كانت جفونه حمراء حديثة ولامعة وكأنها جلود محترقة .

وقال جريير : « واصلوا اللعب ويمكنني أن أنتظر بعض الوقت ! » .

فقال شتوكان : « هذا الدور فقط وسنتهى منه حالا » .

وجلس جرير عند النافذة بجوار موتسيج وهمس موتسيج : « لا تغضب من أرنولد ، فاليوم أحد أيامه النكدة » .

— أهو الجالس فى الوسط ؟ .

— نعم . كانت زوجته بالأمس هنا . وهو يتألم دائمًا بعد هذه الزيارة ، ويظل هكذا لبضعة أيام .

وصاح أرنولد من بعيد : « ماذا تدبّر ؟ » .

— عن الأيام الماضية . أظن ذلك مباحًا لى أليس كذلك ؟ .

وزمجر أرنولد بكلام غير مفهوم . ثم واصل اللعب وقال موتسيج بنشاط : « وفيما عدا هذا ، فالمكان مريح ، إذ نقضى أوقاتًا طيبة . كان أرنولد بناء . وأنت تدرك أن هذا ليس سهلا وقد روت له أمه أن زوجته تخونه » .

وألقى شتوكان بأوراقه على المنضدة قائلا : « . . . حظ سيئ ملعون . كان الأمس مضمون الربح . من كان يظن أن ثلاثة أولاد يمكن أن تجتمع فى يد واحدة » ! .

فأومأ أرنولد بعض الشىء ، ثم خلط أوراق اللعب . وقال موتسيج : « لا يعرف الإنسان أيهما أفضل — أقصد إن أراد الزواج — أن يكون بذراع واحدة أو بساق واحدة » .

فقال شتوكان : « أن يكون بذراع واحدة . ولكن كيف يحتضن

الرجل زوجته فى الفراش وعليه أن يحتضنها بقوة ؟ . . . » .

— ليس هذا مهمًّا . المهم أنك ما زلت حيًّا .

— هذا صحيح ولكن ليس بوسعك أن تعيش هكذا مدى الحياة ، فستتطور الأمور بعد الحرب ، فلا ينظر إليك كبطل محارب ، بل ستكون مجرد عاجز .

— لا أظن هذا ، فالأطراف الصناعية موجودة .

وقال موتسيج : « لا أعنى هذا . أنا أقصد العمل » .

وكان أرنولد يصغى إلى النقاش . فقال بصوت مرتفع : « يجب أن نكسب الحرب . وعلى الآخرين أن يضحوا بعظامهم فقد ضحينا نحن بما فيه الكفاية » .

وصوب نظرة عدوانية إلى جرير : « لو أن كل الأصحاء المتكاسلين عن القتال والموجودين هنا ، فى أماكنهم فى الجبهة الآن ، ما اضطررنا للتقهقر هكذا دائمًا ! » .

ولم يجب جرير فما كان له أن يتشاجر مع إنسان مبتور الأعضاء إن من فقد أحد أعضائه على حق دائمًا . يستطيع أن يتشاجر مع إنسان أصيب برصاصة فى الرئة أو شظية فى المعدة أو مع من حالته أسوأ من هذا . والغريب أنه لا يستطيع الشجار مع إنسان بتر عضو من أعضائه .

واصل أرنولد اللعب وسأل موتسيج بعد لحظة : « ما رأيك يا إرنست » ؟

إنني أحب فتاة في مونستر . وما زلنا نتراسل . وهي تظن أنني مصاب برصاصة في الساق . ولم أقل لها الحقيقة بعد .

— انتظر ولتحمد الله على أنك غير مضطر للعودة إلى الميدان .

— إنني لكذلك يا إرنست . ولكنني لا يمكنني أن أستمر هكذا دوماً .

وفجأة قال أحد المحيطين باللاعبين لموتسيج : « اسكروا وكونوا رجالا » . .

وضحك شتوكمان فسأله أرنولد : « ماذا يضحكك ؟ » .

— فكرت : ماذا تكون حالنا لو سقطت علينا الليلة قنبلة كبيرة ؟ لو سقطت هكذا بيننا ولم تترك منا إلا كياناً هلامياً — لم كل هذه الهموم ؟ .

ونهض جرينر وشاهد الشخص الذي تحدث إليه . ورآه بدون ساقين فتذكر تلقائياً ، هل أطاح انفجار بساقيه أم تجمد ؟ وزمجر أرنولد « وأين دفاعنا الجوي ؟ أهم بحاجة إليه كله في الميدان ؟ يكاد لا يوجد منه هنا شيء » .

— ولا في الميدان .

— ماذا ؟ .

ولاحظ جرينر أنه قد أخطأ ، فقال : « نحن في الميدان ننتظر الأسلحة السرية . ولا بد أنها مدهشة حقاً » .

وحملق فيه أرنولد : « يا للعنة ، عم تتحدث ؟ معنى هذا أننا فقدنا الحرب . هذا غير صحيح . أتعني أنني سأجلس في عربة صغيرة ، أبيع علب التقاب كما حدث للناس بعد الحرب العالمية الأولى ؟ لنا حقوق ! لقد وعدنا الزعيم ! » . وألقى بالورق على المنضدة ثائراً . فقال الرجل الذي فقد ساقيه لموتسيج : « تعال وأدر (الراديو) ! أريد موسيقى » وأدار موتسيج المذياع . فدوت مجموعة من الكلمات الرنانة من مكبر الصوت . إلا أنه واصل البحث عن إرسال آخر . فصاح أرنولد غاضباً : « دعنا نسمع هذا ؟ » .

— لم ؟ إنها خطبة ثانية .

— أقول لك دعها ! فهو خطاب حزبي . ولو أصغى كل إنسان له لكانت حالنا أحسن . وأعاد موتسيج الإرسال الأول متنهداً ، ودوى صوت الخطيب هائجاً في الغرفة ، وأصغى أرنولد ضاغطاً فكيه . وأشار شتوكمان إلى جرينر ، ثم هز كتفيه ، فذهب إليه جرينر وهمس . أتمنى لك حظاً طيباً يا شتوكمان ويجب أن أذهب » .

— ألديك ما هو أحسن من هنا ؟

— لا ، ولكن يجب أن أذهب .

وخرج تتبعه نظرات الآخرين . فأحس كأنه عار . وعبر القاعة ببطء . واعتقد أن سيره البطيء أنسب بالنسبة للمبتورين . ولكنه رأى كيف ينظرون إليه . وخرج موتسيج إلى الباب مصطحباً إياه . وقال في

الضوء الخافت الذى يضيء الممر : « تعال ثانية ! إنك اليوم سيء الحظ إذ أننا عادة أكثر مرحًا » .

وخطا جرير إلى الشارع وقد أخذ الظلام فى الخارج يتكاثف . فعاد إليه الخوف على إليزابيث . وكان قد حاول طول النهار أن يفر منه . وها هو قد بدأ يزحف عليه فى هذا الضوء المرتعش الذى يحيط به من كل جهة .

* * *

وذهب إلى بولان فتح له العجوز فوراً . وكأنه كان يتوقع مجيء إنسان آخر . ثم قال : « أهو أنت يا جرير ؟ » .

— نعم ولا أريد أن أزعجك طويلا إلا أننى أردت أن أسألك معروفًا .

ففتح بولان الباب قائلا : ادخل . تفضل كى لا تقف بالخارج إذ يجب ألا يعرف الناس .

ودخلا إلى الغرفة ومعهما المصباح ، وشم جرير رائحة دخان سجائر حديثة ولم يكن بيد بولان سيجارة . وسأله بولان : ماذا أردت أن تسألنى يا جرير ؟

ونظر حوله : « أهذه هى الغرفة الوحيدة لديك ؟ » .

— لم ؟ .

— ربما أردت أن أخفى إنسانًا عندك بضعة أيام . أممكن هذا ؟ .

وصمت بولان واستمر جرير : « إنه إنسان قد يطلب البحث عنه . وأردت فقط أن أعرف من باب الحذر . ربما لم يكن هذا ضروريًا . إلا أننى أخشى على حياته . جائز أن يكون هذا مجرد وهم .

— ولم أتيت إلى أنا بهذا الخصوص ؟ .

— لا أعرف أحداً غيرك .

ولم يكن جرير يعلم بالضبط لم حضر . . . كان يحس بأن عليه أن يبحث عن ركن تختبئ فيه إليزابيث إذا ما ساءت الظروف .

— ومن هو ؟ .

— فتاة أريد أن أتزوجها وأبوها فى معسكرات التعذيب وأخشى أن يأخذوها هى أيضًا . إنها لم تفعل شيئًا . . . وربما كنت واهمًا فى مخاوفى .

قال بولان : ليس هناك وهم . والحذر خير من الندم . ويمكنك أن تأخذ هذه الغرفة إن احتجت إليها .

وأحس جرير بموجة من الدفء والاسترخاء تغمره فقال : « شكراً ! شكراً جزيلا » .

وابتسم بولان وتغير شكله فجأة . إذ لم يعد متهالكًا كما كان من قبل . واستطرد جرير : « شكراً وأتمنى ألا أحتاج إليها » .

ووقف الاثنان أمام صفوف الكتب فقال بولان : « خذ منها ما تريد فهى تساعدك أحيانًا على قضاء أمسية » .

وهز جريير رأسه : « ولكنها لا تساعدنى أنا ، فأنا أرجو أن أعرف كيف أوفق بين هذه الأشعار وتلك الكتب المليئة بالفلسفة ، وبين وحشية النازى ومعسكرات التعذيب وإبادة البشر الأبرياء » .

— إنها لا تتفق . ولكن الاثنين يتواجدان فى زمن واحد . فلو عاش كل من كتب هذه الكتب لانتهى معظمهم الآن إلى معسكرات التعذيب .

— جائز .

ونظر بوطان إلى جريير وسأله : « أتريد الزواج ؟ » .

— نعم .

وسحب العجوز من بين صفوف الكتب مجلداً وقال : « لا يمكننى أن أقدم لك شيئاً غير الكتب . خذ هذا الكتاب معك . إنه ليس للقراءة ، بل مجرد صور . صور فقط . وطالما قضيت الليالى أتأمل الصور وذلك عند ما لم أكن أستطيع القراءة . أتأمل الصور وأنشد الأشعار ، واستمر الحال هكذا فى الأيام التى كان لدى فيها بترول . أما وقد نفد ، فلم يعد أمامى فى الظلمة غير الصلاة » .

— « نعم » قالها جريير بغير اقتناع .

— طالما فكرت فيك يا جريير وفيما قلت ولم أجد لكلامك جواباً .

وتوقف بوطان متعثراً . ثم قال بصوت خفيض : « أمامنا شىء واحد نؤمن به . وهو أن نؤمن . أتعرف أنا غير هذا ؟ » .

— تؤمن بماذا ؟

— بالله وبالخير عند البشر .

وسأله جريير : ألم تتشكك فى هذا أبداً ؟

« بلى » قالها العجوز محيباً : « بل تشككت كثيراً . فمن أين لى أن أومن ؟ » .

* * *

وذهب جريير إلى المصنع وكان الجو عاصفاً وقد تدافعت السحب الممزقة فوق السقوف . وسار صف من الجند عبر الميدان فى الظلام غير الدامس . كانوا يحملون حقائبهم وهم فى طريقهم إلى المحطة ، ثم إلى الجبهة . وفكر جريير : كان من الجائز أن أكون واحداً منهم . ونظر إلى شجرة الكافور المظلمة المنتصبة أمام المنزل المتهدم . وفجأة أحس بكتفيه وعضلاته . أحس إحساساً قوياً بالحياة . نفس إحساسه يوم رآها لأول مرة . وفكر : غريب أن أحس بالأسى لبوطان لأنه لا يستطيع معاونتى . . . ولكننى مع ذلك أخرج من عنده وأنا أحس بالحياة أكثر عمقاً وقرباً عن ذى قبل .

الفصل التاسع عشر

— أهذه أوراقك ؟ انتظر لحظة ! .

ولبس الموظف نظارته ونظر إلى إليزابيث ، ثم نهض فى تعال ، ودار خلف الحاجز الخشبى الذى يفصل النافذة التى يجلس خلفها عن القاعدة الكبيرة . وتبعه جريبر بنظراته ، ثم نظر حوله ، وكان بينه وبين الباب الخارجى عدد كبير من الناس . وقال لإليزابيث :

— اذهبى إلى الباب وانتظرى هناك . فإذا ما رأيتنى أخلع قلنسوتى ، اذهبى فوراً إلى بيتك ولا تهتمى بأى شىء . اذهبى فوراً وسألحق بك .

وترددت إليزابيث . فأعاد جريبر بصبر نافد : « اذهبى فقد يستدعى هذا التيس العجوز أحدهم ، وليس بوسعنا أن نجازف . هيا انتظرى بالخارج ! » .

— ربما أراد أن يسألنى عن شىء يود أن يستفسر عنه .

— سندبر هذا . سأقول له إنك أحسست ببعض التوعك ، وذهبت لاستنشاق الهواء الطلق . اذهبى يا إليزابيث ! .

ووقف بجانب النافذة يتبعها بنظراته ، فالتفتت إليه وابتسمت ، ثم اختفت بين الجمع .

— أين الآنسة كروزة ؟ .

واستدار جريبر ورأى أن الموظف قد عاد فقال : ستعود حالاً . أكل شىء على ما يرام ؟ .

فأومأ الموظف قائلاً : « متى تريدان الزواج ؟ » .

— فى أقرب فرصة . إذ ليس لدى وقت . وإجازتى قاربت نهايتها .

— بوسعكما الزواج حالاً إن أردتما ، فالأوراق جاهزة . والأمر بالنسبة للجندى بسيط وسريع .

ورأى جريبر الأوراق بين يدى الرجل الذى يبتسم له . فأحس فجأة بالضعف . واشتعل وجهه بالحرارة وخلع قلنسوته ليجفف عرقه ، ثم سأل : هل تمت جميع الإجراءات ؟ » .

وأكد الرجل : « نعم كل شىء ، وأين الآنسة كروزة ؟ » .

ووضع جريبر القلنسوة على حاجز النافذة ، ونظر حوله يبحث عن إليزابيث . وكانت القاعة مزدحمة بالناس فلم يرها . إلا أنه لاحظ القلنسوة الموضوعة على النافذة ، وتذكر أن هذه هى الإشارة المتفق عليها ، فقال بسرعة : « لحظة وسأحضرها حالاً » .

واقتحم مسرعاً جميع الناس حتى يتسنى له أن يلحق بها فى الشارع . وما إن وصل إلى الباب حتى وجدها واقفة فى هدوء تنتظر خلف أحد أعمدة الإضاءة ، فقال : « أما زلت هنا ؟ الحمد لله . كل شىء على

ما يرام يا إليزابيث . كل شيء على ما يرام . . . » .

وعاد الاثنان وسلم الموظف الأوراق لإليزابيث وسألها :

— أأنت ابنة الطبيب كروزة ؟

— نعم .

وأمسك جرير بأنفاسه . وقال الموظف : « أنا أعرف والدك » .

ونظرت إليه إليزابيث وسألته بعد وهلة : « أتعرف شيئاً عنه ؟ » .

— ليس أكثر مما تعرفين . ألم تسمعي شيئاً عنه ؟

— لا .

وخلع الموظف نظارته وكان قصير النظر دامع العين . ثم قال :

— أتمنى لكما التوفيق . ثم سلم على إليزابيث بيده . وقال : « أتمنى لك كل سعادة . وقد لوليت موضوعك وأتممته بنفسي . ويوسعك الزواج اليوم ويإمكاني الإعداد له الآن إن أردت . فقال جرير : « حالا » .

وقالت إليزابيث : « بل ظهراً . أتوافقك الساعة الثانية بعد الظهر ؟ » .

— سأرتب لكما الأمر ، فاذهبا إلى ملاعب المدرسة الثانوية ! فهي الآن إدارة الأحوال المدنية .

— شكراً .

ووقفا عند الباب الخارجي فسأل جرير : « لم لا نتزوج الآن وليس أمامنا ما يعوقنا ؟ » .

فابتسمت إليزابيث وقالت : « أنا بحاجة لبعض الوقت كي أعد نفسي يا إرنست . وهذا أمر لا تفهمه ، أليس كذلك ؟ » .

— أفهم نصفه فقط .

— هذا يكفي ، تعال في الثانية إلا ربعاً ! .

وتردد جرير ثم قال : « لم أتوقع أن تسير الأمور هكذا ببساطة ، ولا أدري لم كنت خائفاً ؟ كنت مضحكاً ، أليس كذلك ؟ » .

— لا .

— بل كنت كذلك .

وهزت إليزابيث رأسها وقالت : « ظن أني أنا من حذره من الناس مضحكون ، وما كنا إلا محظوظين يا إرنست . هذا كل شيء » .

* * *

وبعد أن عبر شارعين ، وجد دكاناً لتفصيل الملابس ، وبداخله رجل يخيط زيّاً عسكرياً . بدا الرجل كالكنجارو . فسأله جرير : « أيمكنني أن أنظف هذا السروال لديكم ؟ » .

والتفت الرجل إلى أعلى وقال : « هذا محل خياطة وليس محل تنظيف » .

— أرى هذا إلا أنى أريد كى ثيابى أيضاً .

— هذه الثياب ؟ تقصد هذه التى ترتديها ؟ .

— نعم .

— وتمتم الخائط شيئاً . ثم نهض وتأمل البقعة الموجودة بالسروال ، فقال جرير :

— ليس هذا دم . بل زيت زيتون . يزيله البنزين .

— ولم لم تقم أنت بهذا ما دمت تتقنه ؟ البنزين لا يصلح لمثل هذه البقع .

— جائز . فأنت أدرى بهذا منى . ألديك ما يمكننى أن أرتديه الآن ؟ .

وذهب الرجل خلف ستار . ثم عاد ومعه سروال مخطط على هيئة مربعات . وسترة بيضاء . فأخذهما جرير وسأل : «كم يستغرق هذا . فأنا بحاجة إلى الحلة من أجل عقد القران ؟» .

— ساعة واحدة .

فنهض جرير قائلا : «سأعود فى ظرف ساعة» .

ونظر إليه الكائنجارو متشككاً . فقد توقع أن ينتظر بالمحل فقال جرير :

— حلتى العسكرية ضمان طيب ولن أمر بالثياب .

وأبانت الدهشة أسنان الخائط الذى قال : «حلتك هذه ملك للدولة

أيها الشاب . . . ومع ذلك . . . هيا اذهب وقص شعرك فأنت محتاج إلى هذا ما دمت تزمع الزواج» .

— صحيح .

* * *

وذهب جرير إلى الحلاق ، وكانت سيدة نحيفة تقوم بالعمل ، فقالت له : «زوجى يقاتل بالجبهة وأنا أنوب عنه هنا . تفضل ، أتريد أن تحلق ذقنك ؟» .

— بل أقص شعرى . أتستطيعين هذا أيضاً .

— يا إلهى ! وأتقنه إلى درجة كبيرة . أتغسل شعرك ، لدينا صابون ممتاز .

— نعم سأغسل شعرى .

كانت السيدة قوية وقامت بقص الشعر وغسله بالصابون غسلاً جيداً وجففته بمنشفة من النوع الطيب . ثم سألت : «لدى دهان فرنسى لتلميع الشعر إن رغبت» .

ورفع جرير بصره مستيقظاً من أحلامه ونظر إلى صورته بالمرآة وارتعد . فقد بدت أذناه وقد زادتا طولا إذ قصرت السيدة سوالفه . وأخذت السيدة السؤال ثانية : «دهان للتلميع ؟» .

وتذكر جرير أملاح القونس ذات رائحة البنفسج ، فقال : «ما رائحته» ؟

وتناول إناء الدهان وشممه . وكانت رائحته عطنة . وفكر : إنه قديم قدم الانتصارات التي ولت منذ زمن بعيد . ثم نظر إلى شعره ووجد خصلاته التي لم تقصر تقصيراً شديداً . واقفة منتصبة . فقال : «حسن بعض الدهان . ولكن قليلاً جداً» .

ودفع الحساب وعاد إلى الخائط فتمتم الكالنجارو : «حضرت قبل الموعد !» . فلم يعارض جريبر . بل جلس يتأمله وهو يكوى سرواله . وحمله الهواء الدافيء على النعاس . . . وابتعد عنه شبح الحرب وطن الذباب حوله متكاسلا وسمع «طش» حديد المكواة . وأحس في هذا المكان الضيق بطمأنينة وأمان لم يعهدهما من زمن طويل .

— هذا كل ما استطعت عمله . . . وأمسك الخائط بالسروال أمام جريبر . وكانت البقعة قد زال معظمها . فقال : «عظيم !» وفاحت من السروال رائحة البنزين . إلا أن جريبر لم يعلق على هذا بشيء . بل ارتدى ملابسه بسرعة .

وسأله الخائط : «من قص لك شعرك ؟» .

— سيدة يعمل زوجها جندياً في الميدان .

— يبدو وكأنك أنت الذي قمت بقصه . قف ساكناً لحظة ! .

وأزال له الكالنجارو بعض الخصلات النافرة . وقال : «هذا حسن الآن» .

— كم تريد ؟

ولوح الخائط بيده قائلاً : «ألف مارك أولا شيء . لا شيء . فهذا هدية الزواج» .

— شكراً ! أتعرف محلاً لبيع الورود ؟

— نعم في شارع شابيشر شتراسه .

* * *

كان المحل مفتوحاً وبه سيدتان تساومان البائعة لتخفيض سعر باقة من فروع أشجار التنوب . فقالت البائعة : «هذا تنوب أصلي وغالي السعر» .

فنظرت إليها إحداهما باحتقار وقد ارتعشت وجنتاها المتغضنتان المتهدلتان . وقالت : «هذا نهب ! نهب ! نهب ! تعالي يا مينا ! سنجد باقات أرخص في دكاكين أخرى» .

وقالت البائعة متعالية : «أتركاها وسأبيعها حالا وبسهولة» .

— بهذه الأسعار ؟ .

— نعم . بهذه الأسعار فليس لدي ما يكفي طلب الزبائن . وأنا أفرغ يا سيدتي من بضاعتي كل ليلة .

— إذن فأنت تستغلين فرصة الحرب .

وخطت السيدتان إلى الخارج مندفعتين . وتنهدت البائعة بقوة وكأنها تريد أن تشيعهما بجملة . . . ثم استدارت إلى جريبر وقد اكتسى خداها فجأة بحمرة الغضب وقالت : «وأنت يا سيدي ماذا ترغب ؟

صغيرة أم شيئاً للنعش ؟ إن الدكان كما ترى ليس كبيراً إلا أن لدينا مجموعة رائعة من أشجار التنوب » .

— لا أريد شيئاً للجنازات .

فسألت البائعة مندهشة : « وماذا تريد إذن ؟ » .

— زهوراً .

— زهوراً ؟ لدى زهور « الليلى » . . .

— لا أريد الليلى . . . بل زهوراً تصلح للزواج . . .

— الليلى مناسب جداً للزواج يا سيدى ، فهو رمز البراءة والعذرية .

— هذا صحيح ، ولكن أليس لديك ورود ؟ .

— ورود ؟ وفى هذا الوقت ؟ من أين لنا بها ؟ إن بيوت الأزهار تزرع الخضر . ومن العسير أن تحصل الآن على شىء منها .

ودار جرينر حول المنضدة التى وضعت عليها الأزهار ، ولمح خلف صغيرة صغيرة ، حزمة من أزهار النرجس مرتبة على شكل صليب معقوف ، فقال :

— أعطنى هذه ؟ .

— وتناولت البائعة الزهور ونفضت عنها الماء ، وقالت : « مضطرة أن ألف لك الزهور فى ورق الصحف إذ ليس لدى ورق » .

— لا بأس .

ودفع جرينر الثمن وخرج وأحس بعدم الراحة وهو يحمل الزهور فى يده ، إذ خيل إليه أن كل إنسان يحملق فيه . كان يحملها أولا والزهور متجهة إلى أسفل ، إلا أنه ضمها تحت ذراعه . وفى هذه الأثناء وقعت عينه على ما هو مكتوب فى الصحيفة وشاهد صورة إنسان مفتوح الفم . . عرف فيه رئيس محكمة الشعب . وقرأ المقال المكتوب وتبين منه أن أربعة أعدموا لعدم إيمانهم بانتصار ألمانيا ، وتم إعدامهم بقطع رءوسهم بالفؤوس فقد ألغى تنفيذ حكم الإعدام بالمقصلة منذ زمن طويل ، لأنها أداة إنسانية أكثر من اللازم . فسحق الصحيفة بيده وألقاها بعيداً .

• • •

كان الموظف على حق . فقد كانت الإدارة المدنية فى ملاعب مدرسة المدينة . وجلس موظف التوثيق أمام صفوف من حبال التسلق ثبتت أطرافها فى الحائط . وعلقت وسط الحبال صورة هتلر فى الزى العسكرى . وأسفل الصورة كان الصليب المعقوف ذو النسر الألمانى . واضطر الاثنان إلى الانتظار : إذ كان أمامهما جندى فى منتصف العمر وبجانبه سيدة علقت على صدرها حلية ذهبية على هيئة مركب شراعى . وكان الرجل عصبياً ، بينما كانت السيدة هادئة . وابتسمت السيدة لإليزابيث وكأنهما عضوان فى هيئة محلفين .

وقال موظف التوثيق : « شاهدا الزواج ؟ أين شاهدا الزواج ؟ » .

وتلعثم الرجل فلم يكن معه شهود . ثم قال : « ظننت زواج الجنود لا يحتاج إلى شهود » .

— لو صح هذا لهان الأمر . ولكن هنا يسود النظام .

والتفت الجندى إلى جرير وقال : « ربما أمكنك معاونتى أيها الزميل أنت والآنسة . نحتاج إلى توقيعكما فقط » .

— طبعاً . . . وتوقعان أنّا أيضاً على أوراقنا ، فقد ظننت أنا كذلك أننا لسنا بحاجة إلى شهود .

— ومن يفكر فى مثل هذه الأمور !

وقال الموظف بشكل قاطع : « كل من يعرف واجبه كمواطن ! » ويبدا أنه فهم هذه الجملة على أنها إهانة موجهة إليه . ثم أضاف : « أتذهبون إلى الميدان بلا سلاح ؟ » .

وحملق الجندى فيه وقال : « هذا موضوع آخر فليس الشاهد سلاحاً » .

— لم أقل هذا . كان مجرد تشبيه . والآن ماذا نفعل . هل وجدتم الشهود ؟

فقال الجندى : « زميل هذا . والسيدة » .

ونظر المسجل إلى جرير متشككاً ، إذ لم يعجبه أن ينتهى الأمر بهذه البساطة . وسأل جرير وكله أمل : « أتديك بطاقة إثبات شخصية ؟ » .

— نعم فنحن كذلك نريد الزواج .

وتمتم الموظف ثم أخذ الأوراق وسجل اسمى جرير «اليزابيث ف السجل ، وقال : « وقعا هنا ! » .

ووقع العروسان ، ثم الشاهدان . فقال للجندى وزوجته ببرود ثلجى : « أهنئكما باسم الزعيم هتلر ! » ، ثم التفت إلى جرير قائلا : « وأين شاهدا كما » .

فأشار جرير للجندى وزوجته وقال : « ها هما ! » ؟

فهز الموظف رأسه ، وقال : « يمكننى أن أقبل واحداً منهما » .

— لم ؟ لقد قبلت شهادتنا نحن الاثنين .

— كنتما أعزبين ، أما هذان فقد تزوجا ونحن بحاجة لاثنين مستقلين من الشهود . والسيدة المتزوجة لا تصلح شاهدة ثانية ما دام زوجها يشهد .

ولم يدر جرير أكلام الموظف صحيح أم أنه يريد أن يضع العراقيل أمامهما . فسأل :

— ألا يوجد هنا من يستطيع أن يشهد ؟ موظف آخر مثلا ؟

فقال موظف التوثيق بلهجة خفيفة متصرة : « ليست مهمتى البحث عن شهود . ولن تتمكنا من الزواج إن لم يكن معكما شاهدان .

وتلفت جرير حوله ثم سمع رجلا يقول : « ماذا تريدان ؟ » وكان

الرجل فى منتصف العمر . أقبل واستمع إلى كل ما جرى . ألنا بحاجة إلى شاهد زواج ؟ عدانى شاهداً ! » .

ووقف بجانب إليزابيث فتفحصه موظف التوثيق بيرود وقال : « ألديك بطاقة إثبات الشخصية ؟ » .

— طبعاً . « وأخرج الرجل جواز سفره مرتاحاً . ثم ألقاه على المنضدة فقرأه الموظف ، ثم نهض صائحاً : « يحيا هتلر ! مرحباً بسيادة القائد الأعلى لقوات العاصفة ! » .

وأجاب القائد الأعلى بمرح : « يحيا هتلر . والآن لا تحاول أن تخلق مشاكل أخرى . مفهوم ! ماذا جرى لك حتى تسلك مع الجنود هذا المسلك ؟ ! » .

— سمعاً وطاعة يا سيادة القائد الأعلى . تكرم ووقع هنا ! .

ورأى جرير أن القائد الأعلى هيلدا برانت قد أصبح الشاهد الثانى فى وثيقة زواجه . أما الأول فكان الجندى كلوتس . وصافح هيلدا برانت إليزابيث وجرير وكلوتس وزوجه . وأحضر موظف التوثيق من خلف حبال التسلق التى بدت كحبال المشنقة ، نسختين من كتاب « كفاحى » لهتلر . وقال الموظف بحرارة :

— هدية من إدارة المدينة . ثم حملق فى ظهر هيلدا برانت وهو يغادر المكان . وقال : « كيف يتسنى لى أن أعرف شخصيته وهو بالزى المدنى ؟ » .

* * *

وسار الأربعة مارين بحصان القفز الجلدى والأدوات الرياضية واتجهوا إلى الخارج . فسأل جرير الجندى : « متى تعود إلى الميدان » .

فقال كلوتس ضاغطاً على أسنانه : « غداً ، ودت أن أفعل هذا من زمن طويل ، لم أترك للدولة هذا المبلغ من المال ؟ لو أصابنى مكروه وجدت مارى ما يقيم أودها ، ألست توافقنى على ذلك ؟ » .

— بلى .

وفتح كلوتس حقيبة الميدان وقال : « لقد عاونتنى يا زميل . ومعى هنا نوع ممتاز من « السجق » فبالهناء والشفاء ! لا تتحدث فأنا فلاح ولدى ما يكفى ، وقد أردت أن أهديه إلى موظف التوثيق ، تصور أن أهديه إلى هذا الملعون ! .

وأخذ جرير (السجق) ، وقال : « لن ينال منه شيئاً . إليك هذا الكتاب فاقبله هدية للزواج إذ ليس لدى ما يصلح لأن أقدمه سواه » .

— ولكنى يا زميل أخذت مثله الآن .

— لا بأس ، ستكون لديك نسختان : واحدة لك والأخرى لزوجتك .

فتأمل كلوتس نسخة (كفاحى) وكانت مجلداً من جزء واحد ، فقال : ألا تريد حقاً أن تحتفظ بها ؟ .

— لدى نسخة أخرى فى مسكنى مفضضة ومغلفة بالجلد .

— هذا أمر آخر . شكراً ولك تهنئتى وأطيب أمانى ! .

— وتهنئتى أنا أيضاً وأطيب أمانى لكما ! .

* * *

ولحق جريير بإليزابيث وقال لها : « لم أخبر القوقس بينديج كى لا يكون شاهد زواجنا . وما أردت أن يكون بجانب اسمينا اسم رئيس المدينة . فرزقنا باسم القائد الأعلى لقوات العاصفة » .

وضحكت إليزابيث وقالت : « وقد استبدلت إنجيل التاربة بصنف ممتاز من (السجق) ، وهكذا تعادل الموقف » .

وعبر الاثنان ميدان السوق ووجدا التمثال الذى لم يعد يظهر منه غير قدمى بسمارك ووقوف الحمام فوق كنيسة مارى . فنظر جريبر إلى إليزابيث ، ثم فكر :

— توقعت أن أكون سعيداً ، إلا أننى لا أحس بما كنت أتوقع ؟ .

ووقف الاثنان فى أحد ممرات الغابة الواقعة خارج المدينة . ورأيا شيئاً بفضياً تعلق بجذوع الأشجار . وعلى حافة الغابة نمت زهور البنفسج ، (وحنك السبع) . ثم هبت ريح خفيفة فنهضت إليزابيث فجأة وقالت : « ما هذا الشىء هنا ؟ أهى غابة مسحورة أم أننى أحلم ؟ الأوراق المفضضة تملأ الأشجار . أترى أنت أيضاً مثل ما أرى ؟ » .

فأومأ جريبر : « إنها تبدو كشرائط عيد الميلاد المفضضة » .

— ولكن ما حقيقة هذا الأمر ؟ .

— إنها رقائق من القصدير أو الألومنيوم على هيئة شرائح وشرائط رقيقة تشبه الورق المفضض الذى تلف به قطع الشكولاته » .

— نعم . الغابة مليئة به . من أين أتى هذا ؟ .

— تلقى الطائرات لفافات منه فوق الأشجار كى تؤثر على الاتصال اللاسلكى ولا يستطيع الإنسان أن يعرف على وجه اليقين مكانها . هذه الأشرطة تقطع الموجات الإذاعية أو تؤثر عليها خاصة عند ما تهتز هكذا ببطء فى الهواء .

فقالت إليزابيث : « خسارة ! فالغابة تبدو مليئة بأشجار عيد الميلاد وقد ظننت أننا ابتعدنا عن الحرب فإذا بالحرب تواجهنا فى كل مكان .

ونظر إلى الأشرطة الفضية . وكانت أشجار الممر مليئة بها . فقد تساقطت على الأفرع ، واهتزت فى الريح فتلألأت ودارت حول نفسها وتخللت أشعة الشمس كل السحب المتراكمة وحولتها إلى أسطورة لامعة . فما ألقته الطائرات على الأشجار وهى تجلب الموت الزؤام . والدمار الرهيب . قد أصبح الآن معلقاً لامعاً صافياً . كان فضة وبريقاً وذكريات من أقاصيص الطفولة وأعياد السلام .

واستندت إليزابيث إلى جريبر وقالت : « فلنعتبره كما يبدو لنا ، لا كما هو فى الواقع » .

فقال جريبر وهو يجذب كتاب إيقاف من جيبه : « حسن ! » لا يمكننا

الآن القيام برحلة شهر العسل ، ولكن بولان أعطانا هذا الكتاب وهو مليء بالصور عن سويسرا . وسنذهب إلى هناك بعد الحرب ونرى كل شيء .

— سويسرا ! أهي البلد التي ما زالت مضاءة بالليل ؟ .

وفتح جرير الكتاب وقال : « لم تعد مضاءة . وقد سمعت هذا في الكتاب ، إذ فرضنا عليها الإظلام وخضعت سويسرا لما فرضنا » .

— ولم ؟ .

— لم نكن نعترض على الإضاءة عندما كنا دون غيرنا نحلق في أجوائها . أما الآن فهناك آخرون يعبرونها حاملين القنابل ومتجهين نحونا . وإضاءة أية مدينة من شأنها أن ترشد الطيار . هذا هو السبب .

— إذن فقد انتهى عهدها بالإضاءة ؟ .

— نعم ، ولكنا عند ما نزور سويسرا ستكون الحرب قد انتهت وسنتعرف عليها كما هي في هذه الصور . ولكننا لو تصفحنا كتاباً مصوراً عن إيطاليا أو فرنسا أو إنجلترا ، فلن نتمكن من هذا .

— وعن ألمانيا أيضاً .

وقلبا صفحات الكتاب فقالت إليزابيث : « جبال ! ألا يوجد في سويسرا غير الجبال ؟ ألا يوجد هناك دفء ؟ أليس لديهم جنوب ؟ » .

— بلى ، ها هي سويسرا الإيطالية .

— لو سرن — ألم يعقد هناك مؤتمر كبير للسلام ؟ مؤتمر قرر فيه أنه لا ضرورة للحرب ؟ .

— أظن ذلك .

— ولم يدم هذا طويلا .

— لا . هذه لوسرن . تأمليها ! تخيل وكنائس قديمة . وهنا (لاجوماجيوره) . وهنا جزائر وزهور الأقحوان (والست المستحية) (الميموزا) والشمس والسلام .

— نعم . وما اسم هذا المكان ؟ .

— بورتو رونكو .

فقالت إليزابيث وهي تعاود الرقاد ثانية : حسن سنسجل هذا ، ونذهب إلى مشاهدته فيما بعد إذ لا أريد الآن أن أرحل .

* * *

وأغلق جرير الكتاب ، ونظر إلى أعلى نحو الأشرطة الفضية وهي تهتز على الأشجار ولف ذراعه حول كتف إليزابيث فأحس بها . . . وفجأة بدت أرض الغابة المغطاة بالحشائش ، ثم النباتات المتسلقة ، وزهرة حمراء ذات أوراق رقيقة صغيرة أخذت تكبر وتكبر حتى ملأت الجو وأغمض عينيه . وسكن الريح وهبط الظلام سريعاً . وسمع جرير دوياً من بعيد فظن في نعاسه أنه المدافع المضادة للطائرات . ولكن من أين أتى الصوت ؟ أين أنا وأين الجبهة ؟ وزالت عنه همومه عند ما

أحس بإليزابيث بجواره . ولكن أين مواقع المدافع المضادة للطائرات هنا ؟ لا بد أنه تدريب على إطلاق المدافع .

وتحركت إليزابيث وتمتمت : « أين هم ؟ هل يلقون قنابل أم يواصلون الطيران ؟ » .

— إنها ليست طائرات .

وقع الدوى مرة ثالثة فاعتدل جريير وأنصت : « إنها ليست قنابل ولا مدافع ولا حتى طائرات يا إليزابيث . بل إنها العاصفة » .

— أليس الوقت مبكراً بالنسبة للعاصفة ؟ .

— العاصفة لا تعرف قانوناً .

وشاهد الاثنان لمعان البرق الأول وبدا صناعياً باهتاً إلى جانب عواصف البشر . ولم يعد الرعد يماثل دوى أسراب الطائرات . هذا فضلا عن القنابل .

وانهمر المطر فعبرا الممر إلى أشجار التنوب . وسارت معهما ظلالهما . وأصبح صوت سقوط الأمطار على قمم الأشجار كتصفيق التحية والإعجاب صادراً عن جماعة كبيرة بعيدة . وفي الضوء الخافت رأى جريير أن شعر إليزابيث قد امتلأ بالخيوط الفضية التي تدلت من أغصان الأشجار . وكانت كشبكة تصطاد البريق .

* * *

وخرجا من الغابة فوجدا محطة ترام مسقوفة تجمع تحتها عدد من

الناس ، وقف بينهم اثنان من النازى ، في سن الشباب حدقا في إليزابيث .

وكف المطر بعد نصف ساعة فقال جريير : « لم أعد أدرى أين أنا ، ولا إلى أى اتجاه نسير » .

— إلى اليمين ! .

فعبرا الشارع واتجها بعض الشيء ، ووجدا أمامهما صفاً طويلا من الناس ، قد انصرفوا إلى توصيل الأنابيب ويرتدون زياً موحداً مقلماً . فاتجهت إليزابيث فجأة منحرفة عن الشارع إلى حيث يعملون . ومرت متباطئة بالقرب منهم وهى تنظر إلى كل منهم وكأنها تبحث عن إنسان . ولاحظ جريير أن الناس يعملون أزواجاً على أرديتهم . . . فلا بد أنهم مساجين من معسكرات التعذيب ، وكانوا يعملون بسرعة صامتين دون أن يرفعوا أبصارهم . وكانت رءوسهم كجماجم الموتى وحللهم متهدلة على أجسامهم النحيلة . وسقط اثنان منهم من الإعياء فرقدا أمام عربة معدة لشرب الماء عاملة بحواجز . . . .

وصاح أحد رجال النازى بإليزابيث : « هيه ، أنت هناك ، ممنوع الاقتراب من هنا ! » .

وتظاهرت إليزابيث بعدم السمع وحدت السير وتصفحت وجوه المساجين الميتة .

— عودى ! هيه أيتها السيدة . عودى حالا ! يا لعنة ألا تسمعين ! .

واتجه إليها رجل النازى شاتماً فسأل جريبر : « ماذا جرى ؟ » .

— ماذا جرى ؟ هل انسدت آذانكما بالتراب ؟ أم ماذا جرى ؟

وشاهد جريبر رجلاً ثانياً من رجال النازى يقترب ، وكان قائداً للفصيلة . ولم يتحسر جريبر على مناداة إليزابيث لتعود ، إذ عرف أنها لن تعود . فقال لرجل النازى : « نحن نبحث عن شىء » .

— تبحث عن ماذا ؟ تكلم بسرعة ! .

— لقد فقدنا شيئاً هنا ، مشبكاً للصدر على هيئة مركب شراعى به فصوص من البرلانت . وكنا أمس نسير فى هذا الطريق فلا بد أننا فقدناه هنا ، أوقع بصرك على شىء كهذا .

— ماذا ؟ .

وأعاد جريبر أكذوبته ورأى أن إليزابيث جاوزت نصف عدد الرجال فقال قائد الفصيلة :

— لم نجد شيئاً .

وقال رجل الحزب : « إنه يخدعنا . ألديك أوراق إثبات الشخصية ؟ »

ورمقه جريبر لحظة فى صمت وود لو قتله . ولم يكن رجل النازى يجاوز العشرين عاماً . ففكر جريبر فى شتاين برنر وهاينى . تفحص الصنف : ثم قال : « لدى أوراق إثبات الشخصية ، بل لدى ما هو أحسن من هذه » . ثم قال : « إن القائد الأعلى لرجال العاصفة هيلدا برانت صديق حميم لى إذ كان هذا يهمكم » .

وضحك رجل الحزب ساخراً : « أهناك صديق آخر ؟ ربما الزعيم هتلر أيضاً ؟ أليس كذلك ؟ » .

« ليس الزعيم » ، وكانت إليزابيث قد قاربت الانتهاء من تفحص الصف . فأخرج جريبر قسيمة الزواج ببطء وقال : « هيا تعال معى تحت المصباح . أتستطيع القراءة ؟ ! هذه إمضاء شاهدى الزواج ، وهذا هو التاريخ . إنه اليوم كما ترى . ألديك أسئلة أخرى ؟ » .

وحملق رجل الحزب فى الأوراق ، ونظر قائد الفصيلة إليها من فوق كتفه ، وأكد قائلا : « إنها إمضاء هيلدا برانت فأنا أعرفه . ولكنك مع ذلك ممنوع من المرور هنا . وليس بوسعنا أن نفعل شيئاً . يؤسفنى ضياع المشبك » .

وكانت إليزابيث قد اقتربت . فأجاب جريبر : « وأنا أيضاً . طبعاً لن نستمر فى البحث ما دام هذا ممنوعاً . فالأوامر يجب أن تطاع » .

وحث جريبر السير ليلحق بإليزابيث إلا أن قائد الفصيلة لازمه ، وقال : « ربما وجدنا مشبك الصدر فأين نرسله ؟ » .

— إلى هيلدا برانت . فهذا أسهل طريق .

فقال قائد الفصيلة باحترام : « حسن » ثم سأل إليزابيث : « هل وجدت شيئاً ؟ » .

فحملقت فيه وكأنها استيقظت لتوها . فقال جريبر بسرعة : أخبرت القائد بقصة مشبك الصدر الذى ضاع منا هنا وإن عثروا عليه أرسلوه إلى

هيلدا برات . فأجابت إليزابيث مندهشة : « شكراً » .

ونظر قائد الفصيلة في وجهها ثم أومأ : « يمكنك أن تعتمدى على ! فنحن فرسان في فرقة العاصفة » .

وألقت إليزابيث نظرة على المسجونين . ولاحظ قائد الفصيلة هذه النظرة . فقال بشهامة : « لو كانت مع خنزير من هؤلاء فستجدها أيضاً . سنستجوبهم عن الحلية حتى يسقطوا موتى » .

وتراجعت إليزابيث قائلة : « لست متأكدة من فقدها هنا ، ربما فقدتها في الغابة هناك . وربما قبل ذلك » .

فابتسم قائد الفصيلة ابتسامة ساخرة احمر لها وجهها . وأعادت قولها : « ربما فقدتها في الغابة ؟ ! » .

وزادت حدة الابتسامة على وجه قائد الفصيلة وقال : « لسنا مسئولين عن تلك المنطقة » .

ووقف جريبر بجانب جمجمة أحد المساجين الذين انحنوا يعملون ، ووضع يده في جيبه وسحب علبة سجائر وتركها تسقط بجوار السجين أثناء حديثه مع الضابط . ثم قال للضابط : « شكراً جزيلاً ، سنواصل البحث في الغابة ، فربما عثرنا على المشبك » .

— عفواً ، يحيا هتلر ! وأتمنى لكما بالزواج ! .

— شكراً .

الفصل العشرون

بدأت الغارة الجوية بعد الظهر . وكان اليوم معتدل الحرارة خانقاً مليئاً بالرطوبة ، وتكاثفت السحب المنخفضة . وألقت القنابل من وراء السحب فأشعلت نيراناً متأججة تدفع بلهيبها إلى أعلى ، كأنها تبغى أن تجذب ذلك العدو المتخفى وأسلحته إلى أسفل ، لتلقيه في لهيب النار والدمار .

وحلت ساعة الراحة التي تتخلل العمل ، ويتناول العاملون فيها وجبة الغداء . فازدحمت الشوارع . وقاده مراقب الغارات إلى أقرب مخبأ ، وظن جريبر للوهلة الأولى أنه مجرد إنذار ، إلا أنه تدافع بين الناس عندما سمع الانفجارات الأولى . واختلط بالكتل البشرية السائرة إلى أن وجد نفسه داخل المخبأ . ولكن عندما فتح باب المخبأ ثانية لدخول مجموعة أخرى وجد نفسه يقفز فجأة ، فصاح به مراقب الغارات من الخارج : « عد ثانية ! ممنوع البقاء في الخارج إلا لمراقب الغارات ؟ ! » .

— « إنى مراقب غارات » . ثم جرى في اتجاه المصنع وهو لا يدرى إن كان سيلحق بإليزابيث . وقد سيطرت عليه فكرة أن المصانع هي الهدف الأول للغارات ، فأراد على الأقل أن يحاول إنقاذها .

وانعطف سائراً في طريق آخر ، وفي نهاية الطريق ارتفع أمامه أحد

المنازل ببطء ثم تناثر فى الهواء قطعاً تباعدت عن بعضها ، وسقطت ، وقد تاه ضجيج السقوط وسط الزئير الملعون . فرقد فى مجرى من مجارى الأمطار وقد ضغط بيديه على أذنيه . وبينما هو كذلك احتواه الهواء المتولد من قنبلة ثانية وأمسك به وكأنه يد عملاق ، ثم ألقاه إلى الخلف بضعة أمتار . والأحجار تنهمر حوله كالمطر . ولم يتبين لسقوط الأحجار أى صوت ، وسط هذا الضجيج . فنهض وهز رأسه بشدة ، ثم شد أذنه وضرب جبهته كى يفيق .

وفى لحظة ، تحول الشارع أمامه إلى بحر من النيران لا يستطيع اقتحامه ولا العودة . واندفع الناس فى اتجاهه مفتوحى الأفواه ، وقد ارتسم الرعب فى عيونهم . كانوا يصيحون ولا يسمعهم أحد ، كأسراب الحمام الأصم جروا مارين بجرير . يتبعهم رجل ذو ساق خشبية يحمل ساعة بها عصفور يعلن الوقت بتغريده ، وقد أثقلته الساعة فأصبح يجرها خلفه ، وقد تبعه أحد كلاب الرعى مطأطئاً . وفى ركن أحد المنازل شاهد طفلة فى الخامسة تمسك بطفل رضيع وتضمه بشدة إليها فتوقف جرير وصاح بها : « اذهبى إلى أقرب مخبأ ! أين والدك ؟ لم تركتك تقفين هكذا ؟ » .

ولم ترفع الفتاة رأسها بل بقيت حافضة الرأس ملتصقة بالحائط .

وفجأة رأى جرير مراقب الغارات يصيح به دون صوت ،

فصاح جرير هو الآخر إلا أنه لم يسمع صوته . وواصل مراقب الغارات الصياح وأشار إليه جرير بيديه وأرشده إلى الطفلين . واستمر الحديث بالإشارات . وأمسك مراقب الغارات الطفلين بيده ، وحاول أن يوقفه باليد الأخرى ، إلا أن جرير هرب منه .

وأحس جرير لحظة بزوال وزنه ، وأن بإمكانه أن يقفز قفزات رهيبة ، وتلا إحساسه هذا إحساس آخر بأنه كتلة من الرصاص الذين ، وأن مطارق عملاقة تتوالى عليه وتسويه بالأرض .

ولمح فوقه صواناً مفتوح الأبواب محلقاً كطائر ضخم من طيور ما قبل التاريخ ، وقد أمسكت به دوامة من الهواء وأدارته حول نفسه .

تفجرت النيران من الأرض . وعم السماء لون أصفر كريه اشتعل ، فأصبح بياضاً ساطعاً ، ثم دوى فأصبح سحباً متفجرة . وتنفس جرير النيران فأحس برئتيه تحترقان . وانهار ضاغطاً رأسه بين ذراعيه ممسكاً بأنفاسه إلى أن كادت رأسه أن تنفجر ، ثم نظر إلى أعلى وشاهد من خلال الدموع وتيران الحرائق ، صورة مهزوزة بدأت تدريجياً تتضح وتستقر ، شاهد حائطاً يتناثر منهاراً على سلم ، وفرق السلم ، على إحدى درجاته جسم الطفلة ذات السنوات الخمس ، بردائها الأسكتلندى الممزق المرفوع ، وقد بدت ساقاها متباعدتين عاريتين ، وامتدت ذراعاها إلى الأمام على هيئة صليب . أما صدرها فقد اخترقته قطعة حديد ، من حاجز السلم تقدمت حتى أطلت بطرفها الغليظ من الظهر . وإلى جانب

القناة مراقب الغارات دون رأس ، وقد تكوّر جسده ، كأنه ملىء بالمفاصل كجسد أحد الثعابين . التفت ساقاه فوق كتفيه ولم يسل من دمه إلا القليل .

لم ير الطفل . لابد أن العاصفة النارية قد أطاحت به إلى مكان ما . هذه العاصفة التى عادت الآن حاوية ملتهبة تدفع ألسنة النيران أمامها . وسمع جريبر أحدهم يصرخ بجانبه صائحاً : « خنازير !! خنازير !! خنازير ملعونة !! » .

فحملق فى السماء ، ثم التفت حوله ، وتحقق أنه هو نفسه الذى كان يصيح . فقفز واقفاً وحث السير . وصل إلى الميدان دون أن يدرى كيف فعل هذا . وشاهد المصنع بجانب الميدان سليماً لم يمس . هذا حفرة حديثة أحدثتها قنبلة فى الجانب الأيمن . أما المبانى الرمادية غير المرتفعة فقد ظلت كما هى . وأوقفه مراقب الغارات فى منطقة المصنع . فصاح جريبر :

— دعنى أدخل ! فزوجتى هنا .

— الدخول ممنوع . والمخبأ المجاور على الجانب الآخر . هناك فى آخر الميدان .

— يا للعنة ! أكل شىء فى هذا البلد ممنوع ؟ أليس هناك شىء غير ممنوع !! ابتعد وإلا .

وأشار مراقب المخابئ إلى الفناء الخلفى حيث يقوم بيت مستو صغير

مشيد بالأسمنت المسلح ، وقال : « مدافع ثقيلة وحارس . إنه عسكرى ملعون مثلك . فادخل أيها المهرج إن أردت ! » .

لم يكن جريبر بحاجة إلى إيضاح أكثر من ذلك . فالمدافع تسيطر على الفناء . وقال غاضباً : « حارس ! لم ؟ أتحرسوا أنفسكم أولا ! ألديكم مجرمون هنا ؟ أى شىء فى مصانعكم العسكرية يستدعى الحراسة ؟ . . . . . » .

وأجاب الآخر باحتقار : « أكثر مما تظن ! نحن لا نقتصر على المعاطف العسكرية . ولدينا غير السيدات العاملات . عمال آخرون ، فالمئات من معتقلى معسكرات التعذيب يعملون هنا فى مصنع الذخيرة . أفهمت يا ثور ؟ » .

— نعم ، وكيف حال المخابئ هنا ؟

— وما شأنى أنا بالمخابئ ! مكانى بالخارج . ترى ماذا حدث لزوجتى بالمدينة ؟ .

— هل المخابئ هنا آمنة ؟

— طبعاً ، فالدولة بحاجة إلى العمال من أجل المصنع . . . والآن هيا اغرب . فممنوع أن يقف إنسان بالخارج !! وقد لاحظ أولئك وقوفك . وهم متشددون فى مسائل التخريب ! ؟ .

توقفت الانفجارات الثقيلة بينما استمرت طلقات المدافع المضادة للطائرات .

وعاد جرير وعبر الميدان من الجانب . إلا أنه لم يصل إلى المخبأ . بل استقر فى الحفرة التى صنعتها القنبلة فى نهاية الميدان ، وكادت رائحة البارود أن تخنقه . فزحف إلى حافة الحفرة ، وبقى راقداً ينظر إلى المصنع . وفكر : هنا حرب أخرى . ففى الجبهة يهتم كل إنسان بنفسه ، وأقصى شىء ، أن يكون له أخ فى نفس الفرقة . أما هنا فلكل واحد أسرة ولا يقتصر الأمر عليه وحده . بل لا يصوب إليه وحده وإنما لكل إنسان . إنها حرب مضاعفة ، بل ثلاثة أضعاف . لا بل عشرة أضعاف ، وفكر فى جثة الطفلة ذات الخمس السنوات ، ثم فى الباقين ، فى كل من رآهم ولا يمكن حصرهم . ثم فكر فى إليزابيث ووالديه وأحس بامتعاض الكراهية نحو الذين سببوا كل هذا . الكراهية التى لا تقف عند حدود بلده ، والكراهية التى لا شأن لها بالفهم أو العدالة .

وبدأت السماء تمطر والهمرت القطرات كسيول من الدموع القضية عبر الهواء المليء برائحة الحرائق . هذا الهواء الذى انتهك . وتناثر رذاذ الأمطار بعد اصطدامها بالأرض ثم صبغت الأرض بلون . ولكن . . . .

وجاء السرب الثانى من قاذفات القنابل .

أحس جرير وكأن صدره تمزق . وازداد دوى الانفجار إلى درجة رهيبة ، ثم ارتفع جزء من المصنع فى الهواء . أسود الدخان أمام الضوء

الوهاج المنبثق كالموجة ، متناثراً وكأن عملاقاً تحت الأرض يعبث بلعبة يقذفها إلى أعلى .

وحملق جرير فى النافذة التى طارت فى الهواء بيضاء وصفراء وخضراء ثم جرى عائداً إلى المصنع فصاح به مراقب الغارات : ماذا تريد ثانية ؟ ألا ترى أنهم بدأوا يضربوننا بالقنابل ؟ . .

— نعم . ولكن أين ؟ فى أى قسم ؟ فى قسم المعاطف ؟ .

— معاطف ؟ ؟ كلام فارغ ! قسم المعاطف فى الخلف .

— أهذا أكيد ؟ زوجتى .

— أخ ! اذهب أنت وزوجتك فى داهية ؟ كلهن فى المخبأ . هنا مجموعة من الحرجى والقتلى ، هيا دعنى ! .

— قتلى وجرحى ؟ كيف يحدث هذا والجميع فى المخبأ ؟ .

— إنهم الآخرون يا رجل ، معتقلو معسكرات التعذيب ، لم يكونوا بالمخبأ ، هذا طبيعى ! ! أم تظن أن الدولة تبنى لهم مخبأ خاصاً بهم ؟ .

وقال جرير : « لا ، لا أظن هذا » .

— عدت أخيراً إلى عقلك . والآن دعنى ! فأنت كجندى قديم يجب ألا تفقد أعصابك هكذا . ومع هذا فقد انتهى الآن كل شىء وربما إلى الأبد .

ونظر جرير بسرعة إلى أعلى . ولم يكن غير دوى المدافع فقال : « استمع

إلىّ أيها الزميل ! أريد شيئاً واحداً فقط ! أريد أن أعرف إن كان مصنع المعاطف لم يصب . دعنى أدخل أو اسأل أنت . ألست متزوجاً ؟ » .

— طبعاً وقد أخبرتك بذلك . أتعنى أننى لست قلقاً على زوجتى ؟

— إذن اسأل فتسلم زوجتك من كل سوء ! » .

ونظر حارس الخندق إلى جريير هازاً رأسه : « أنت تعرف يا رجل ، أم تظن نفسك الله سبحانه وتعالى ؟ » .

وذهب مراقب الغارات إلى مبناه . ثم عاد وقال : « اتصلت تليفونياً وقسم المعاطف لم يمس . إذ سقطت القنابل على الإخوان الذين قدموا من معسكرات التعذيب وأصيبوا كلهم . والآن هيا أغرب عن وجهى ! منذ متى تزوجت ؟ » .

— منذ خمسة أيام .

فابتسم مراقب الغارات ساخراً : « لم لم تقل لى هذا فوراً ؟ هذا أمر آخر » . وعاد جريير وفكر : أردت أن أحصل على شئ يحفظنى ويؤكد وجودى ولم أدر أن وجوده سيضاعف آلامى .

* * *

وانتهت الغارة الجوية وامتلأت المدينة برائحة البارود والموت كما امتلأت بالنيران الخضراء والصفراء والبيضاء . ونيران ذات ألسنة تزحف كالثعبان على الأنقاض المنهارة . ونيران ثالثة تتصاعد من السقوف متجهة نحو السماء . ونيران رابعة ممتلئة حناناً ورقة . تتصاعد أمام واجهات المنازل

التى ما زالت باقية ، وتقترب منها خجلة . ثم تحتضنها بحذر . ونيران تقتحم نوافذ المنازل بقوة . وكانت هناك العواصف النارية والحوائط النارية . كان هناك موتى وحرقى وجرحى . ناس اشتعلت أجسامهم فاندفعوا صائحين صارخين خارج المنازل يعدون بجنون فى دائرة حتى يسقطوا فيزحفوا ويموتوا بألم . ولا يحنون من ذلك غير الإعياء والانهيار . وقد هبت من أجسامهم رائحة اللحم المحروق .

وصاح واحد ممن يقف بجوار جريير : « أعمدة اللهب . . . . يحترقون أحياء ، ولا يمكن إنقاذهم . فهذا الشيء الملعون الذى يتناثر من القنابل الحارقة يصيبهم ويحرق كل شئ فيهم : الجلد واللحم والعظام .

— ولم لا يمكن إطفاؤهم ؟ » .

— يتطلب هذا جهاز إطفاء لكل واحد منهم . ولا أدرى مدى جدوى هذا . فهذه المادة الجهنمية تنتشر وتهلك كل شئ . ثم هذا الصراخ ؟ .

— كان الواجب قتلهم بالرصاص ما دام من المستحيل إنقاذهم .

— حاول ! كى تشنق كقاتل . حاول أن تطلق النار على واحد منهم وهم يدورون هكذا كالمجانين ! والمؤلم فى الموضوع أنهم يجرون . وهذا يجعلهم أعمدة لهب . . . ثم الريح . . . هل تفهم ؟ ! إن عدوهم يجلب الريح التى تساعد على إشعال النار فيتحولون فى لحظة واحدة إلى شعلة نيران .

ونظر جريير إلى الرجل وكان يرتدى خوذة بان منها محجرا عينيه وفمه الذى خلا من الأسنان تقريباً وقال : « أتعنى أن عليهم أن يظلوا واقفين ؟ ! » .

— هذا أفضل من الناحية النظرية . إما أن يقفوا أو أن يحاولوا إطفاء النار بأغطية أو ما شابه ذلك . ولكن من تتوفر له فى هذه اللحظة أغطية ؟ بل من يفكر أن هذا سيحدث له ؟ أو من يظل واقفاً وهو يحترق ؟ .

— لا أحد . ولكن ما هو عملك ؟ مراقب غارات ؟ .

— كلام فارغ . أنا من فرقة نقل الجثث . وأنقل الجرحى طبعاً ، إن وجدت واحداً منهم . ها هى عربتنا قادمة . أخيراً .

ورأى جريير عربة قادمة تكر بين الأنقاض ، يجرها حصان أبيض ، وصاح الذى كان يحادثه : « انتظر يا جوستاف ، لا تتقدم . ستنقل هؤلاء . ألديك نقالات ؟ » .

— اثنان فقط .

وتبع جريير الرجل فرأى خلف أحد الحوائط عدداً من الموتى . وفكر : إنها المجزرة . لا فالمجزر أكثر نظاماً إذ فيه تذبح الحيوانات حسب قوانين وقواعد ، فتصفى دماؤها ثم تنتزع أحشاؤها . أما هنا فالناس مقطعة إرباً ، ممزقة ومتناثرة ، ملسوعة ومشوية ، وخرق الثياب ملتصقة بأجسامهم . فهنا كم سترة صوفية وذاك رداء منقط ، وهنا سروال ذو رجل واحدة مصنوع من القماش البنى ، وهذه حمالة صدر ، تعلق بأشرطتها لدى دام

أسود اللون . وبجوار هذا كوخ ملىء بأطفال موتى اختلط بعضهم ببعض إذ كانوا فى مخبأ واحد وانهار المخبأ عليهم لأنه غير متين البناء . ثم هذه السيقان والأيدى والرءوس التى وطئتها الأقدام . ومع ذلك فلا يزال عليها بعض الشعر . والسيقان ملتوية . . . . وسط كل هذا حقيبة مدرسية وسلة بها قط ميت ، وولد شاحب أبيض ، مات بدون جروح وتمدد . وكأن الروح ما زالت تتردد بين جنبيه لتبعث من جديد . وأمام الولد جثة أخرى سوداء احترقت دون أن تتفحم ، احترقت بشكل منتظم متساو ، عدا القدم التى ظلت حمراء اللون ممتلئة بالالتهابات وقد ضاعت معالم الجثة . فلم يعد فى طاقة إنسان أن يعرف إن كان رجلا أم سيدة بعد أن احترقت الأعضاء التناسلية والصدر وزالت تماماً . ولكن لمع وسط هذا السواد خاتم ذهبى . ما زال فى مكانه فى الأصبع الأسود المتقلص .

وقال أحدهم : « العينان ! ما كنت أظن أنهما تحترقان أيضاً » . ورفعت الجثث . فصاحت سيدة تعدو خلف النقالات : « ليندا ! ليندا ! ليندا ! » . ثم بانت الشمس ، ولمعت الشوارع المبتلة بقطرات المطر ، وكذلك الأشجار التى لم تحترق ، فقد ازدهى لونها الأخضر الفاتح . وكانت أشعة الشمس بعد المطر منعشة وقوية . وقال صوت خلف جريبر : « لن يذهب كل هذا عبثاً » . والتفت جريبر فرأى سيدة ترتدى قبعة حمراء صارخة اللون وتحملق فى الأطفال : « أبداً ! لن

يلعب عبثاً لا فى الحياة الدنيا ولا فى الآخرة » .

ووصلت فرقة إزالة الأنقاض وأصدرت أمرها : هيا تفرقوا ! لا تتجمهروا هكذا ! تفرقوا ! إلى الأمام ! .

سار جريبر وهو يفكر . ما هو هذا الشىء الذى لن يلعب عبثاً ؟ بعد هذه الحرب ستذهب أشياء كثيرة عبثاً ، كثيرة بشكل مروّع ، ولن تلعب أمور أخرى عبثاً ، وحياة واحدة لا تكفى لهذا . . . لقد رأى كثيراً من الأطفال فى حالة أسوأ بكثير مما يرى الآن . رآهم فى كل مكان ، فى فرنسا وهولندة وبولندة وأفريقيا وروسيا . وكان لجميع هؤلاء أمهات يبكين فلذات أكبادهن . . . فالأمر غير مقصور على الألمان . ولكن لم يفكر الآن هكذا ؟ ! ألم يتوجه من ساعة واحدة إلى السماء صارخاً وصائحاً بالطائرات . خنازير ! خنازير ملعونة ! .

ولم يصب منزل إليزابيث بالقنابل . وإن كانت قنبلة حارقة قد سقطت على المنزل المجاور لمنزلها . وأثارت الريح اللهب فاشتعلت سقوف المنازل الثلاثة .

ووقف حارس البيت فى الشارع فسأله جريبر لم لا يطفئ أحد هذه النيران ؟ .

فأشار الحارس إلى المدينة كلها . ولكن جريبر أعاد السؤال : لم لا يطفئ أحد هذه النيران ؟ ألا يوجد ماء ؟ .

— بلى ، يوجد الماء ولكنه صعب الاندفاع ، لا يرتفع إلى أعلى فهو

ينساب فقط ، ولا يمكن الوصول إلى النيران . وسينهار السقف فى أية لحظة .

وامتلأ الشارع بالحقائب والمقاعد الوثيرة ، ثم قفلة فى قفص من أقفاص العصافير ، ولوحات مرسومة وربطات مليئة بالثياب ، وألقى الناس من نوافذ الطابق الأرضى بأشياء ملفوفة فى بطاطين ، وبوسادات مربوطة ، وقد غطى العرق وجوههم وسيطر الذعر عليهم . وجرى آخرون على السلم صاعدين هابطين وسأل جريبر حارس المنزل : « أتظن أن النيران ستأتى عليه كله ؟ » .

— جائز ، خاصة إذا لم تحضر فرق المطافئ فوراً . وحمداً لله أن ليس هناك ريح . وقد فتحنا كل الصنابير وأنزلنا كل ما هو قابل للاشتعال ليس فى الإمكان أكثر من ذلك . أين السيجار الذى وعدتنى به ؟ كان بإمكانى إشعال واحد منه الآن .

فقال جريبر : « غداً . . . بالتأكيد غداً » .

ثم نظر إلى أعلى حيث مسكن إليزابيث . لم يكن معرضاً بشكل مباشر للحريق فما زالت فوقه طوابق غير مشتعلة . ورأى فى النافذة المجاورة لغرفة إليزابيث ، السيدة ليزر تسير بسرعة رائحة غادية ، وتحاول إخراج صوان ربما احتوى على فراشين .

وقال جريبر : « سأحترم أنا الآخر أمتعتى : ولن أخسر شيئاً فى حالة عدم احتراق المسكن » .

فأجاب الحارس : « إطلاقا » .

واصطدم جرير بساقه وهو يصعد السلم ، برجل يهرول حاملا حقيبة ثقيلة وكمامة ، واعتذر الرجل بأدب ولكن فى الفراغ قائلا : « عفواً ! » ثم واصل هرولته .

— كان باب المسكن مفتوحًا ، والمدخل مليئًا بالربطات . ومرت السيدة ليزر بجرير مسرعة تعض شفتيها والدموع تسيل من عينيها فدخل جرير غرفة إليزابيث وأغلق الباب خلفه .

* * *

وجلس فى مقعد بجوار النافذة ، ثم تلفت حوله ، فقد أحس سلامًا لا مثيل له بسود الغرفة . جلس لحظة هادئًا دون أن يفكر فى شىء ، ثم بحث عن الحقائب ووجد حقيبتين تحت الفراش وأخذ يفكر : ماذا يضع فى الحقيبة ؟ .

بدأ بملابس إليزابيث فأخذ من الصوان بعض الملابس التى رأى أنها مفيدة وعملية . ثم فتح الأدراج وأخذ الملابس الداخلية والجوارب ووضع حزمة من الخطابات بين الأحذية . ووصل إلى سمعه فى هذه الأثناء صياح ونداءات من الخارج ، فنظر ولم يجد فرق المطافئ ، بل كانوا أناسًا يحملون أمتعتهم ويخرجون بها ، ثم شاهد سيدة ترتدى معطف فراء جالسة على مقعد أحمر أمام واجهة المنزل المنهار محتضنة حقيبة صغيرة وممسكة بها بقوة ، وفكر : ربما كانت تحتوى على حليها ، فبدأ يبحث عن حلى

إليزابيث . ووجد فى الأدراج بعض قطع الحلى الصغيرة وأساور رقيقة من الذهب ودبوسًا قديمًا به أحجار (الأماتيست) ثمينة . ولم ينس جرير الرداء الذهبى . وأحس وهو يلمس ثياب إليزابيث بشىء من الحنان ، مشوب بخجل طفيف ، إذ أنه يقوم بأمر لم يسمح له به .

ووضع صورة والد إليزابيث فوق الأمتعة الموجودة فى الحقيبة الثانية وأغلقها ، ثم جلس على المقعد ثانية . وتلفت حوله مستشعراً السلام العجيب المحيط به فى هذه الغرفة . وخطر بباله بعد لحظة أن عليه أن يأخذ الفراش فلف الأغطية والوسائد والمفارش الكتانية ، وربطها بنفس الطريقة التى شاهد السيدة ليزر تربط بها ، وبينما هو يلف بهذه الربطة لمح حقيبة الميدان خلف الفراش وكان قد نسيها ، وعند ما أخرجها سقطت الخوذة الصلب على الأرض . وأحدثت صوتًا وكأن إنسانًا يطرق الأرض بشدة من أسفل ، فنظر إليها طويلا . ثم دفعها بقدمه نحو الأشياء الموجودة ؟ بجوار الباب ، وحملها جميعًا إلى أسفل .

كانت المنازل تحترق ببطء وتنهار . ولم تحضر فرق المطافئ ، فهى بضعة منازل سكنية لا أهمية لها بجانب المصانع المشتعلة التى هى أولى بالإطفاء ، زد على ذلك أن حيًا كاملا من المدينة يشتعل .

وأنقذ سكان المنازل كل ما استطاعوا إنقاذه من الأمتعة . ولكنهم الآن لا يدرون إلى أين يذهبون بها . فما من وسيلة لنقلها ، بل وما من سقف يحتمون به وقد أغلق الشارع بالحبال لمسافة كبيرة ، عازلا المنطقة

المحترقة عن الأخرى التي لم تحترق . فترا كمت الأمتعة على جانبي الحبال . ورأى جرير مقعداً فاخراً وأريكة جلدية ومقاعد وسرائر ومهد طفل . ونجحت أسرة في إنقاذ منضدة مطبخ . وأربعة مقاعد وجلس أفرادها حول المنضدة . بينما احتلت أسرة أخرى ركناً وحجزته لنفسها مانعة دخول الآخرين وكأنه ملك خاص بها . أما حارس المنزل فقد رقد على مقعد طويل تركي الطراز وغفا . وجلست السيدة ليزو على فراشها واضعة ابنتها في حجرها ، وقد أسندت صورة هتلر الكبيرة على حائط أحد المنازل .

وأنزل جرير مقعداً كبيراً مريحاً من غرفة إليزابيث ، وجلس عليه واضعاً الحقائب وحقيبة الميدان وكل أمتعته حوله . وحاول أن يحفظ الأمتعة بأحد المنازل غير المشتعلة . وطرق من أجل ذلك بابين : إلا أن أحداً لم يفتح له رغم أنه شاهد خلف النوافذ وجوهاً تتحرك . ولم يسمح له بالدخول في منازل أخرى لأنها امتلأت بالأمتعة . . . وفي آخر منزل صاحت به سيدة : « وقد يعجبك المكان هنا طبعاً فتبقى إلى الأبد . . . أليس كذلك ؟ » فعدل عن ذلك . . . وعندما عاد إلى أمتعته تبين له أن إحدى اللفافات المحتوية على بعض المأكولات والخبز قد سرقت . ثم شاهد بعد ذلك الأسرة الجالسة حول المنضدة تأكل شيئاً تحاول أن تخفيه . إذ كان أفرادها يلوكون الخبز في أفواههم . وقد أداروا وجوههم . ولكن ربما كانوا يمضغون طعاماً خاصاً بهم ولا يريدون أن يقسموا منه شيئاً لأحد .

وفجأة لمح إليزابيث وقد اخترقت الحواجز ووقفت في مكان مكشوف تنعكس عليها أضواء النيران فقفز جرير صائحاً : « إليزابيث ، ها أنا » فاستدارت ، ولم تره في الحو . كانت واقفة أمامه والنيران تضيء شعرها بينما تبقى جسمها معتماً . فصاح جرير ثانية ملوحاً : « هنا ! هأنذا ! » فجرت إليه : « أنت ! الحمد لله » .

واحتواها بقوة وقال : « لم أتمكن من الذهاب إلى المصنع لإحضارك إذ وجب عليّ أن أحرس هذه الأمتعة » .

— ظننت أنك أصبت .

— ولم ؟ .

وزادت سرعة أنفاسها وهي على صدره فقال مندهشاً : « يا للعنة ، لم يخطر هذا ببالي أبداً ، كنت فقط قلقاً عليك » .

فنظرت إلى أعلى وقالت : « وماذا جرى هنا ؟ » .

— احترق المنزل من السطح .

— وأنت بخير ؟ كنت قلقة عليك .

— وأنا أيضاً كنت قلقاً عليك ، اجلسي هنا واستريحي ! .

كانت تتنفس بسرعة ، ورأى جرير في جانب الشارع ، وعاء مليئاً بالماء إلى جواره كوب ، فذهب نحوه وملأ الكوب وأعطاه لإليزابيث :

— هيا اشربي شيئاً ! .

فصاحت به سيدة : هيه يا هذا ، إنه ماؤنا ! .

وأكل صبي في الثانية عشرة يرتدي رداء صيف : « والكوب كوبنا » .

فقال جرير : « اشرق الكوب كله ! » ، ثم التفت إليهم : « وهذا الهواء أهو هواؤكم أيضاً ؟ » .

فقالت إليزابيث : « أعد لهم ماءهم وكوبهم . أوصب الوعاء كله فوق رءوسهم فهذا أفضل » .

فأمسك جرير بالكوب وقربه من فمها وقال : لا ، بل اشربيها . هل جربت ؟ .

— نعم ، طول الطريق .

وعاد جرير إلى وعاء الماء . وكانت السيدة التي صاحت به ، أحد أفراد الأسرة الجالسة حول المنضدة ، فملأ الكوب ثانية من الوعاء وشربها ثم وضعها كما كانت . ولم يقل أحد شيئاً . ولكن عند ما سار جرير عائداً ، جرى الصبي وأخذ الكوب ووضعها على المنضدة . واستيقظ حارس المنزل وتأهب ، ثم قال للجالسين حول المنضدة : « عصابة خنازير » ، ثم رقد ثانية ونفذا .

انهار سقف المنزل الأول .

وقال جرير : « هذه هي الأمتعة التي حزمتها لك ، كلها تقريباً ملابس وصورة الوالد وفراشك أيضاً ، وأستطيع الآن إحضار بعض قطع الأثاث ، فما زال أمامنا بعض الوقت .

— ابق ودعها تحترق ؟ .

— لم ؟ ما زال أمامنا بعض الوقت ؟ .

— دعها تحترق فينتهي كل شيء ؟ هذا صواب .

— وما هذا الذي ينتهي ؟ .

— الماضي ، إذ لا يمكننا أن نبدأ به حياتنا فهو يثقلنا ، حتى الأشياء الغالية فيه تثقلنا . ويجب أن نبدأ من جديد فقد أفلس الماضي ، وليس بإمكاننا العودة إلى الوراء .

— بإمكانك أن تبيعي الأثاث .

« هنا ؟ » ، ونظرت إليزابيث حولها : « لا يمكننا أن نقيم مزاداً في الشارع انظر هذا ؟ أثاث كثير ومساكن قليلة ، وسيظل الأمر هكذا طويلا » ، وبدأ المطر يتساقط ثانية قطرات كبيرة دافئة . وفتحت السيدة ليزر شمسية بينما ليست سيدة أخرى قبعة جديدة مزدانة بالورد ، كانت قد تمكنت من إنقاذها ، ثم خلعتها ثانية ووضعتها تحت ثيابها . واستيقظ حارس المنزل ثانية وعطس . وظهر هتلر في صورة السيدة ليزر بعد تعرضها للأمطار وكأنه يبكي . وأخرج جرير معطفه وجزءاً من الخيمة من حقيبة الميدان ، ووضع المعطف حول إليزابيث وبسط الخيمة فوق الفراش ثم قال :

— علينا أن نبحث عن مكان نبيت فيه .

— ربما أطفأت الأمطار النيران ، ولكن أين يبيت هؤلاء الناس الموجودون هنا ؟ .

— لا أدرى ، يبدو أن إدارة المدينة قد نسيت أمر هذا الشارع .

— بإمكاننا أن نبيت هنا ، بهذا الفراش والمعطف والخيمة .

— أيمكنك ذلك ؟ .

— أظن أن الإنسان المتعب يستطيع النوم فى أى مكان .

— لدى ينابيع منزل وغرفة خالية ، ألا تريدين الذهاب هناك ؟ .

وهزت إليزابيث رأسها رافضة .

فقال جريبر : « ما زال أمامنا بولان ، فى صومعته مكان نبيت فيه ولقد سألته ذلك منذ بضعة أيام . . . أما الملاجئ العامة لمبيت أمثالنا ، فقد امتلأت دون شك ، هذا إن كانت الملاجئ ما زالت موجودة » .

— نستطيع الانتظار بعض الوقت ، فطابقنا لم يحترق بعد .

وجلست إليزابيث متلفعة بالمعطف العسكرى ، والأمطار تساقط ، إلا أنها لم تكن حزينة ، وقالت : « وددت لو كان معنا شىء نشربه ، لست أعنى ماء » .

— لدينا بعض الخمر ، إذ وجدت خلف المكتب ، أثناء حزم الأمتعة ، زجاجة فودكا لا بد أننا كنا قد نسيناها .

وفك جريبر الفراش ، وكان قد أخفى الزجاجة بين الحشايا ، مما ساعد على إفلاتها من يد اللص الذى سرق الأطعمة . وأخرج كوباً كذلك وقال :

« ها هى ، وعلينا أن نشرب بحذر كى لا يلحظنا الآخرون وإلا أرشدت هذه السيدة ليزر بتهمة السخرية من المصائب القومية » .

— إذا أراد إنسان ألا يلحظه الآخرون ، فعليه أن يتصرف بغير حذر . وقد تعلمت هذا . . ثم أخذت الكوب وشربت وقالت : مدهش ، هذا ما كنت بحاجة إليه ، وكأننا فى مقهى فى الهواء الطلق ، ألديك سجائر أيضاً ؟ .

— أحضرت كل ما كان لدينا منها .

— حسن ، إذن لدينا ما نحتاج إليه ؟ .

— ألا نحضر بعض قطع الأثاث ؟ .

— لن يتركوك تصعد ، كما أنه ليس فى وسعنا أن نفيد منها ، أو أن نجرها معنا حيث نبيت الليلة .

— يقوم أحدنا بحراستها بينما يبحث الآخر عن مأوى .

وهزت إليزابيث رأسها وجرعت بقية كوبها حتى آخرها .

انهار سطح منزلنا فوق الحوائط التى احترقت ، ثم انهار الطابق العلوى ودمدم الدوى فى الشارع . وتناثر الشرر من النوافذ . وأمسكت النيران بالستائر والتهمتها ، وقال جريبر : ما زال الطابق الذى تقطنه موجوداً .

وأجاب رجل خلفه : « لن يبقى هذا طويلاً » .

فالتفت إليه جريبر : « ولم لا ؟ » .

— لن تكون حالك أحسن من حالنا ! لقد عشت فى الطابق العلوى ثلاثة وعشرين عاماً أيها الشاب . وها هو ذا الآن يحترق فلم لا يحترق طابقكم ؟ ! .

ونظر جرير إلى الرجل وكان نحيفاً أصلع ، وقال : « ظننت أن الأمر مجرد صدفة وليست أخلاقاً » .

— بل هى العدالة ، إن كنت تعرف معناها ! .

وابتسم جرير ساخراً ، وقال : « ليس تماماً ، ولكن ما ذنبى ، لو كنت تؤمن بهذا ، ستكون حياتك صعبة . هل أصب لك كأساً من الفودكا ؟ فهى على أية حال أفضل من الإحساس بالمهانة » .

— شكراً ، احتفظ بخمرك ، فستحتاجه عند ما ينهار مسكنك .

وأعاد جرير الزجاجة قائلا : « أتراهن على أن هذا لن يحدث ؟ » .

— ماذا ؟ .

— أسألك إن كنت تريد الرهان ؟ .

وضحكت إليزابيث ، وحملق الأصلع فى الاثنين : أيها الغبى المتظرف ؟ أتريد الرهان حقاً ؟ وأنت تضحكين لهذا يا آنسة ؟ . حقاً لقد جاوز الأمر حده .

فقال جرير : « لم لا نضحك ؟ أفضل من البكاء ، لا سيما وأن كليهما لا يجديان » .

— وجب أن تصل ! .

وانهار حائط الطابق العلوى إلى الداخل ، وحطم أرضية الطابق الذى يعلو مسكن إليزابيث .

وانخرطت السيدة ليزر فى بكاء متشنج . ووضعت الأسرة الجالسة حول المنضدة إناء القهوة على موقد كحول ، بينما فرشت السيدة الجالسة على المقعد الوثير صحفاً فوق مساند المقعد لتحميه من المطر ، ويكى الطفل فى المهد .

فقال جرير : ها هو ذا مسكننا الذى عشنا فيه أسبوعين ينهار .

فقال الأصلع سعيداً : « عدالة ؟ » .

— لو راهنت لكسبت .

— لست مادياً أيها الشاب .

— ولم بكيت إذن عند ما انهار مسكنك ؟ ! .

— لأنه مسكنى وهذا أمر ليس باستطاعتك أن تفهمه .

— لا ، لا أفهم هذا ، فقد خلق منى الرابخ الثالث جوّالاً يقطع العالم .

— وجب أن تحمده لذلك .. وتحسس الأصلع فمه بيده ، ثم ابتلع ريقه ، وقال :

— على أى حال ، ليس هناك ما يمنعنى الآن من تناول كأس فودكا .

— لن تنال الآن فودكا ، فالأفضل أن تصل ! .

واشتعلت النار فى غرف السيدة ليزر وهمست إليزابيث : ها هو ذا المكتب يحترق ، مكتب الجاسوسية بكل ما يحتوى من أشياء .

— أرجو ذلك ، فقد صببت فوقه زجاجة بترول . والآن ماذا سنفعل ؟!

— نبحث عن مأوى ، وإن لم نجد نمنا فى أى مكان بالشارع . فى الشارع أو فى الحدائق .

ونظر جريبر إلى السماء وقال : لدى خيمتى تحمينا من الأمطار ، إلا أنها ليست كافية . ربما وجدنا مأوى . ولكن ماذا نصنع بالمقعد والمكتب ؟! .

— سنتركهما هنا ، فإن بقيا حتى الغد قررنا ماذا نفعل بهما .

* * *

وحمل جريبر حقيبة الميدان على كتفه والفراش على ظهره . بينما حملت إليزابيث الحقائب . فقال جريبر : أعطنى الحقائب فأنا معتاد على حمل الأشياء الثقيلة .

وانهارت الطوابق العليا للمنزلين الآخرين ، وسقطت قطع الخشب المحترق فى كل اتجاه . وأصوات السيدة ليزر وقفزت ، فقد طارت قطعة خشب مشتعلة عبر الشارع الفاصل بالحبال ، وصدمتها فى وجهها . وسقط السقف ، فقالت إليزابيث :

— نستطيع الآن أن نذهب . . « ونظر جريبر إلى النافذة وقال : « كانت أياماً طيبة » .

— بل كانت أحسن أيامنا . . . . هيا . . . لنذهب .

كان وجه إليزابيث قد احمر من وهج النيران . وسار الاثنان بين المقاعد . أما غالبية الناس فقد جلسوا صامتين مستسلمين . بينما احتفظ أحدهم إلى جواره بحزمة من الكتب ، وجلس يقرأ . فى حين جلس اثنان فى منتصف الممر على الأرض ملتصقين وقد نشرا معطفاً واقياً من الأمطار فوقهما ، وبدا الاثنان كفأرين من فئران الغيط ذى رأسين .

وقالت إليزابيث : « ما أهون أن ينفصل الإنسان عن شىء كان يظن حتى الأمس القريب أنه لا يطيق الانفصال عنه ! » .

والتفت جريبر مرة أخرى ورأى الصبى ذا الملابس الصيفية الذى أخذ الكوب ، جالساً فى مقعد وثير وقال : قمت بسرقة حافظة أوراق السيدة ليزر وهى مليئة بالأوراق ، وسألقى بها فى النار . ربما أنقذ هذا أحد الذين تتجسس عليهم .

وأومأت إليزابيث ولم تعد تلتفت حولها .

* * *

طرق جريبر الباب طويلاً وبقوة ولكن لم يفتح أحد . فعاد إلى إليزابيث قائلاً : « قد لا يكون بولمان بالمنزل أو لعله لا يريد أن يفتح لأحد » .

— ربما رحل عن الدار .

— وأين يقطن إذن إن لم يكن هنا ؟ ليس هناك مكان آخر . وقد لمسنا ذلك فى الساعات الثلاث الأخيرة . ليس هناك احتمال آخر . . .

وذهب جرير مرة أخرى إلى الباب : « لا ، لم يكن الحسنابو هنا ، وإلا ظهر المكان على غير هذه الهيئة ، ماذا نصنع ؟ أتريدين الذهاب إلى مخيأ ؟ » .

— لا ، ألا يمكننا أن نبقى فى أى مكان هنا ؟ .

ونظر جرير حوله باحثًا وكان الليل قد هبط . وانتصبت الأنقاض سوداء متعرجة أمام حمرة الشفق . فقال : « ها هو جزء من سقف غرفة ، والأرض تحته جافة ، وبوسعى أن أغلق المكان بالخيمة على جانب ، والمعطف على الجانب الآخر » .

وأخذ جرير « الطبنجة » وطرق بها السقف ، واحتمل السقف الطرقات ، وبحث فى الأنقاض فوجد قضيبين قام بغرسهما فى الأرض وعلق عليهما الخيمة ، قائلا : « هذا ستار ، ولو وضعنا المعطف على الجانب الآخر تصبح لدينا خيمة . ما رأيك ؟! » .

— هل أستطيع معاونتك ؟! .

— لا ، احرسى أمتعتنا ، يكفيك هذا ؟ .

ونظف جرير الأرض من الشظايا والأحجار ، ثم حمل الحقائب إلى الداخل ، وبسط الفراش ووضع حقيبة الميدان مكان الرأس لتكون وسادة وقال : لدينا الآن مأوى . وقد ألفت مثل هذه الحياة .. أما أنت فلا .

— حان الوقت كى أعتاد هذه الحياة وألفها .

وأخرج جرير معطف إليزابيث الواقى من المطر ، وموقد الكحول وزجاجة كحول ، وقال : « سرق منى الخير . ولكن ما زال لدينا بعض الأكل المحفوظ فى حقيبة الميدان » .

— ألدينا آنية طهى ؟ أى وعاء ؟ .

— لدى آنية الميدان ، وماء الأمطار موجود فى كل مكان . ولدينا كذلك بقية من الفودكا ، وأستطيع أن أصنع لك بالماء الساخن ، نوعًا من المزيج يقى من البرد .

— أفضل أن تعطينى الفودكا كما هى .

وأشعل جرير موقد الكحول فاستضاءت الخيمة بشعلته الزرقاء المائلة . ثم فتح علبة بازلاء محفوظة وأكلاها ساخنة مع بقية السجق الذى أعداه من كليوتس وقت عقد الزواج .

وسأل جرير : « هل ننتظر بولان أم ننام ؟ » :

— ننام لأنى متعبة .

— علينا أن ننام كما نحن بملابسنا . أيمكنك هذا ؟ » .

— أنا متعبة بما فيه الكفاية وسأنام هكذا .

وخلعت إليزابيث حذاءها ووضعته أمام حقيبة الميدان حتى لا يسرق .

ثم لفت الجورب وأخفته فى حقيبتها . وعطاها جرير وسأل :

— كيف الحال ؟ .

— كأننا فى فندق .

ورقد يحوارها وسألها : « ألست جزينة من أجل المسكن ؟ » .

— لا ، فقد توقعت هذا منذ الغارات الأولى . وكنت وفتها أحس بالأمى لهذا — والآن أعتبر ما مضى من وقت مكسبًا لى .

— هذا صحيح . ولكن أستطيع الإنسان أن يعيش بالوضوح الذى يفكر به ؟ . . .

وتمتمت وهى مستندة إلى كتفه : « لا أدرى . قد يحدث هذا إذا كان الإنسان بلا أمل . ولكن كل شىء تغير الآن » .

ونامت وهى تتنفس ببطء وهدوء . ورقد جرير فترة مستيقظًا ، وفكر : عندما كنت فى الميدان أتحدث مع زملائى عن الرغبات التى لم تحقق ، كانت هذه واحدة منها ، مأوى وفراش وزوجة وليلة هادئة .

الفصل الحادى والعشرون

واستيقظ وسمع دبيب أقدام حذرة فوق الشظايا والأنقاض ، فانزلق من تحت غطائه ، وتقلبت إليزابيث فى الفراش إلا أنها واصلت النوم فاسترق جرير النظر من خلف الخيمة ، إذ ربما كان هذا بولان عائداً إلى بيته ، أو لصوصًا ، بل جستابو ، فهم يأتون غالبًا فى هذا الوقت . وإذا كان هذا من الجستابو فلا بد من السعى إلى مقابلة بولان كى يحذره من العودة إلى بيته .

وشاهد شخصين فى الظلام أمامه ، وتبعهما بكل ما يستطيع من هدوء ، إذ لم يكن يرتدى حذاءه ، إلا أنه اصطدم بعد عدة أمتار ببقايا حائط متهدك . فانهار الحائط فوراً . وانكمش جرير على ذاته . وعاد أحد الشخصين وسأله : « من هناك ؟ » وكان هذا بولان .

توقف جرير وقال : « أنا ، أنا ياسيد بولان . أنا إرنست جرير » .

— جرير ؟ ماذا حدث ؟ .

— لا شىء . فقد دمرت القنابل مسكننا ، ولم أدر أين أذهب وظننت أنك تستطيع أن تأوينا ليلة أو ليلتين .

— آوى من ؟ .

— زوجتى وأنا ، فقد تزوجت منذ يومين .

— طبعاً ، طبعاً ، وأقبل بولان وقد لمع وجهه فى الظلام شاحباً : « هل حضرت لزيارتى ؟ » .

وتردد جرير للحظة ، ثم قال : « نعم » ولم يكن هناك داع للحذر بسبب وجود إليزابيث أو بسبب وجود الرجل الكامن دون صوت بين الأطلال . وأعاد قوله : « نعم يمكنك أن تثق فى » .

ومسح بولان على جبهته : « طبعاً ، هذا مؤكد » ووقف متردداً : « قد رأيت أننى لست بمفردى ؟ » .

— نعم .

وبدا أن بولان قد اتخذ قراراً : « تعال إذن . فنت ليلة ، ليس لدى مكان متسع . ولكن تعال أولا نبعد عن هنا » .

وذهبا إلى الناصية فقال بولان فى الظلام : « كل شىء على ما يرام » .

وخرج رجل من بين الأنقاض ، ففتح بولان الباب ، ودعا جرير والرجل للدخول ، ثم أغلق الباب من الداخل وسأل : « أين زوجتك ؟ » .

— نائمة بالخارج فقد أحضرنا معنا فراشنا وأقمنا ما يشبه الخيمة .

وظل جرير واقفاً فى الظلام : « على أن أخبرك بشىء ، خطر عليك أن يحدوك هنا » .

— أعلم هذا .

وتنحنح بولان : « خطر بسببى فأنا مشتبه فى ؟ » .

— هذا ما عنيته .

— وبالنسبة لزوجتك أيضاً ؟ .

— نعم : قالها جرير بعد لحظة .

ووقف الآخر خلف جرير ساكناً تماماً يستمع . وتقدم بولان فأشعل مصباحاً صغيراً بعد أن أغلق الباب ، وأنزل الستائر ، ثم قال : « ليس من الضرورى أن تذكر أسماء ، فالأحسن ألا يعرف الإنسان أسماء كى لا ينطقها . يكفى إرنست ويوسف » .

وبدا منهوكاً جداً . وكان يوسف فى الأربعين ذا وجه لحيل ، يهودياً هادئاً تماماً ، وابتسم لجرير ومسح غبار الجير عن ثيابه .

فقال بولان وهو يجلس : « ليس المكان آمناً هنا ، ومع ذلك يجب أن يبقى يوسف الليلة فقد زال المسكن الذى كان فيه أمس وغداً نتدبر الأمر أثناء النهار فلم يعد يا يوسف المكان آمناً . . . هذا السبب فقط » .

فأجاب يوسف : « أعرف هذا » وكان صوته عميقاً كما توقع جرير .

فسأل بولان : « وأنت يا إرنست ؟ أنا مشكوك فى أمرى . وأنت تعلم هذا . وإنك لتدرك دلالة وجودك عند شخص مشكوك فيه ، شخص يبحثون عنه ، وأن تتواجد عنده ليلا وفى هذه الساعة » .

— نعم .

— ولنفترض أنه لن يحدث شىء هذه الليلة . فالمدينة مرتبكة الآن

وإن كان هذا أمراً لا يمكن القطع به . أتريد المخاطرة ؟ .

وصمت جرير وتبادل كل من بولان ويوسف النظر ، فقال جرير : « ليس لدى ما أخاطر به فسأذهب فى ظرف أيام إلى الجبهة . ولكن الموقف يختلف بالنسبة لزوجتى إذ ستبقى هنا ، فلم أفكر بعد فى موضوعها » .

— لم أقل لك ذلك كى أبعدك عن هنا .

— أعرف هذا .

فسأله يوسف : « أيمكنك أن تدبر أمر نومك بالخارج ؟

— نعم فنحن قد أقمنا ما يقينا من الأمطار .

إذن ابق بالخارج ولا شأن لك بنا . وغداً هات أمتعتك مبكراً فهذا ما تحتاج إليه أصلاً . أليس كذلك ؟ ويمكنك أن تنقلها إلى كنيسة كاترينا فالقس هناك يسمح بذلك . وهو رجل محترم . صحيح أن جزءاً من الكنيسة قد دمر ، إلا أن دعامات الجزء الموجود أسفل الأرض ، ما زالت قائمة متينة . فأرسل أمتعتك إلى هناك ؛ وبذلك تتحرر منها طول النهار حتى تتمكن من البحث عن مأوى تبيت فيه .

وقال بولان : « إنه على حق يا جرير فهو يعرف هذه الأمور خيراً منا .

* * *

أحس جرير بموجة مفاجئة من الود لهذا الرجل العجوز المتعب

الذى ناداه الآن كما كان ينادبه من قبل باسمه الأول ، فأجاب : « وأنا أيضاً أعتقد هذا ، وآسف على ما سببته لكما من إزعاج » .

— تعال غداً مبكراً إن احتجت إلى شىء وأطرق طرقتين بطيئتين وطرقتين سريعتين ولا تكن طرقاتك عالية ، فأنا سأسمعها » .

— حسن شكراً .

* * *

وعاد جرير ووجد إليزابيث نائمة ، إلا أنها استيقظت نصف استيقاظة عند ما رقد فى فراشه ، ثم واصلت النوم .

استيقظت إليزابيث فى السادسة ، ومرت بهما عربة تقعقع فتمطت وقالت :

— نمت نوماً رائعاً ، أين نحن ؟

— فى ميدان بان .

— حسن وأين ستنام الليلة .

— ستتدبر فى هذا الأمر أثناء النهار .

وألقت بنفسها ثانية فى الفراش . وتسللت أشعة الصباح إلى الخيمة من المسافة الموجودة بين الخيمة والمعطف . وشقشقت العصافير ، فجذب المعطف جانباً ورأى السماء مضيئة صفراء . وقالت إليزابيث : « حياة الغجر . . . لو تأملت فيها لوجدتها حياة مليئة بالمغامرة » .

فقال جرير : « نعم ، دعينا نتأملها ، قابلت ليلة أمس بولان ،

وبإمكاننا أن نوقظه لو احتجنا لشيء » .

— لسنا بحاجة لأى شيء . أما زالت لدينا قهوة ؟ بإمكاننا أن نعد الطعام هنا ، أليس كذلك ؟ .

— إنه قطعاً ممنوع مثل أى شيء معقول . ولكن ماذا سيجرى لو فعلنا ؟ ألسنا عجزاً ؟ .

وبدأت إليزابيث تمشط شعرها ، فقال جريير : « خلف المنزل وعاء به مياه الأمطار الراكدة ، وهى كافية للاغتسال » .

وخلعت إليزابيث قميصها : « سأذهب إليه ، فهنا كالريف المياه من « الطلمبة » . . . كان الناس يصفون هذه الحياة بالشاعرية أليس كذلك ؟ » .

وضحك جريير : « وأنا ما زلت أسميها كذلك ، إن قارنتها بأوحال روسيا . والأمر على أية حال يتوقف على المقارنة » .

وحزم الفراش ثم أشعل الموقد الكحولى ، ووضع عليه «الغلاية» ملآى بالماء . وفجأة خطر بباله أنه قد نسى أن يحضر بطاقة التموين الخاصة بإليزابيث من الغرفة . وعادت إليزابيث من الاغتسال بوجه صبوح صغير فسألها : « ألديك بطاقة التموين ؟ » .

— لا ، فقد كانت بالمكتب المجاور للنافذة فى الدرج الصغير .

— يا للمصيبة . نسيت إحضارها . لم لم أفكر فى هذا ؟ فقد كان لدى الوقت الكافى .

— لقد فكرت فى أمور كثيرة أهم منها ، فكرت فى لوف الذهبى ، وسنتقدم الآن بطلب استخراج بطاقة جديدة . فكثيراً ما تحترق البطاقات .

— ربما استغرق هذا زمناً طويلا ، والموظف الألمانى غارق فى « الروتين » لايخرج منه حتى يوم القيامة .

فضحكت إليزابيث وقالت : « سأستأذن من المصنع ساعة وأذهب لاستخراجها . وسيعطينى حارس المنزل ما يثبت أن البيت قد دمرته القنابل » .

فسأل جريير : « أتريدين الذهاب اليوم إلى المصنع ؟ » .

— بل يجب ، فدمار المساكن أمر يحدث كل يوم .

— وددت لو احترق هذا المصنع الملعون .

— وأنا أيضاً ، ولكنهم سيرسلوننا فى هذه الحالة إلى مصنع آخر أسوأ منه ولا أريد أن أصنع ذخيرة .

— لم لا تهربين ، هكذا ببساطة ، فكيف يعلمون إن كان قد حدث لك أمس شيء ؟ أليس من الجائز أن تكونى قد أصبت وأنت تنقذين أمتعتك ؟ .

— علىّ فى هذه الحالة أن أثبت هذا . وللمصنع أطباء وشرطة إن عثروا على أحد يتلاعب عاقبوه ، إما بزيادة العمل أو بالحرمان من الإجازة . فإن لم يجد هذا لقّن برنامجاً فى التربية الشعبية بمعسكرات الاعتقال

لا يفكر العائد منه فى الهرب إطلاقاً .

وأخذت إليزابيث الماء الساخن وصبته فوق مجروش البن فى إناء القهوة ، وقالت : « لا تنس أنى حصلت من فترة وجيزة على ثلاثة أيام إجازة وليس بإمكانى أن أتقدم بأى مطلب أكثر من ذلك » .

وأدرك أنها تعتقد ذلك بسبب أبيها ، وكانت تأمل فى إنقاذه . فقد كان هذا الموضوع يلتف حول عنق كل إنسان . فقال : « هذه العصابة . ماذا جعلوا منا جميعاً ! ! » .

— خذ قهوتك ولا تغضب فليس لدينا الوقت لذلك .

— وهذا يا إليزابيث ما يزيد غضبى .

فأومأت : « أدرك هذا . أمامنا وقت قصير ومع ذلك فإن ما سنقضيه منه معاً قليل كذلك . وإجازتك تمضى وقد انقضى معظمها فى الانتظار . وكان على أن أكون أجرأ من هذا ، فلا أذهب إلى المصنع طول فترة وجودك هنا » .

— بل لديك الجرأة الكافية ، إلا أنه خير للإنسان أن ينتظر من ألا ينتظر شيئاً .

فقبلته وقالت : « ها قد تعلمت سريعاً كيف تجد الكلمات المناسبة . والآن يجب أن أذهب . أين نتقابل فى المساء ؟ » .

— نعم ، أين ؟ ليس لدينا مأوى . ويجب أن نبدأ من البداية . من مآخذك المصنع .

— وماذا لو حدثت غارة جوية ، أو إغلاق للشوارع ؟ .

ففكر جرير : « سأحزم الأمتعة ، وأذهب إلى كنيسة كاترين ولنجعل الكنيسة مكاناً ثانياً للتلاقى » .

— أهى مفتوحة ليلا ؟ .

— ولم ليلا ؟ إنك لا تعودين ليلا .

— لا أدرى فقد اضطررنا ذات مرة للبقاء باختباً ست ساعات . والأفضل أن يكون هناك شخص يتسنى لنا أن نترك له رسالة — هذا فى أسوأ الحالات . إذ أن أماكن الالتقاء لا تكفى .

— تعنين لو حدث لواحد منا أى شىء ؟ .

— نعم .

وطأطأ جرير رأسه ، فقد لمس مدى السهولة التى يفقد بها الإنسان أثر زميله ، ثم قال : بالنسبة لليوم نلتقى عند بولان . ولكن لا ، فهذا ليس مؤكداً ، ثم فكر بينديج . . . ، ثم قال فجأة . وكأنه قد انتهى من المشكلة : « عند بينديج ، فالمكان آمن وقد أريتك منزله ، وهو على أية حال لا يعرف أننا تزوجنا ، ولكن لا بأس . سأذهب إليه وأخبره بذلك » .

— أتذهب إليه لتسلبه طعامه مرة ثانية ؟ .

وضحك جرير : « لم أنو هذا حقاً ، ولكننا بحاجة لشىء نأكله . وهكذا يعود الإنسان ثانية إلى الانحلال » .

— أتنام هنا الليلة ؟ .

— أرجو ألا يحدث هذا . فأمامى النهار كله للبحث عن مكان .

وعبس وجهها للحظة ثم قالت : « نعم أمامك النهار كله ، أما أنا فيجب أن أذهب فوراً » .

— سأحزم الأمتعة بسرعة وأتركها لدى بولان ، ثم أصحبك إلى المصنع .

— ليس لدى وقت لهذا ، إذ يجب أن أسرع ، فإلى اللقاء مساء فى المصنع ، أو فى كنيسة كاثرين أو عند بيتدبج . يا لها من حياة ظريفة .

فقال جرير : « لتذهب هذه الحياة الظريفة إلى الجحيم » ، ونظر إليها وهى سائرة عبر الميدان . وكان الصباح مشرقاً والسماء صافية زرقاء داكنة ولمعت قطرات الماء كشبكة فضية فوق الأنقاض . . . استدارت له إليزابث ولوحت له ثم حثت الخطا .

* * *

وأحس جرير بحب لطريقة سيرها . فقد كانت تضع القدم أمام الأخرى تقريباً وكأنها تسير على خط مرسوم . وكان قد رأى وهو فى أفريقيا امرأة أفريقية تسير على هذا المنوال . . . ولوحت إليزابيث ثانية ، ثم اختفت فى نهاية الميدان بين المنازل .

* * *

الحال هنا كالحال فى الجبهة ، فالإنسان لا يدرى إن كان سيلتقى بالآخرين بعد أن يفارقهم . لتذهب هذه الحياة الظريفة إلى الجحيم .

وخرج بولان فى الثامنة وقال : « أردت أن أطمئن إن كان لديكما ما تأكلان . فلدى قطعة خبز يمكننى أن أعطيها لكما » .

— شكراً ، لدى ما يكفى ، أيمكننى أن أترك الفراش والحقائب هنا حتى أذهب إلى الكنيسة ؟ .

— طبعاً .

وحمل جرير أمتعته إلى الداخل ولم ير يوسف فقال بولان : « قد لا أكون هنا عند ما تعود ، فأطرق الباب طرقتين متباعدتين ، ثم طرقتين متعاقبتين وسيسمعك يوسف » .

وفتح جرير حقيبته وقال : « تبدو حياتنا كحياة الغجر ولم أكن أنتظر هذا .

فضحك بولان متعباً : « يعيش يوسف هذه الحياة منذ ثلاث سنوات قضى بضعة أشهر منها فى عربات الترام ، يركب الترام ويطوف به وينام وهو جالس لفترات متقطعة لا تزيد على ربع الساعة . وكان هذا فى وقت لم تكن فيه غارات جوية ، ولذا لم يعد هذا الآن ممكناً » .

وأخرج جرير علبة من علب اللحم المحفوظ من حقيبته وأعطاها لبولان قائلا :

— لا أحتاج لهذه العلبة فأعطها ليوسف .

— لم ؟ ألست محتاجاً إليها ؟ .

— لا ، أعطها له ، فمثله يجب أن يحيا ، وإلا ماذا يحدث عند ما ينتهى كل شىء ؟ بل ماذا يحدث فى المستقبل على الإطلاق ؟ هل يتبقى ما يكفى لأن نبدأ من جديد ؟ .

وصمت الرجل العجوز فترة ، ثم سار إلى أنموذج الكرة الأرضية الموجود فى ركن الغرفة وأدارة وسأل : « هل ترى هذا ؟ هذا الجزء الصغير من العالم الذى نسميه ألمانيا ويمكنك أن تغطيه بإبهامك . إنه جزء صغير جداً من عالمنا » .

— ربما ، ولكن من هذا الجزء الصغير استطعنا السيطرة على جزء كبير من العالم .

— نعم على جزء من العالم وسيطرنا عليه ، ولكن لم نقتنعه .

— لا ، ليس بعد ، ولكن ماذا يحدث لو استطعنا أن نحتفظ بكل هذا الجزء ؟ عشر سنوات أو عشرين أو خمسين . فالانتصار والنجاح لهما تأثير هائل فى الإقناع وقد لمسنا هذا فى بلادنا .

— لم ننتصر .

— ليس هذا دليلا .

— بل دليل ، ودليل عميق جداً » . وتابعت يد بولان ذات العروق الغليظة البارزة ، إدارة الكرة الأرضية : « إن العالم . . . العالم لا يقف ساكناً . ولو فقد الإنسان ثقته ببلده فعليه أن يثق بالعالم . فاحتجاب

الشمس أمر ممكن ، ولكن دوام الليل محال ، بل وليس له وجود على هذا الكوكب ، وعاينا ألا تأخذ الأمور بهذه البساطة ونفقد الأمل » . ثم دفع أنموذج الكرة الأرضية : « إنك سألتنى إن كان قد تبقى لنا شىء نبدأ به من جديد ، لقد بدأت الكنيسة بمجموعة من الصيادين ، بمجموعة من المؤمنين . وبضعة كهوف وبمن أفلت من حلقات مصارعة الأسود فى روما » .

— نعم وبدأ النازى بمجموعة من المتعصبين المتعطلين تجمعوا فى حانة من حانات البيرة فى ميونخ .

وابتسم بولان : « معك حق ، ولكن لم يوجد حكم دكتاتورى استطاع أن يعمر طويلا ، والإنسانية لم تتقدم على طريق ممهد ، وإنما كان طريقها مليئاً بالاندفاع إلى الأمام والتقهقر ، بالنكسات والانكماشات . كنا مغرورين جداً وظننا أننا تغلبنا على الماضى الدامى الأليم . ولكن ها نحن ندرك الآن أننا لا نجرؤ حتى على أن نلتفت خلفنا كى لا يدركنا هذا الماضى » . ثم أخذ قبعته : « يجب أن أذهب » .

فقال جرير : « ها هو ذا كتابك عن سويسرا قد بللته الأمطار وقد منى إلا أننى وجدته ثانية وأنقذته » .

« ما كنت بحاجة لإنقاذه ، فالإنسان ليس بحاجة إلى إنقاذ الأحلام » .

فقال جرير : « حقاً ؟ أهناك ما يستحق الإنقاذ غير الأحلام ؟ »

— الإيمان ، فالأحلام تتكون من جديد .

— أرجو ذلك وإلا شنق الإنسان نفسه .

فقال بولان : « يا لك من حدث صغير . . . ولكن ماذا أقول أنا ؟ فأنت ما زلت صغيراً جداً » . ثم ارتدى معطفه : « غريب ، فقد تخيلت الشباب دائماً فى صورة أخرى » .

وقال جرير : « وأنا أيضاً » .

* * *

كانت معلومات يوسف صادقة . فقد احتفظ الراهب بالأمتعة . وترك جرير حقيبة الميدان ، ثم ذهب إلى إدارة الإسكان . وكانت قد انتقلت إلى غرفة التاريخ الطبيعى فى إحدى المدارس . وكان بالغرفة حامل مصورات ، وصوان زجاجى ملىء بالمستحضرات الموضوعة فى الكحول ، كما كان الحال أيام الدراسة . واستخدمت الموظفة بضع كتوس كأثقال وضعتها فوق الورق كى لا يطير ، كما كان هناك ثعابين محنطة وسحالى وضفادع وكذلك سنجاب ذو عينين زجاجيتين ويمسك بثمار البندق بين مخالبه . وكانت الموظفة شخصية ظريفة فى منتصف العمر . فقالت له :

— سأسجل اسمك بين المحتاجين لمسكن . ألديك عنوان ثابت ؟ .

— لا .

— إذن عليك أن تمر من حين لآخر لتسأل .

— أهناك فائدة ترجى من هذا ؟ .

— ولا بارقة أمل واحدة ، فقبلك ستة آلاف سجلوا أسماءهم والأفضل أن تبحث بنفسك .

* * *

فعاد إلى ميدان بان ، وطرق باب بولان ، ولم يجب أحد . فانتظر لحظة ، ثم ذهب إلى شارع ماريان كى يستوثق من المنازل الباقية .

فوجد منزل إليزابيث قد احترق كله عدا مسكن حارس المنزل . والمطافئ قد وصلت إذ أغرق الماء كل شىء ، أما مسكن إليزابيث فلم يبق منه أثر . حتى المقعد الذى كان قد تركه بالخارج لم يجد له أثراً . ورأى زوجاً من القفازات فى مجرى مياه الأمطار . . . هذا كل شىء . وشاهد جرير حارس المنزل جالساً فى مسكنه . فتذكر أنه قد وعده بالسيجار . وبدا له ذلك وكأنه قد حدث منذ زمن طويل ولا داعى للوفاء بهذا الوعد . ولكن من يدرى ؟ فعزم على الذهاب إلى الفوتس ليحضر له بعض السيجار . وهو على أية حال بحاجة إلى بعض المأكولات للعشاء .

* * *

لم يصب من المنطقة كلها غير بيت بيندبج . فقد امتدت الحدائق آمنة فى ضوء الصباح . وحركت الريح فروع الأشجار وتلألأ النرجس الذهبى وازدهرت الأشجار وكأنها مغطاة بفراشات بيضاء وحمراء .

وسط كل هذا كان بيت يتداعى كومة من الأنقاض منهارة فوق حفرة كبيرة صنعتها قنبلة وتجمعت فيها مياه تعكس صورة السماء . ووقف جريير لحظة وحملق إلى أعلى وكأنه لا يصدق . ولم يكن يدرى السبب ، إذ أنه كان يفترض دائماً أن الفونس لا يمكن أن يصيبه مكروه . . . ثم تقدم ببطء وكان وعاء الماء المخصص للعصافير قد انكسر وتناثر . وتعلق باب البيت على فروع الأشجار . وظهرت قرون الغزلان بين الحشائش وكأن الغزلان ذاتها قد دفنت هناك . ورفرفت على الأغصان سجادة وكأنها أحد الأعلام المزخرفة لغاز بربرى . وانتصبت زجاجة نبيذ نابليون فى حوض الزهور وكأنها ثمرة « قرع » داكنة اللون انبثقت من نباتها هذه الليلة . . . فرفعها جريير وتفحصها ، ثم وضعها فى جيبه وفكر : قد يكون القبو سليماً لم يصب . والبيت خالياً بعد إخراج جثة الفونس . فدار حول البيت ، ورأى أن مدخل المطبخ ما زال قائماً ففتحه وتحرك شىء بالداخل فقال :

— السيدة كلايبرت ! .

وسمع نحيباً ، ونهضت السيدة وسط الغرفة التى انهار نصفها ، ثم خرجت إليه وقالت : « السيد المسكين ، لقد كان طيباً » .

— ماذا حدث ؟ هل جرح ؟ .

— بل مات يا سيد جريير ، وكان سيداً ظريفاً يحب الحياة .

— مات ؟ .

— نعم ، ولايمكن أن أصدق هذا ، أليس كذلك ؟

وأوما جريير ، فالموت لا يمكن أن يفهم، حتى لو شاهده الإنسان كثيراً ثم سأل : « كيف حدث هذا ؟ » .

— كان فى القبو ، إلا أن القبو انهار .

— القبو ضعيف لا يتحمل القنابل الثقيلة ، لم لم يذهب إلى المخبأ الكبير الموجود فى ميدان زايدل ؟ إنه لا يبعد عن هنا إلا بضع دقائق .

— « لم يكن قد حدث شىء بعد ثم . . . » وترددت السيدة كلايبرت : « كانت معه سيدة » .

— ماذا ؟ سيدة فى الظهر ؟ .

— كانت باقية من الأمس ولم تبرح ، سيدة شقراء طويلة ، وكان السيد يحب الشقراوات الطويلات ، وبينما كنت أعد دجاجة لتقديمها فى الغداء ، حدثت الغارة .

— هل ماتت السيدة ؟ .

— نعم ، ولم يكونا قد ارتديا ملابسهما ، فقد كان السيد يرتدى فى « بيجامته » بينما كانت السيدة فى قميص حريرى خفيف . وهكذا وجدهما الناس إذ لم أستطع أن أصنع شيئاً . أكان يجب أن يحدث هذا ، أيموت هكذا بدلا من أن يموت فى زيه العسكرى ! ! .

فقال جريير : « لا يعرف الإنسان أى ميتة أحسن ، طالما أنه مات » هل تناول غداءه ؟ .

— نعم وبشهية كبيرة ، وشرب النبيذ وأكل حلوه المفضل ، كعكة التفاح بالقشدة .

— انظرى . كان موتاً رائعاً يا سيدة كلابِرت . هكذا أود أن أموت ولا يجب أن تبكى أبداً ! .

— ولكن ما كان هذا أوان الموت .

— ليس للموت أوان حتى لو أتى بعد التسعين . متى سيدفن ؟ .

— بعد غد فى التاسعة وهو الآن يرقد فى نعشه ، أتريد أن تراه ؟ .

— أين هو ؟ .

— هنا فى قبو الأطعمة ، فالجو هنا بارد والنعش مغلق ، وهذا الجانب من المنزل لم يصب إصابة كبيرة كبقية المنزل ، على عكس الجزء الأمامى الذى أزيل تماماً من الوجود .

واخترق الاثنان المطبخ إلى القبو . وفى أحد الأركان تجمعت أكوام من الزجاج المكسور ، وفاحت رائحة نبيذ مسكوب ، وفواكه محفوظة مسكرة . وفى الوسط على الأرض استقر نعش من خشب الجوز البنى ، وعلى الحائط المقابل أكواب مكسورة ملقاة على الأرفف ومختلطة بالفواكه المطبوخة والمأكولات المحفوظة . وسأل جريبر :

— من أين حصلت على نعش بهذه السرعة ؟ .

— دبر له الحزب هذا النعش ؟ .

— وسيخرج موكب الجنازة من هنا ؟ .

— نعم ، بعد غد فى التاسعة .

— سأكون موجوداً ! .

— لا شك سيكون لذلك وقع سار على سيدى .

ونظر جريبر إلى السيدة كلابِرت فقالت : « فى العالم الآخر ، فقد كان شغوفاً بك » .

— ولم إذن ؟ .

— قال إنك الوحيد الذى لم يقصده لخدمة ، ثم لأنك كنت طول الوقت فى الحرب .

ووقف جريبر فترة أمام النعش . وأحس بأسى غير واضح ولا شىء أكثر من هذا ، فخجل من السيدة الباكية . إذ لم يستطع أن يشعر بأكثر من ذلك . ثم سألها وهو ينظر إلى الأرفف : « وماذا ستفعلين بكل هذه الأشياء ؟ » .

فدب النشاط فى السيدة وقالت : « خذ منها قدر ما تحتاج يا سيد جريبر فستأتى بعد ذلك أيام غريبة » .

— احتفظى بها لنفسك فقد طهيت معظم هذه المأكولات .

— أخذت لنفسى بعضاً منها ، ولست محتاجة لكل هذا ، خذ ما تريد يا سيد جريبر ! فقد اندهش رجال الحزب لكل هذا . وكان من الأفضل ألا يجدوا شيئاً . وإلا بدا الأمر وكأنه تخزين للمأكولات .

— هذا صحيح .

— لهذا السبب . ولكي لا تذهب هذه المأكولات إلى أيد غريبة ، خذ ما تريد فقد كنت صديقاً . وهو يعزك بالتأكيد أكثر من الآخرين .

— أليست له عائلة ؟ .

— ما زال الأب حياً . ولكنك تعرف موقفه منه ، ومع ذلك فسيبقى له ما يكفي ، إذ في القبو الثاني عدد كبير من الزجاجات غير المكسورة . خذ معك ما تحتاج إليه .

وأسرعت السيدة إلى الأرفف وأمسكت بالعلب وأنزلتها ووضعتها فوق النعش . وأرادت أن تحضر غيرها إلا أنها فكرت لحظة ، ثم رفعت العلب عن النعش وأحضرتها إلى المطبخ .

وقال جريبر : كفى أيتها السيدة . إذ على أن آخذ بقدر .

ونظر إلى العلب ، وقال : هذا سفرجل . سفرجل هولندى ولست بحاجة إليه وكذلك علب السردين ، ثم الأكارع المطبوخة .

— صحيح فقد اختلط على الأمر .

وحزمت كومة من المأكولات وضعتها على مقعد في المطبخ . فقال جريبر :

— هذا كثير جداً ، إذ كيف أنقله ؟ .

— تعال مرتين أو ثلاثاً . لم يذهب هذا إلى أيد أجنبية يا سيد جريبر ؟ إنك جندى وأحق بهذا من هؤلاء النازى الذين يجلسون في مكاتب دافئة .

وفكر جريبر « زعما ، وكذلك إليزابيث ويوسف وبولمان فلم نفس الحق ، وأكون حماراً لو لم آخذ هذا ، فهو يفيدنى ولم يعد يضر ألفونس .

وبعد أن ابتعد عن المكان مسافة ، خطر بباله لأول مرة : لقد كان عدم سكناه هو وزوجته مع ألفونس مجرد صدفة وإلا اندفن معه .

* * *

فتح يوسف الباب وقال جريبر : « لقد فتحت بسرعة » فأشار يوسف إلى ثقب صغير بالباب وقال : « رأيتك من خلال هذا الثقب الذى حفرته هنا ، إنه شيء عملى » .

ووضع جريبر اللفافة على المنضدة : قائلا : « كنت في كنيسة كاترين . وقال الراهب إن بإمكاننا أن نقيم هناك الليلة ، فشكراً لنصيحتك » .

— أكان الراهب شاباً ؟ .

— لا ، بل كان عجوزاً .

— العجوز طيب . فقد آوانى أسبوعاً كشماس ، وتركنى أعيش في الكنيسة . وفجأة حدث تفتيش فاختفيت خلف الأرغن ، إلا أن الراهب الشاب وشى بى ، إذ أنه من أعداء الجنس السامى . رجل دين من أعداء الجنس السامى ! ولدينا الكثير من هذا الصنف ، فنحن قد قتلنا المسيح قبل ألفى عام .

وفتح جريبر اللفافة وسحب علب السردين والزنجة من جيوبه ،

فنظر إليها يوسف دون أن تتغير ملامحه وقال : « هذا كثير ! » .

— سنقتسمه سوياً .

— ولديك ما يفيض عن حاجتك ؟ .

— كما ترى . . . لقد ورثته عن قائد المقاطعة . هل يضايقك هذا ؟ .

— على العكس ، فهذا يجعل له نكهة ممتازة . هل كنت تعرفه معرفة طيبة تجعلك تحصل على كل هذه الهدايا ؟ .

نظر جرير إلى يوسف وقال : « نعم كنت أعرفه ، فقد كان إنساناً طيباً خيراً » .

ولم يجب يوسف فسأل جرير : « أتعتقد أن الإنسان لا يمكن أن يجمع بين وظيفة قائد المقاطعة وصفة الخير ؟ » .

— أتعتقد أنت هذا ؟ .

— قد يكون ممكناً إذا كان الإنسان لا شخصية له ، أو خواءً أو ضعيفاً بحيث يجارى التيار .

— أيصبح مثل هذا الإنسان قائد مقاطعة ؟ .

— هذا ممكن أيضاً .

فابتسم يوسف وقال : « هذا غريب ، فأنا أظن أن القاتل لا بد أن يكون قاتلاً في كل وقت وفي كل مكان ولا شيء غير قاتل . ولكن كان

قاتلاً بعض الوقت أو أن القتل جزء يسير من طبيعته ، فهذا وحده كفيل بنشر الفظائع المروعة أليس كذلك ؟ » .

وأجاب جرير : « يبقى الضبع دائماً ضبعاً ، أما الإنسان فهو خليط من الطبائع المتباينة » .

فأومأ يوسف وقال : « في معسكرات التعذيب قادة يتمتعون بخفة ظل . وكذلك بين رجال العاصفة حرس يتصفون بالطيبة والأمانة في تعاملهم مع زملائهم . وآخرون يطمحون إلى ما نسميه الخير ، وينظرون إلى الأحداث البشعة وكأنها أمر عابر ، ويفسرونها كضرورة من ضرورات الزمن . هؤلاء قوم ضمائرهم مطاطة » .

— وهناك قوم يخافون .

فقال يوسف بأدب : « وقوم يخافون » .

صمت جرير ، ثم قال : « وددت لو استطعت معاونتك » .

ورد يوسف وكأنه يتحدث عن شخص آخر : « ليس بالإمكان شيء فأنا وحيد . إما أن يقبض علي أو أعيش هكذا » .

— أليس لك أقارب ؟ .

— كان لي أقارب . أخ وأختان وأب وزوجة وطفل . وقد ماتوا جميعاً : اثنان ضرباً حتى الموت ، وواحد مات ميتة طبيعية ، والباقون قتلوا بالغاز » .

فحملق فيه جرير وسأل : « في معسكرات التعذيب ؟ » .

فأجاب يوسف بأدب وبرود: «فى معسكرات التعذيب . فهناك وسائل ممتازة ومتعددة للقتل» .

– وأفلت أنت ؟ .

– وأفلت أنا .

نظر جرير إلى يوسف وقال : «لا بد أنك تكرهنا كراهية شديدة» .

فرفع يوسف كتفيه وقال : «كراهية ! ومن يسمح لنفسه بهذه الكراهية؟ الكراهية تجعل الإنسان غير حذر» .

ونظر جرير إلى النافذة التى ترتفع أمامها مباشرة أكوام الأنقاض والبيوت المنهارة ، وبدأ ضوء المصباح الخافت الصغير الموجود فى الغرفة يزداد خفوتاً ، وقد تركز فوق أنموذج الكرة الأرضية ، وذلك الأنموذج الذى أزاحه بولان إلى ركن الغرفة .

وسأل يوسف بأدب : «أستعود إلى الجبهة ؟» ..

– نعم سأعود لأكافح كى يبقى المجرمون الذين يطاردونك مدة أطول فى الحكم ، وربما تكون للقبض عليك وشنقك .

فأتى يوسف بحركة خفيفة يؤيد بها كلامه ثم صمت .

فقال جرير : «سأذهب لأننى إن لم أفعل أطلقوا على النار» .

ولم يجب يوسف .

– سأذهب لأننى إذا هربت من الجيش سيقبضون على والدى

وزوجتى ويرسلونهم إلى معسكرات التعذيب وقد يقتلونهم .

واستمر يوسف فى صمته .

– سأذهب وأنا أدرك أن هذه الأسباب ليست أسباباً مقنعة ، إلا أنها الأسباب التى دفعت الملايين للذهاب . كم يجب عليك أن تحتقرنا !

فقال يوسف بصوت منخفض : «لا تكن مغروراً» .

فحملق فيه جرير وإن كان لم يفهم .

فقال يوسف : «لم يتحدث أحد عن الاحتقار . لم يذكره غيرك . لمَ تعطى الأمر كل هذه الأهمية ؟ هل احتقرت بولان ؟ هل احتقرت كل من ساعدنى على الاختباء معرضين بذلك حياتهم للخطر ؟ وهل أتيحت لى فرصة الحياة بدونهم ؟ يالك من ساذج» .

وعاود الابتسام فجأة ، فكانت ابتسامته كابتسامة الأشباح تهوم على وجهه دون أن تلمسه . ثم قال : «ابتعدنا عن الموضوع ، وعلينا ألا نكثر من الحديث أكثر مما يجب ، وألا نفكر فى الأمر . إذ لم يجن الوقت بعد، فهذا يضعفنا . وكذلك التذكر ، فما زال الوقت مبكراً بالنسبة لكل هذا، فى ساعة الخطر يتدبر الإنسان كيف ينقذ نفسه» . ثم أشار إلى علب الأكل المحفوظ : «هذه الأشياء تعين على ذلك وسآخذها فشكراً» .

أخذ علب الأكل المحفوظ وأخفاها خلف المكتب . ولم يكن مرتاحاً ولا حاذقاً فى حركته . ولاحظ جرير أن أطراف أصابعه مشوهة ، وبدون

أظافر . وأدرك يوسف مكنون نظرته ، فقال : « ذكرى بسيطة من ذكريات المعتقل . إذ أراد قائد الفرقة أن يحتفل يوم الأحد . وكان يسمى هذه اللعبة إشعال شموع عيد الميلاد . فاستخدم أعواد ثقاب حادة مدببة . . . كنت أفضل أن يصنع هذا فى أصابع قدمى لا أصابع يدى كى لا يلحظها أحد بهذا الوضوح ، فيتعرف علىّ بسرعة . كما أننى لا يمكننى أن أرتدى القفاز فى كل مكان » .

ونهض جرير ، وقال : « أتسمح لى بأن أعاونك بإعطائك الزى العسكرى القديم وأوراق إثبات شخصيتى ؟ وبإمكانك أن تغير فيها ما يحتاج إلى التغيير وسأقول إنها احترقت » .

— شكراً ، لست بحاجة إليها ، إذ سأصبح رومانياً ، فقد دبر لى بولان هذا وتوسط فيه ، فهو ماهر فى هذه الأمور وإن كان لا يبدو كذلك . سأصبح رومانياً وعضواً فى الجبهة الحديدية ، وصديقاً للحزب . ومظهرى يساعدنى على هذا .

وبهذه الطريقة يمكننى أن أعلل جروحى بأنها تمت بواسطة الشيوعيين . أتريد فراشك وحقائبك الآن ؟ .

وأحس جرير أن يوسف يريد أن يتخلص منه فسأل : « أتظل هنا بعض الوقت ؟ » .

— لم ؟ .

ودفع جرير نصيبه من علب الأكل المحفوظ نحو يوسف وقال : « يمكننى أن أحصل على غيرها وسأذهب الآن ثانية لأحمل غيرها » .

— إنه كثير جداً ، وليس بإمكانى حمل أمتعة كثيرة ويجب أن أرحل فوراً . إذ ليس بالإمكان أن أظل أكثر من هذا .

— والسجائر ، لقد نسيت السجائر ، وهناك كمية كبيرة منها . باستطاعتى أن أحضر بعضها .

وتغير وجه يوسف وارتخت ملامحه مرة واحدة وأصبح رقيقاً : « سجائر ! » ، قالها وكأنه يتحدث عن صديق قديم : « هذا أمر آخر ، فهى أهم من الأكل وسأنتظرها بالتأكيد » .

الفصل الثانى والعشرون

انتظر جمهور كبير من الناس فى طرقات كنيسة كاترين ، جلس معظمهم على الحقائب والسلال . بينما وقف البعض بين الربطات واللفائف التى تحتوى على حاجاتهم . وكان معظمهم من النساء والأطفال . وبين هؤلاء وقف جريبر وسط حقائبه وفراشه بينما جلست بجواره سيدة ذات وجه يشبه وجه الحصان . وقالت : « ليتهم لا يرسلوننا كلاجئين! فقد سمعت الشىء الكثير عن حالة الناس هناك ، إذ يعيشون فى ثكنات ولا يحصلون على ما يقيم أودهم . هذا بالإضافة إلى المعاملة الخشنة الوضيعة التى يعاملهم بها الفلاحون » .

وأجابت آنسة نحيلة : « أنا لا أبالى ، إذ أريد أن أخرج من هنا فأى شىء أحسن عندى من الموت . لقد فقدنا كل ممتلكاتنا ، على الدولة أن تدبر أمرنا » .

— منذ يومين مر بالمدينة قطار ملىء باللاجئين من منطقة الراين ، وكان منظرهم مثيراً للإشفاق ، ثم توجه بهم القطار إلى ميكلن بورج .

— ميكلن بورج ؟ إن الفلاحين هناك أغنياء .

« فلاحون أغنياء » . وضحكت السيدة ذات الوجه الحصانى ضحكة

خافتة وقالت : « ستعمل فى أرضهم حتى يذوب اللحم ، وتنكشف عظامنا ، دون أن نحصل فى مقابل ذلك على ما يسد رمقنا ، على هذا أن يعرف هذا » .

ونظر جريبر إلى السيدة ذات الوجه الحصانى ، ثم إلى الآنسة . وكانت بشائر الخضرة فى بستان الكاتدرائية تبدى خلفهما للأنظار من خلال الممر الرومانى المحاط بالأعمدة . وتفتحت زهور النرجس أسفل التماثيل الحجرية فى الطرقات ، كما استقر عصفور فوق تمثال يصور المسيح وهو يجلد .

وقالت الآنسة : « هؤلاء الأغنياء الذين يملكون الكثير . عليهم أن يأووا بلا مقابل فنحن ضحايا الحرب » .

* * *

وأقبل قسيس الكنيسة ، وكان نحيلا ذا أنف أحمر متدل ، وكتفين متهدلين ، ولم يتصور جريبر أن هذا القسيس من الجرأة بحيث يخفى الناس الذين يبحث عنهم (الجستابو) .

ودعا القسيس الناس للدخول . وسلم كل واحد منهم ورقة تحمل رقم أمتعته ، كما ألصق قطعة من الورق عليها نفس الرقم فوق الحقائب والربطات وقال لجريبر : « لا تحضر الليلة متأخراً ! فالمكان هنا لا يكفى الجميع » .

— المكان لا يكفى ؟ » .

وكانت الكاتدرائية كبيرة المساحة :

– لا . فقاعة الصلاة لا تستخدم كمكان للنوم ، فليس هناك غير الغرف الموجودة أسفلها ، وكذلك الممرات الجانبية .

– وأين ينام من يحضر متأخراً ؟ .

– فى الممرات التى ما زالت قائمة . والبعض ينام فى الحديقة .

– وهل باستطاعة الغرف الموجودة أسفل القاعة أن تتحمل القنابل ؟ .

ونظر القسيس إلى جرير بلطف ، وقال : « لم يفكر إنسان فى هذا وقت بناء الكاتدرائية ، فهى مشيدة فى العصور الوسطى » .

وخلا الوجه ذو الأنف الأحمر من التعبير ، ولم تش ملامحه بأية مشاعر . وفكر جرير : لقد تقدمنا فى عملية التعمية والإخفاء . وأصبح كل واحد منا أستاذاً صغيراً . وسار عبر الحديقة والممرات ، ثم خرج . وكانت الكاتدرائية قد تعرضت للقنابل ، وانهار أحد أبراجها وتدفق منه ضوء النهار إلى داخلها راسماً شرائط عريضة مضيئة تخللت عتمتها . كما انكسر عدد من النوافذ ، وامتلأت بالعصافير التى تشقشق . أما غرفة القسيس المجاورة ، فقد دمرت عن آخرها . وكان القبو بجانبها ، فدخله جرير وكان من قبل قبواً لنبيذ خاصاً بالكاتدرائية ، ولم يتبق منه ما ينم عن أصله إلا عدة قوائم كان تحمل البراميل . وامتلأ هواء القبو الرطب البارد

برائحة النبيذ ، التى تغلبت عبر القرون على رائحة الخوف ، التى أثارتها ليالى الغارات والقنابل . ولمح جرير فى الجزء الخلفى من القبو ، حلقات حديدية ثقيلة مدلاة من أحجار مربعة فى السقف . فتذكر أن هذا القبو كان غرفة تعذيب للسحرة والمارقين قبل أن يتحول إلى قبو نبيذ . وكان السحرة والمارقون يعلقون من أيديهم ، فيثقل الجسم مثقلا بالحديد المربوط فى أقدامهم ، ثم يكوون بالأسياخ المحماة المتوهجة الحرارة إلى أن يعترفوا . وأخيراً يعدمون باسم الله ، وباسم الحب والمسيح . وفكر : لم يتغير الحال كثيراً ، فالقائمون بالتعذيب فى معسكرات التعذيب لهم فى هذا قدوة رائعة ، وللناصرى [1] ابن النجار أتباع لا مثيل لهم .

* * *

سار فى شارع أدلر ، وأصبحت الساعة السادسة مساء ، فقد قضى النهار يبحث عن غرفة دون أن ينجح فى مسعاه . فقرر متعباً أن يكف اليوم عن البحث . وتحول الحى إلى صحراء جرداء تراصت فيها الأطلال والخرائب خلف بعضها . فسار مبتئساً . وفجأة شاهد شيئاً لم يصدقه للوهلة الأولى . وجد بين الأنقاض منزلا قائماً من طابقين ، قديماً ومائلاً بعض الشىء ، إلا أنه سليم لم يمس . وبالحديقة المحيطة به بضع أشجار وشجيرات مخضرة . كان بيتاً سليماً كواحة فى قلب الصحراء تمت فوق سور حديقته شجيرات « الليلاك » ، وأحاطت به من جوانبه أشعة القمر .

(١) يكنى المسيح بالناصرى نسبة إلى الناصرة التى ولد فيها .

لقد بقى هذا البيت الصغير ، وهذه الحديقة القديمة ، دون دمار بمعجزة من المعجزات التى تصاحب الدمار . وقد ثبتت على باب البيت لافتة كتب عليها « فندق ومطعم فيته » .

كان باب الحديقة مفتوحاً ، فدخل ولم يدهشه أن زجاج النوافذ سليم ، إذ وجب أن يكون كذلك . فالمعجزة توجد باستمرار بجانب اليأس .

وبجوار باب البيت رقد كلب صيد بنى وأبيض ونام . وامتلأت أحواض الحديقة بزهور النرجس والبنفسج والزنبق . فأحس وكأنه قد شاهد هذا كله من قبل ، ولكنه لم يعلم متى شاهده . إذ بدا له هذا منذ زمن طويل وربما كان مجرد حلم . فدخل من الباب .

ووجد قاعة الشراب خالية ، ليس بها غير بضع كئوس مرصوصة على الأرفف . ولم تكن هناك زجاجة وكان صنبور البيرة لامعاً ، أما المصفاة الموجودة أسفله فكانت جافة . واصطفت بجوار الحائط ثلاث موائد محاطة بالمقاعد ، بينما تدلت فوق المنضدة الوسطى ، لوحة تصور مناظر التيرول الطبيعية ، تقف بينها فتاة تلعب الجيتار وقد انحنى عليها صياد . . . ولم يجد صورة هتلر بل لم يكن يتوقع أن يجدها .

ودخلت سيدة عجوز ترتدى سترة زرقاء باهتة ، ذات أكمام مشغولة ، ولم تقل السيدة « يحيا هتلر » وإنما قالت : « مساء الخير » وكان المساء قد حل . فأحس بحاجة إلى قضاء أمسية جميلة بعد يوم مشحون بالعمل .

وفكر جريبر . كان الماضى مليئاً بالأمسيات الجميلة . . . وأحس بالحاجة إلى الشراب بعد أن ملأت أتربة الأنقاض خياشيمه ، وجعلته يحس بالعطش . . . أحس بحاجة ماسة إلى قضاء الأمسية هنا مع البزابيث . وأحس أنها ستكون أمسية طيبة بعيداً عن البؤس الذى يحيط بهذه الحديقة الجميلة حتى مرمى البصر .

وسأل جريبر : « أيمكننى أن أتناول العشاء لديكم هنا ؟ » .

وترددت السيدة لحظة فقال : « لدى بطاقة تموين : رائع حقاً أن يتناول الإنسان طعامه هنا ، والأروع منه أن يتناوله فى الحديقة . فاليوم أحد أيامى الأخيرة التى أقضيها قبل أن أرحل إلى الجبهة . أرغب فى طعام لى ولزوجتى . ولدى بطاقة تموينا نحن الاثنين . بل وفى استطاعتى إذ أردت ، أن أحضر معى بعض علب الطعام المحفوظ ، كبديل للطعام الذى سنتناوله » .

— لدى حساء العدس . فنحن لم نعد نقدم الطعام .

— رائع . لم أتناوله منذ زمن طويل .

فابتسمت السيدة ابتسامة هادئة . ارتسمت من تلقاء ذاتها دون تصنع وقالت :

— تعال إذن لو كان هذا الطعام يرضيك . ويمكنك أن تجلس فى الحديقة إن أردت أو هنا عندما يبرد الجو .

— بل فى الحديقة فما زال ضوء النهار موجوداً . أيمكننا أن نأتى فى الثامنة ؟ .

— حساء العدس لا يقتضى دقة المواعيد . تعال وقتما تحب .

* * *

وتحت اللافتة التى كانت على منزل والديه ، وجد خطاباً من أمه أرسل إليه فى الجبهة ، ورد ثانية — فلخص الخطاب ووجده قصيراً . وذكرت فيه الأم أنها سترحل عن المدينة هى والأب صباح اليوم التالى ، ولكنها لا تعرف إلى أين ستذهب وتطلب منه ألا يشغل نفسه بهذا فهو إجراء وقائى .

ونظر إلى تاريخ الخطاب فوجده يسبق موعد قيامه بالإجازة بأسبوع ولم يرد بالخطاب ذكر للغارات الجوية ، إذ أن أمه حذرة وخشيت الرقابة . ومن غير المحتمل أن يكون البيت قد دمر فى الليلة الأخيرة ، التى قضياها فى المدينة . إذ لابد أن هذا قد حدث من قبل ، وإلا ما قامت الدولة بترحيلهم .

طوى الخطاب وأعاده إلى جيبه . إذن ما زال والداه على قيد الحياة ، وقد تأكد من ذلك . وتلفت حوله فرأى شيئاً يشبه الحائط الزجاجى يتموج ويغوص فى الأرض أمامه . وبدا له شارع هاكن فجأة ككل الشوارع التى ضربت بالقنابل . وزال الرعب والأسى اللذان أحاطا برقم ثمانية عشر .. ولم يبق غير الشظايا والأنقاض . وتنفس بعمق دون أن

يحس بسعادة . وإنما بشىء من التخفف . فقد انزاح عن كاهله عبء طالما أثقل عليه . لم يفكر إطلاقاً أنه قد لا يرى والديه طول مدة الإجازة ، فقد الدفن هذا وسط القلق الذى كان يعيش فيه . إنهما على قيد الحياة وهذا يكفى . وهكذا انتهى الموضوع وأصبح حراً .

وكانت الغارة الأخيرة قد أصابت الشارع بضع إصابات ، وانهار المنزل الذى كانت واجهته ما زالت موجودة ، أما الباب الذى قد استخدم لتعليق الرسائل فقد أطارته القنابل بعيداً بين الأنقاض . وفى هذه اللحظة فكر جرير فى حارس الخانى المجنون . ثم رآه فجأة مقبلا من الناحية الأخرى وهو يقول :

— الجندى . أما زلت هنا ؟ ! .

— وأنت أيضاً كما أرى .

— هل عثرت على خطابك ؟ .

— نعم .

— وصل الخطاب بعد ظهر أمس . هل تشطب اسمك من القائمة الملصقة بالباب ؟ فنحن بحاجة إلى المكان ، وقد تقدم خمسة أشخاص لشغله .

فقال جرير : « ليس بعد . . . يومان آخران » .

— بل الآن ، فقد حان الوقت . قاطعه حارس الخانى بحدة وعنف

وكأنه معلم مدرسة يتحدث إلى تلميذ غير مطيع : « لقد طال صبرنا عليك » .

— أأنت رئيس تحرير هذه الجريدة ؟ .

— حارس الخنادق هو كل شيء ، فهو الذي يحفظ النظام . . . . والدينا أرملة فقدت أطفالها الثلاثة في الغارة الأخيرة .. ونحن بحاجة إلى المساحة التي تشغلها لنعلن فيها عنهم .

— إذن خذها ! وسيأتي إليّ بريدى في هذه الخرائب الموجودة هناك .

وخلع حارس الخنادق ورقة جريبر وأعطاها له . وأراد جريبر أن يمزقها فأمسك الحارس بيده بقوة قائلا : « أأنت مجنون أيها الجندى ؟ إن مزقتها ساء طالعك . وإن احتفظت بها عاش أهلك طالما أنت محتفظ بها . إنك حقاً غير مجرب في هذا الأمر » .

« نعم » قالها جريبر وهو يطوى الورقة ويضعها في جيبه : « سأحتفظ بها أطول مدة ممكنة . أين تقطن الآن ؟ » .

— اضطررت إلى مبارحة مكانى . إلا أننى وجدت جحراً مريحاً بين أسرة من الفئران . . . أمر مسل حقاً ! .

ونظر جريبر إلى الرجل وكان وجهه أغبر لا ينم عن شيء . وقال الحارس : أنوى أن أنشئ رابطة تجمع الناس الذين اندفن أقاربهم بين الأنقاض ، كى نتكاتف . وإلا لم تفعل لنا المدينة شيئاً . وعليهم على

الأقل أن يصلوا على المكان الذى اندفن فيه الناس ليكون أرضاً مقدسة ، هل فهمت ؟ .

— نعم ، فهمت .

— حسن ، بعض الناس يعتبر هذا غباء . ثم إنك لست بحاجة لأن تكون عضواً فيها فقد تسلمت خطابك الملعون .

وانهار الوجه الأغبر فجأة ، وتجلت فيه عبرات الألم وملامح الغضب ، ثم استدار بعنف وخطا عائداً بخطوات عسكرية .

ونظر جريبر نحوه وهو يسير ، ثم سار هو الآخر وقد عزم على ألا يخبر إليزابيث أن والديه يعيشان .

* * *

وقدمت إليزابيث من المصنع عبر الميدان منفردة ، وكانت تبدو صغيرة ضائعة . فقد جعل الغروب الميدان يبدو أكبر حجماً مما هو عليه . وأكسب المبانى خلفه مسحة مقفرة جرداء .

وقالت إليزابيث لاهثة : « حصلت اليوم على إجازة أخرى » .

— كم يوماً ؟ .

وتوقفت وقد تغيرت نظراتها كما توقف محجراها عن الحركة وامتلأت العينان بالدموع : « وضحت ضم السبب فمنحونى ثلاثة أيام فوراً . ربما وجب على بعد ذلك أن أعوضها ولكن لا بأس . ليحدث ما يحدث ، بل إنه من الأفضل لى أن أعمل كثيراً » .

ولم ينه جرير بكلمة فقد تبدت له حقيقة انفصالهما القريب ، وكأنها شهاب داكن يسقط عليه . كان يدرك هذا طول الوقت ، ولكنه أدركه بنفس الطريقة التى يدرك بها الإنسان أشياء كثيرة لم يتعمقها أو يتحقق منها .

حدثت أشياء كثيرة شغلت عنها . ولكنه الآن يحس بها قوية عارمة تملأ عليه فكره ، وتصدر شعاعاً باهتاً يخترق كيانه ، ويكشف عن عظامه . وكأنه من أشعة إكس التى تمحو البهجة وسحر الحياة ، ولا تظهر غير الحتمية ووجهها القفر .

ونظر كل منهما إلى الآخر ، والتقيا فى الإحساس بهذه الحقيقة فوقفا فى الميدان وتأملا بعضهما البعض . وأحس كل منهما بألم الآخر . واستشعرا دوامة تجتاحهما ، ولكنهما لم يتحركا . فقد لاحقهما اليأس الذى طالما هربا منه ، واستولى عليهما ، وأدرك كل منهما ما سيكون عليه الآخر .

رآها جرير لتنظره وحيدة ، فى المصنع والخيأ أو فى غرفة ما ، دون أمل .

ورأته إليزابيث وقد عاد يعرض حياته للخطر من أجل شىء لم يعد يؤمن به .

وهزمهما اليأس وضمرهما بسيل منهمر من الحنان المميت . لم يستسلما

له ، وإلا مزقهما ، ولم يستطيعا شيئاً . بل انتظرا حتى انقشع هذا الإحساس .

وبدا الوقت دهراً ، حتى قبل أن يتمكن جرير من الكلام ، ورأى أن الدموع قد فاضت من عينيها مع أنها لم تجففهما ، وكأن هذه الدموع قد انسابت إلى الداخل . . . فقال : « إذن بإمكاننا أن نبقى معاً بضعة أيام كاملة » .

وبدلت جهدها لتبتسم : « نعم من الصباح حتى المساء » .

— رائع ، وكأننا اكتسبنا بضعة أسابيع ، لو حسبناها على أساس أنك خالية فى المساء فقط .

وواصلا السير ، وتأملا بقايا شفق المساء من خلال نافذة خاوية فى حائط منزل ، فبدا كستار منسى . وسألته إليزابيث ، « أين سنذهب وأين سنبيت ؟ » .

— سنبيت فى ممرات الكنيسة أو حديقتها إن كان الجو دافئاً . والآن هيا نأكل حساء العدس .

* * *

وظهر مطعم فيته وسط الأنقاض . وبدا لجرير كأمر غريب أن يظل باقياً ، فهو أمر غير مصدق ، وكأنه السراب . ومضيا من باب الحديقة فسألها :

— ما رأيك فى هذا المكان ؟ .

— إنه قطعة من السلام وسط دوامة الحرب .

— نعم ، ويجب أن يستمر هكذا هذه الأمسية .

وفاحت في الحديقة رائحة التربة قوية نفاذة صادرة عن أحواض الزهور . ودار كلب الصيد حول المنزل ، وأتى يهز ذنبه ويلعق فمه ، وكأنه أكل لتوه . ثم أقبلت السيدة فيته نحوهما مؤتزرة بإزار أبيض وقالت : « هل ترغبان في الجلوس في الحديقة ؟ » .

فردت إليزابيث : « نعم ، وأرجو أن تسمحي لي بالاغتسال إن أمكن هذا » .

— بالتأكيد .

وصحبتها إلى داخل المنزل ثم صعدتا إلى أعلى . وسار جريبر إلى الحديقة ماراً بالمطبخ . ووجد بالحديقة منضدة مغطاة بمفرش مرسوم عليه مربعات بيضاء وحمراء ، وحول المنضدة مقعدان وفوقها كوبان وأطباق وإبريق به ماء بارد . فشرب كوباً من الماء يطفئ به ظمأه وأحس بمذاق الماء البارد أروع من النبيذ ، وظهرت الحديقة أكبر مما تبدو من الخارج . وبها رقعة من الحشائش الخضراء الرخصة وشجيرات من صنف البيلسان وبعض الأشجار القديمة التي اكتست بأوراق خضراء جديدة .

عادت إليزابيث وقالت : « كيف اهتديت إلى هذا المكان ؟ » .

— بالصدفة . إذ كيف يهتدي الإنسان إلى مثله ؟ .

وسار الاثنان فوق الحشائش وتحسا الأزهار المتفتحة : « إنها زهور

البيلسان ، ما زالت خضراء ونضرة إلا أنها ستتفتح قريباً » .

فقال جريبر : « نعم في ظرف أسبوعين » .

واقتربت إليزابيث منه ، وكانت تتضوع برائحة الصابون والماء التي والشباب وقالت : « المكان جميل . والعجيب أنني أحس وكأنني كنت هنا من قبل » .

— خالجني نفس الإحساس عندما قدمت إليه .

— أحس وكأن هذا كله قد حدث من قبل ، أقصد أنا وأنت وهذه الحديقة . ولكن ينقصنا شيء بسيط جداً ، شيء أخير . وبإمكاني أن أتذكر كل ما حدث في الماضي .

ووضعت رأسها على كتفه . لن يحدث هذا ثانية ، فما يكاد يتحقق شيء حتى أجد ما يحول دونه . . . ولكن ربما عشنا هذه الحياة من قبل سنحياها دائماً . . . .

وظهرت السيدة فيته حاملة إناء الحساء . فقال جريبر : « تفضل بذاقة التموين . ليس فيها الكثير فقد احترق جزء منها ولكن ما بها يكفي » .

فقالت السيدة فيته : « لست بحاجة إليها فالعدس لدينا من قبل ، ولكنني بحاجة إلى بعض منها مقابل (السجق) وسأحضر لك الباقي بعد لحظة . أتشربان شيئاً ؟ عندنا بضع زجاجات من البيرة » .

— رائع ، فقد وددنا حقاً أن نطلب بيرة .

وتحول شفق المساء الأحمر إلى شعاع خاب . وصاح أحد الطيور صيحات عالية . تذكر جرير أنه قد سمع مثلها صباح اليوم فى الكاتدرائية . وكان الطائر جاثماً على قائمة من قوائم الصليب . ومنذ الصباح حتى الآن حدثت أشياء وأشياء . ورفع غطاء وعاء الحساء . وقال : « سحق جيد ، بولندى الصنف . والحساء كثيف أيضاً . طبق عشاء ممتاز ! » .

وملأ الطبقين . وتخيل فى هذه اللحظة أنه يمتلك بيتاً وحديقة وزوجة وعائلة وطعاماً . . . وأن السلام يسود العالم فقال :

« إليزابيث ، لو عرض عليك أن تعيشى هذه الحياة عشر سنوات ، بهذه الطريقة وبين الأنقاض المحيطة بهذه الحديقة ونحن الاثنين معاً ، أتوافقين ؟ » .

— فوراً . بل أطلب أن يمتد الأجل .

— وأنا أيضاً .

وأحضرت السيدة فيه زجاجات البيرة ، ففتحها وملأ الكوبين وشرب الاثنان . فقد كانت البيرة مثلجة طيبة المذاق . وأكل الاثنان الطعام . أكلاه ببطء وسلام . وكان كل منهما ينظر أثناءه إلى الآخر .

وخيم الظلام فبدأت أضواء الكشافات الباحثة عن الطائرات تقطع هذه الظلمة . واخترق شريط من الضوء سحابة من السحابات ، ثم انزلق مبتعداً ، وتوقف الطائر عن التغريد وابتدأ الليل .

وظهرت السيدة فيه لتملأ وعاء الحساء ثانيه وقالت : « لم يكن

الطعام كافياً . إذ يجب أن يأكل الشباب بشهية » .

— بل أكلنا ما فيه الكفاية وكدنا نأتى على كل ما فى الوعاء » .

— سأحضر لكما بعض السلاطة وقطعة من الجبن .

وسطع القمر فقالت إليزابيث : « الآن اكتمل كل شىء ، القمر والحديقة وأكلنا حتى امتلأنا وما زال المساء كله أمامنا . . . سحر لا نكاد نحتمله » .

— هكذا كان يعيش البشر دون أن يجدوا فى هذه الحياة شيئاً غريباً .

فأومأت إليزابيث ، ثم تلفتت حولها : « من هنا لا أرى أية خرائب ، فالحديقة فى وضع لا يراها فيه إنسان . إذ تحجبها الأشجار . لو فكرنا أن هناك بلاداً ما زالت تعيش هكذا ! » .

— سنذهب إلى هذه البلاد بعد الحرب . وسنرى مدناً كثيرة لم تمتد إليها يد الدمار ، مضاءة بالليل دون أن نخشى سقوط القنابل علينا . ونسير الهوينى ، ثم نتمهل أمام واجهات المتاجر التى تضىء تحت الأنوار . سيكون الضوء بالليل ساطعاً بحيث يمكننا من أن نرى بالمساء وجوهنا ، ونتعرف على الناس كما نتعرف عليهم أثناء النهار .

— أيسمحون لنا بدخول هذه البلاد ؟ .

— كرحلة ! ولم لا ؟ فى سويسرا مثلا ؟ .

— علينا فى هذه الحالة أن نحصل على نقود سويسرية . وكيف

تحصل عليها ؟ .

— نأخذ معنا آلات تصوير نبيعها هناك ونعيش بثمنها أسبوعين .

فضحكت إليزابيث وقالت : « أو حلياً أو معاطف فراء أو ما شابه ذلك مما لا نملك منه شيئاً » .

وأقبلت السيدة فيته حاملة السلاطة والجبن وسألت : « أيعجبكما المكان هنا ؟ » .

— نعم ، إلى أقصى حد . أيمكننا أن نجلس بعض الوقت ؟ .

— أبقيا ما يحلو لكما . وسأحضر القهوة ، قهوة الذرة طبعاً .

فقال جريبر : « وقهوة أيضاً . نحن نعيش الليلة كأمراء الإقطاع » .

فضحكت إليزابيث ثانية وقالت : « عشنا في البدء كأمراء ، نأكل كبد الأوز والكافيار ونشرب النبيذ ، نبيذ الراين والآن نعيش كبشر ، نعيش كما نود أن نعيش في المستقبل ، أليس جميلا أن يعيش الإنسان ؟ .

— نعم يا إليزابيث .

ونظر إليها جريبر ، وكانت تبدو متعبة ، عند ما قدمت من المصنع ، أما الآن فقد استعادت مرحها . إنها لا تحتاج إلى مجهود كبير لاستعادة مرحها .

وقالت إليزابيث : « جميل أن يحيا الإنسان ، ولم نتعود نحن هذا ، لم نتعود هذا القدر من الحياة ، ولهذا فأمامنا الطريق طويل ، فما يعتبره

غيرنا شيئاً طبيعياً نعده نحن مغامرة . فالهواء النقي الذى لا تشوبه رائحة القنابل ، والعشاء بدون بطاقة ، وشراء ما تريد ، والمدن القائمة غير المدمرة ، بل حتى الكلام دون حذر ، والحياة بلا خوف . سيحتاج ذلك إلى وقت طويل وسيقل الخوف تدريجياً . وإذا حدث وأحسسنا بالخوف كان ذلك باعثاً على السعادة لأننا سندرك لحظتها أننا لسنا بحاجة إلى الخوف . . . أتصدق هذا ؟ » .

فقال جريبر باذلا جهداً كبيراً : « نعم يا إليزابيث ، لو نظرت إلى الأمور هذه النظرة ، كان أمامنا قدر كبير من السعادة نستمتع به » .

بقى الاثنان في الحديقة ما طاب لهما البقاء ودفع جريبر النقود ثم ذهبت السيدة فيته لتنام ، وتمنى لهما أن يجلسا منفردين .

وعلا القمر في السماء وازدادت رائحة الليل المنبعثة من الأرض وتضوع المكان برائحة أوراق الشجر النامي الجديد . . وأدى سكون الريح إلى تصاعد روائح الأتربة والشظايا التي كانت تملأ الجو . . . وسمع الاثنان حسيساً بين الشجيرات . كانت قطة تحاول اصطياد الفئران التي تكاثرت من ذى قبل إذ وجدت تحت الأنقاض غذاء كافياً .

* * *

وفي الحادية عشرة ، غادر الاثنان الحديقة . شعرا كأنهما غادرا جزيرة ، وقال الراهب عند ما رآهما : « لقد تأخرتما وشغلت جميع الأماكن » .

كان رجلا آخر غير القسيس الذى رآه فى الصباح . يصغره فى السن حليق وخشن ومتعال . . . ربما كان هو الذى أرشد عن يوسف .

— ألا يمكننا أن ننام فى حديقة الكاتدرائية ؟ .

— كل الأماكن المسقوفة فى الحديقة مشغولة . لم لا تذهب إلى إدارة الطوارئ ؟ .

وكان هذا السؤال فى منتصف الليل غبياً . فأجاب جرير : « ثقتنا بالله أكبر » .

فنظر إليه الراهب بحدة : « إن أردت البقاء هنا ، ستنام فى الخلاء » .

— لا بأس .

— أنتما متزوجان .

— نعم ، لم هذا السؤال ؟ .

— هذا بيت الله ، وغير المتزوجين لا يمكنهم أن ينامو هنا معاً . وفى ممرات الكاتدرائية خصصنا ناحية للرجال وأخرى للنساء .

— حتى ولو كانوا متزوجين ؟ .

— نعم فالممرات بداخل الكاتدرائية ، ولا مجال للشهوات الجسدية فيها . وأنتما تبدوان غير متزوجين .

وأخرج جرير قسيمة الزواج ، فوضع الراهب نظارته على عينيه ،

وفحص القسيمة فى ضوء الشمع المقدس ثم قال : « منذ عهد قريب جداً » .

— قوانين الكنيسة لا تعارض هذا .

— هل قمتما بمراسم الزواج الكنسية ؟ .

فقال جرير « اسمع ! نحن متعبان . وقد عملت زوجتى طول النهار وسنذهب الآن إلى الحديقة لننام . فحاول أن تخرجنا إن كان لديك ما يمنع نومنا . ولكن أحضر معك آخرين غيرك فلن يكون الأمر سهلا » .

وفجأة ظهر بجوارهم أحد رجال الدين . وكان قد حضر دون أن يحدث ما يتم عن وجوده وسأل : « ماذا جرى » ؟ .

وشرح له الراهب الموقف فقاطعه رجل الدين بعد بضع جمل : « لا تحاول يا بنى أن تقوم بدور الإله ! فالحالة سيئة بشكل يدعو إلى أن نسمح للناس بالمبيت هنا » . ثم التفت إلى جرير : « إن لم تجد لك فى الغد مأوى ، فتعال إلى حتى التاسعة مساء ، فى رقم ٧ فناء الكاتدرائية واسأل عن القس بيلدين ديك وستوفر لكما مقدرة منزل مأوى » .

— شكراً جزيلا .

وأوما بيلدين ديك مجيباً ثم واصل المسير ، فخاطب جرير الراهب قائلا : « هيا يا جندى الله ، فقد أصدر لك (الرائد) أمراً عليك أن

تطيعه . فالكنيسة هى النظام الديكتاتورى الأوحد الذى نجح فى البقاء عبر القرون ، أين الطريق إلى حديقة الكاتدرائية ؟ .

وقادهما الراهب داخل الهيكل حيث لمعت أدوات القداس ، ثم اخترقوا بابًا ومدخلا حتى وصلوا إلى الحديقة ، وتمتم الراهب فى غضب « لا تنصبا فراشيكما هنا فوق قبور الشهداء ، بل أبقيا على هذا الجانب بجوار الممرات ! ومنوع مباشرة الحقوق الزوجية ، إذ يجب أن يكون كل فراش منفصلا عن الآخر . وخلع الملابس ممنوع كذلك » .

— وماذا عن خلع الأحذية ؟ .

— مباح .

وذهب الاثنان إلى المكان المعين . وكان يصدر عن ممرات الكاتدرائية غطيط متعدد الطبقات . وأخرج جرير الخيمة والأغطية وفرشهما على الحشائش ونظر إلى إليزابيث التى كانت تضحك وسألها : ماذا يضحكك ؟

— أضحك منك أنت والراهب .

— « حسن » . ووضع الحقائب بجوار الحائط وجعل من حقيبة الميدان وسادة تحت الرأس . وفجأة صدرت وسط الغطيط المنتظم صرخة عالية من إحدى السيدات .

— « لا . . لا . . . أوه » ، ثم ابتلعت السيدة الصرخة .

وصاح أحدهم « سكون ! » إلا أن السيدة صرخت مرة أخرى . فصاح الصوت الساخط ثانية بشكل أعلى « سكون ! عليكم اللعنة » .

وسكتت الصرخة وكأنها اختنقت . فقال جرير :

— هكذا نحن سادة البشر ، نطيع الأوامر حتى فى أحلامنا .

* * *

ورقد الاثنان وكانا بمفردهما فى هذه الناحية بجوار الحائط ، إلا أنهما شاهدا بعض الارتفاعات فى ركن الحديقة . فعلما أن هناك آخرين غيرهما نائمين . وأرسل القمر أشعته من وراء البرج المدمر ، فانعكست على مقابر شهداء الكنيسة وغطتها . وكان جزء من هذه المقابر مكسوراً ، لم تكسره القنابل ، وإنما أبلاه الدهر فانهار . وقام بين شجيرات الورد البرية صليب كبير . وحوله على طول الطريق ، الدرجات الحجرية التى تمثل طريق الآلام [1] . ونام جرير وإليزابيث فوق إحدى هذه الدرجات وكانت ترمز إلى المكان الذى جلد فيه المسيح . وكانت تليها الدرجة التى ترمز إلى المكان الذى وضع فيه إكليل الشوك على رأسه . ولمعت فى المربع الذى خلفهما أخمدة وأقواس طريق الصليب التى تؤدى إلى الحديقة .

وخاطب جرير إليزابيث : « هيا اقتربى منى ولتذهب أوامر هذا الراهب الملتزمت إلى الشيطان » .

---

(١) طريق الآلام : طريق طويل ذو درجات يوجد بالقدس القديمة ، وقد اجتازه المسيح حاملا الصليب .

الفصل الثالث والعشرون

حلقت عصافير الجنة حول برج الكنيسة المهدم كما انعكست أشعة الشمس الأولى على الأحجار الملقاة على الأرض . وكانت ذات يوم لبنات فى سقف البرج . فأخرج جرير موقده الكحولى ، وهو لا يدرى إن كان من المسموح به أن يوقده ليطهو . إلا أنه اتبع قانون الجندية القديم ، ألا وهو ، افعل ما تريد قبل أن يمنعك أحدهم من ذلك . فحمل وعاء الماء وبحث عن صنبور حتى وجده خلف إحدى مراحل طريق الآلام . وقد نام بجوار الصنبور رجل ذو لحية حمراء نامية وساق واحدة فاتحاً فمه ملقياً بساقه الصناعية بجواره ، فلمعت الأجزاء المصنوعة فيه من النيكل تحت أشعة الشروق ويدت كآلة . وألقى جرير نظرة على صفوف الأعمدة القائمة بالداخل . ووجد أن الراهب على حق . فقد نام الرجال والنساء كل على حدة فى الجزء الجنوبى من الكنيسة .

عاد جرير ووجد إليزابيث قد استيقظت نشيطة ، بعد أن نامت ما يكفيها . فلم تلك شاحبة كالنساء اللاتى رآهن داخل الكنيسة . فقال لها : أعرف مكان الاغتسال ، فهيا أسرعى قبل أن يندفع الآخرون كالعاصفة . فالهيئات الدينية يقصها دائماً الاستعدادات الصحية .

تعالى معى لأريك غرفة الاغتسال المخصصة لأبطال الكنيسة .

وضحكت وقالت : « ابق أنت هنا أمام القهوة كى لا تختفى . وسأجد غرفة الاغتسال بمفردى . أى طريق أسلك ؟ » .

فوصف لها الطريق وسارت عبر الحديقة . كانت هادئة فى نومها حتى أن ثيابها لم تتكرمش ، وتأملها وهى تسير ، فأحس فجأة أنه يحبها إلى درجة كبيرة .

وحضر الراهب المتزمت متسللا على خفيه المصنوعين من الجلد . وقال : « أهكذا ؟ ! وتطهو فى حديقة المسيح ؟ بل على طريق الآلام الذى تم عليه وضع إكليل الشوك فوق رأسه » .

— وأين مملكة السعادة كى أذهب إليها ؟ .

— كل شبر من هذه الأرض مقدس . ألا ترى شهداء الكنيسة مدفونين هنا ؟ .

فقال جرير بهدوء : « طالما جلست على قبور وظهرت طعامى . ولكن قل لى أين تذهب . أيوجد هنا مقصف أو مكان للطهى ؟ » .

« مقصف ؟ » ومضغ الراهب الكلمة وكأنه يمضغ فاكهة عطنة : « مقصف هنا ؟ » .

— فكرة ليست سيئة ؟ .

— ربما للكثرة أمثالك ، ولحسن الحظ يوجد كثيرون يفكرون بطريقة تختلف عن طريقتك . تريد مقصفاً فوق أرض المسيح ؟ يا للتجديف ؟ » .

— ليس تجديفاً كما تظن . فقد أطعم المسيح عدة آلاف من البشر ببضعة أرغفة من الخبز وسمكتين . لا بد أنك تعرف هذا . إلا أنه لم يكن غراباً مغروراً مثلك . والآن هيا أغرب عن وجهى ! فنحن فى حالة حرب . وأظن هذا خبراً جديداً عليك .

— سأخبر السيد الكاهن بلدين ديك بما قلت من تجديف .

— افعل حتى يطردك أيها المتجسس المتزمت .

وعاد الراهب منتفخاً من الغرور والحنق يسير فى خفة الجندى ففتح جريبر علبة بن من مخلفات بيندبج وتشممها إذ كانت قهوة من البن . ووضع مقداراً منها على الماء ففاحت الرائحة وظهر تأثيرها سريعاً . فقد ارتفعت رأس خلف المقابر وتشممت ثم عطست ونهض صاحبها مقبلا وقال : « أيمكننى أن أنال قدحاً ؟ » . فقال جريبر : « هيا اقترب فهذا بيت الله . لا يمنح الإنسان فيه الصدقة بل يأخذها منه » . وعادت إليزابيث وهى تختال بخفة وإغراء وكأنها تتنزه وسألت : « من أين لك القهوة ؟ » .

— من بيندبج وعلينا أن نشربها بسرعة وإلا تكأكأ علينا كل المقيمين فى طرقات الكنيسة .

وانتقلت أشعة الشمس تتحرك متنقلة بين التماثيل والصور التى تمثل إكليل الشوك . وبجوار المقعد الموجود فى مكان الجلد بالسياط تحت زهور البنفسج . وأخرج جريبر من حقيبة الميدان خبزاً وزبداً . وقطع الخبز

بالمطواة الصغيرة . ثم غطاه بالزبد . فقالت إليزابث : « زبدة طبيعية . أهى من مخلفات بيندبج ؟ » .

— كل شىء . الغريب أنه أسدى لى كل خير بينما لم أستطع أبداً أن أتقبله .

— ربما كان هذا هو السبب . إذ كثيراً ما يحدث هذا .

وجلست على حقيبة الميدان بجواره . وقالت : « عندما كنت فى السابعة تمنيت أن أعيش كما أعيش الآن » .

— وأنا أردت أن أكون خباراً .

فضحكت وقالت : « ولذا أصبحت أحسن رجل تموين . كم الساعة الآن ؟ »

— سأحزم الأمتعة وأصحبك إلى المصنع .

— لا بل دعنا نجلس سوياً فى الشمس قدرما نستطيع . فحزم الأمتعة واصطحابى إلى المصنع سيستغرق وقتاً طويلا . كما أن علينا أن ننتظر طويلا حتى يأتى دورنا لإيداع الأمتعة . إذ أن العدد الواقف فى طرقات الكنيسة كبير وبإمكانك أن تفعل هذا بعد ما أرحل .

— أتعتقدين أنه مسموح لى بالتدخين ؟ .

— لا . ولكن لا أظن أن هذا يضايقك .

— على الإطلاق . دعينا نفعل كل ما نريد قبل أن يطردونا . فلن يطول مقامنا هنا . وسأحاول اليوم أن أجد مأوى لا نضطر فيه إلى النوم

بملابسنا ، كما أنى لا أريد الذهاب إلى الأب بيدين ديك . ما رأيك ؟ .

— لا . إذ الأفضل أن نعود إلى بيلان .

وارتفعت الشمس وأضاءت الممرات ، فسقطت ظلال الأعمدة على الجدران . وامتلأت الطرقات بأناس كثيرين راحين غادين ، وكأنهم فى سجن من الضوء والظلال . وعلا بكاء الأطفال وعرج الرجل ذو الساق الواحدة ساحبًا ساقه الصناعية المغطاة بسرواله . وتناول جرير الخبز والزبد واللبن ولفها ، ثم حفظها ، وقال : « إنها الثامنة إلا عشر دقائق ، فيجب أن تدعنى وسأنتظرك أمام المصنع لأصحبك فى العودة ، وإذا طرأ شىء فسلنى فى حديقة السيدة قينه ، وإلا ستجدينى هنا .

— « حسن » ، ونهضت إليزابيث ، وقالت : « إنها آخر مرة أتركك فيها صباحًا » .

— سنعوض هذا بالسهر . سنسهر الليلة طويلا ، ساعات ! ساعات نعوض فيها ما فاتنا من النهار .

وقبلته وذهبت مسرعة ، وحينئذ سمع جرير صوت ضحك فاستدار غاضبًا . إلا أنه وجد سيدة شابة تختف بين الأعمدة . وقد أوقفت وليدها الصغير على السور . وأمسك هذا شعرها بشدة فضحكت معه . ولم يلحظها جرير أثناء وقوفه مع إليزابيث .

* * *

حزم جرير أمتعته ، ثم ذهب ليغسل الآنية . فأقبل ذو الساق

الواحدة نحوه ، وكانت ساقه تدب على الأرض . ثم تحتك بها وقال : « هيه أيها الزميل ! » .

فتوقف جرير . وسأله ذو الساق : « أنت الذى لديك القهوة ؟ » .

— نعم وشربنا ها كلها .

« هذا واضح » ، وكانت عينا الرجل زرقاوين كبيرتين : « لا أريد القهوة بل راسب البن الذى استخدمته . لو كنت ستلقيه . فأعطه لى . ويمكننى أن أغليه مرة ثانية » .

« نعم . طبعاً » . وأعطاه جرير راسب البن . ثم حمل أمتعته وأودعها فى مخزن الأمتعة . وقد توقع نشوب معركة بينه وبين الراهب المتحذلق . ولكنه وجد الراهب الآخر ذا الأنف الحمراء . وكانت تفوح منه رائحة النبيذ المقدس ولم يقل هذا شيئًا .

* * *

جلس حارس البيت فى مسكنه الواقع فى البيت الذى احترق . ولوح لجرير عند ما رآه فتدخل جرير وسأل : « ألديك خطابات » .

— نعم ، لزوجتك ، فالخطاب موجه إلى الآنسة كروزة . ولكن لا بأس خذه ! .

— نعم هاته .

وأخذ جرير الخطاب ولاحظ أن حارس البيت يرمقه بغرابة . فنظر إلى الخطاب وتفحصه ووجده من الشرطة السرية . فقلب الغلاف وكان

ملصقاً بطريقة فهم منها أنه قد فتح . فسأل : « متى ورد الخطاب ؟ » .

— مساء أمس .

وتأمل جريبر الخطاب . وكان متأكداً من أن الحارس قد قرأه . ولذلك فضه ووجده إخطاراً لإليزابيث بالحضور فى الحادية عشرة والنصف صباحاً فنظر إلى ساعته ووجدها دون العاشرة بقليل، فقال : « حسن ، طالما انتظرت هذا الخطاب » .

ووضعه فى جيبه وسأل : « أهناك خطابات أخرى ؟ » .

فسأل الحارس بعينين فضوليتين : « ألا يكفى هذا الخطاب ؟ » .

وضحك جريبر وسأله : « هل بإمكانك أن تدلنا على مسكن خال ؟ » .

— لا . أأنت بحاجة إلى مسكن ؟ .

— ليس لى ولكن لزوجتى .

فقال الحارس دون اقتناع : « هكذا » .

— نعم وأدفع مبلغاً طيباً من المال كمقدم .

فقال الحارس مرة أخرى : « هكذا » .

وذهب جريبر يشعر أن الرجل يتبعه بنظراته خلال النافذة ، فتوقف مبدياً الاهتمام بتأمل سطح المنزل ، ثم عاود السير بعده .

وبعد أن دار حول أول ناصية ، أخرج الخطاب ، مرة ثانية . وكان صيغة مطبوعة ولا يدل على أى شىء بل إن الإمضاء كانت مطبوعة :

ولم يكتب بالآلة الكاتبة غير اسم إليزابيث والتاريخ وقد ارتفعت (الألف) دائماً عن بقية الحروف .

حملق فى الورقة ، وكانت من الصنف الردىء الرمادى ، مستطيلة الشكل . إلا أنها حجبت عنه العالم ، إذ اشتم منها رائحة الموت .

* * *

ووقف أمام كنيسة كاتارين دون أن يدرى كيف وصل إلى هناك ، وسمع خلفه صوتاً هامساً يناديه : « إرنست ! » فاستدار ، ووجد يوسف مرتدياً معطفاً عسكرى الهيئة ، متجهاً إلى الكنيسة دون أن يلتفت إلى جريبر ، وتلفت جريبر حوله ، ثم تبعه بعد دقيقة . فرآه جالساً على مقعد خال قرب الهيكل . وصدرت عن يوسف حركة محذرة فذهب جريبر إلى الهيكل ، وتلفت حوله ، ثم عاد وركع بجوار يوسف الذى همس : « لقد قبضوا على بولمان » .

— ماذا ؟ .

— بولمان ، اعتقله الجستابو صباح اليوم .

ولمحة اختلط الأمر على جريبر . ولم يدر إن كان لاعتقال بولمان صلة بخطاب إليزابيث . فحملق فى يوسف ، ثم قال : « حتى بولمان أيضاً » .

فتفحصه يوسف بسرعة وسأل : « ومن غيره ؟ » .

— وصل لزوجتى استدعاء من الجستابو .

— ومتى ستذهب ؟ .

— اليوم صباحاً فى الحادية عشرة والنصف .

— أمعك الاستدعاء ؟ .

— نعم ، ها هو ! .

وسلمه الخطاب وسأل : « كيف حدث هذا لبولان ؟ » .

— لا أدرى ، إذ لم أكن هناك ، وعندما عدت ، رأيت حجراً مقلوباً لم يكن على وضعه القديم . فعرفت منه كل ما حدث ، إذ قلبه بولان عندما مر به . وكانت هذه واحدة من علاماتنا . وبعد ساعة رأيت كتبه محملة على عربة .

— أكان لديه بالمنزل ما يدينه ؟ .

— لا أظن ذلك . فالأشياء الخطيرة مدفونة كلها فى مكان ما ، ومعها علب الطعام المحفوظ .

ونظر جرينر إلى الورقة فى يد يوسف وقال : « كنت أزمع الآن زيارته ، إذ وددت أن أسأله عما يجب على أن أفعل » .

— لذا أتيت إلى هنا ، فهناك بالتأكيد ضباط الجستابو فى المسكن ينتظرون .

وأعاد إليه الاستدعاء وسأله : « ماذا ستفعل ؟ » .

— لا أدرى ، فقد تسلمته الآن . وماذا كنت تفعل لو كنت مكانى ؟ .

وحملق جرينر فى العتمة التى تتلألأ فيها أضواء الطيكل وقال : « سأذهب أولاً بمفردى وأسأل ماذا يريدون ؟ » .

— لو كانوا يريدون زوجتك فلن يخبروك بشىء » .

وأحس جرينر بالبرودة تسرى فى عنقه ، فقد كان يوسف واقعياً محضاً . وقال جرينر بدون اقتناع : « لو أرادوا زوجتى ، لقبضوا عليها ، كما صنعوا مع بولان . لا بد أن هناك أمراً آخر . لذلك سأذهب . ربما لم يكن الأمر هاماً ومن الخطأ فى هذه الحالة أن أهرب » .

— هل زوجتك يهودية ؟ .

— لا ! .

— إذن فالأمر مختلف . فاليهود هم الذين يهربون دائماً . ألا يمكن أن تغادر زوجتك المدينة فى رحلة ؟ .

— لا ، فهى مكلفة بعمل . وهذا أمر معروف .

وفكر يوسف : « من المحتمل ألا يقبضوا عليها ، معك حق فى هذا إذ فى إمكانهم فعل ذلك مباشرة ، ألم تفكر فى سبب استدعائها ؟ » .

— والدها فى معسكرات التعذيب . والمرأة التى كانت تقطن معها بإمكانها أن ترشد عنها . وربما لفت زواجنا نظرهم إليها » .

وفكر يوسف ثانية وقال : « اعدم كل ماله علاقة باعتقال والدها ! أعنى الخطابات والمذكرات وما شابهها . ثم اذهب إليهم بمفردك ، كما أردت أن تفعل ، ألم ترد ذلك ؟ » .

— نعم ، وسأقول إن الخطاب لم يرد إلا اليوم . وإنني لم أستطع الاتصال بها في المصنع .

— هذا أفضل شيء . وحاول أن تعرف الموضوع ! ولن يصيبك شيء . إذ يتحتم عليك أن تعود إلى الجبهة . وليس بإمكانهم أن يعطلوك عن هذا . ولو أردت محيا لزوجتك فبإمكاني أن أعطيك عنواناً . ولكن اذهب أولا وأنا هنا إلى ما بعد الظهر .

وتردد يوسف لحظة ثم قال : « في كرسي الاعتراف الخاص بالأب بيلدين ديلك . هنالك حيث اللافتة معلقة ومكتوب عليها « غير موجود » . وهذا يتيح لي فرصة النوم بضع ساعات » .

* * *

نهض جريبر . وأمام الباب صدمه الضوء بعد عتمة الكنيسة الرطبة . وأحس وكأنما اخترقه الضوء وكشف دخيلته ، أو كأنه أمر من أمور « الجستابو » . فسار في الشوارع ببطء وكأنه يسير داخل ناقوس زجاجي وقد بدا كل ما حوله فجأة غريباً وبعيداً عن متناول يده . وتخيل الاطمئنان النفسي متجسداً في سيدة تسير حاملة ، طفلاً على ذراعها ، مما أثار في نفسه الحسد المؤلم لهذه السيدة . وتخيل الرجل الجالس على مقعد يتصفح جريدته . مثالا لراحة البال التي لا يمكن أن يتوصل هو إليها . والأفراد الذين تحدثوا متضاحكين ، كائنات من عالم آخر انقضى ولن يعود . فهو الوحيد الذي خيمت عليه ظلال الهم المظلمة

وعزلته عن الباقين ، وكأنه مريض بالطاعون .

دخل مبنى الجستابو وأطلعهم على الاستدعاء ، فوجهه أحد رجال الجستابو إلى ممر في جناح خالي ، امتلأ برائحة الملفات والمكاتب والهواء غير المتجدد . وانتظر في غرفة بها ثلاثة أشخاص . وقف أحدهم بجوار النافذة المطلة على الفناء واضعاً يديه خلف ظهره ، وكانت أصابع يده اليمنى تنقر على اليد اليسرى نغمات موسيقية ، بينما جلس الآخران على مقعدين وقد حملق كل منهما أمامه . وأحدهما أصلع ، مقطوع الشفة ، يحاول بيده دائماً أن يخفيها . والآخر ذو شارب هتلري ووجه إسفنجي شاحب . وعندما دخل جريبر اتجه إليه الجميع بسرعة ، ثم حولوا نظراتهم بعد ذلك بعيداً عنه .

ودخل واحد من رجال الجستابو يرتدي نظارة ، فنهض الجميع واقفين . وكان جريبر أقربهم إلى الباب ، فسأله رجل الجستابو بقليل من الدهشة : « وأنت ماذا تريد ؟ » إذ أن الجنود يخضعون عادة للمحاكمة العسكرية .

فأخرج جريبر الخطاب المرسل إلى زوجته ، وقرأه هذا وقال : « هذا ليس موجهاً إليك وإنما إلى آنسة تدعى كروزة » . . .

— إنها زوجتي ، وقد تزوجنا منذ بضعة أيام . وهي تعمل الآن في مؤسسة حكومية وظننت أن بإمكاني أن أنوب عنها في هذا .

ثم أخرج قسيمة الزواج وكان قد أحضرها معه من باب الحذر

(فهرش) رجل الجستابو أذنه متردداً ، ثم قال : «حسن لا مانع عندى. توجه إلى الغرفة رقم ٧٢ فى الطابق تحت الأرض !» .

وأعاد الورقة إلى جريبر الذى فكر : الطابق تحت الأرض ، إنه الطابق ذو الشهرة السيئة فى الإشاعات المترددة عن طوابق إدارة الجستابو .

وهبط السلم ، وصادف اثنين يصعدان ، فرمقاه بنظرة حاسدة إذ ظنا أنه قد حسم مشكلته وعائد إلى حياة الحرية ، بينما لا تزال أمامهما مشاكل لم تحل .

وكانت الغرفة ٧٢ قاعة كبيرة ذات أرفف مليئة بالملفات ومقسمة إلى مكاتب . فتسلم أحد الموظفين خطاب جريبر بملل . وشرح له جريبر سبب حضوره وأخرج أوراقه مرة ثانية . فأومأ الموظف وسأل : «أيمكنك أن توقع بدلا من زوجتك ؟» .

— نعم .

ودفع الموظف ورقتين عبر المنضدة وقال : «وقع هنا واكتب تحت التوقيع «زوج إليزابيث كروزة» وبجانبه التاريخ واسم مكتب السجل المدنى الذى عقد به الزواج ! أما الورقة الثانية فاحتفظ بها !» .

ووقع جريبر . لم يرد أن يظهر أنه قرأ المطبوع على الورقة . ولكنه لم يرد كذلك أن يوقع وهو مغمض العين . وشغل الموظف فى هذه الأثناء بالبحث فى أحد الرفوف . وأخيراً صاح : «يا لعنة ! أين الرماد ؟ لقد

عبثت ثانية بالملفات يا هولمان ، احضر اللفافة المكتوب عليها كروزة !» .

وهمهم أحدهم خلف الحاجز الذى يقسم القاعة . وقرأ جريبر أنه وقع على استلام رماد جثة الطبيب المعتقل كروزة . وكانت الورقة الثانية سجلاً عليها أنه مات بسبب ضعف فى القلب .

وذهب الموظف خلف الحاجز ، وعاد بعلبة سيجار ملفوفة بقطعة ورق صغيرة ، ومحاطة بشريط وعلى الجوانب كلمة «كلارو» وقد ظهر جزء من الغطاء فاتح اللون أحمر ذهبي . وهو شعار عسكرى ابتكره أحد مدخنى الغليون الشنود .

وقال الموظف وهو ينظر إلى جريبر نظرة نصف نائمة : «ها هو الرماد ! ولست بحاجة لأن أخبرك . فأنت جندى تدرك أن المطلوب منك هو الصمت التام . وممنوع عليك أن تعلن عن موته ، لا فى الجرائد ولا فى أى إعلان بريدى ! ولا تنظم أية جنازة ! إلى الصمت . مفهوم ؟» .

— نعم .

وأخذ جريبر علبة السيجار وذهب .

* * *

أدرك جريبر فوراً أن عليه ألا يذكر لإليزابيث أى شيء . وأن يترك الأمر إلى أن تحين فرصة لإخبارها . فالمفروض ألا يقوم الجستابو بالإخطار بمثل هذا الشيء مرتين . . . وكفى أنه سيتركها بمفردها . فإطلاعها على موت والدها قسوة لا مبرر لها .

وعاد متباطئاً إلى كنيسة كاثرين . وكانت الشوارع قد امتلأت فجأة بالناس، إذ لم يعد أحد يتوقع حدوث غارة أخرى فى هذا الوقت . وفكر فى الموت ، ولكنه موت إنسان غريب عليه ، إذ عرف والد إليزابيث فقط عند ما كان جرين طفلا .

وأحس بالصندوق تحت إبطه . ربما لم يكن هذا رماد كروزة ، إذ بإمكان هولمان أن يغيره بسهولة ، بل إنه يعتقد أنهم فى معسكرات التعذيب لا يهتمون بمثل هذا ، فمن المستحيل فى حالة الحرق الجماعى أن يميز الإنسان رماد هذا من ذاك . وأى واحد من القائمين بالحرق يتناول حفنتين من الرماد ويضعهما فى الصندوق ويلفهما ، هذا كل ما فى الأمر . ولم يفهم جرين ، لم صنعوا هذا . إذ هو خليط من الوحشية والبربرية ، مما يجعل الوحشية أكثر توحشاً .

وتدبر ، ماذا يصنع بالرماد ، بإمكانه أن يدفنه فى مكان ما بين الأنقاض ، والفرص الكثيرة متاحة له . بل بإمكانه أن يدفنه فى إحدى المقابر ، إلا أنه سيحتاج إلى تصريح دفن ، وإلى مقبرة وستعرف إليزابيث بالخبر .

* * *

دخل الكنيسة ووقف أمام كرسى الاعتراف الخاص بالراهب بيلدين ديك . وكانت اللافتة « غير موجود » قد اختفت . ودفع الستار الأخضر جانباً فحملق فيه يوسف ، وكان يقظاً جالساً بطريقة تمكنه من أن يدفع

قدمه فى بطن جرين ويجرى فوراً . وجاوزه جرين وذهب إلى المقعد القريب من الهيكل . وتبعه يوسف بعد هنيهة . . . فأشار جرين إلى صندوق السيجار :

— هذا هو الموضوع ، رماد أبيها .

— ولا شىء غير هذا ؟ .

— هذا يكفى . هل عرفت شيئاً عن بولان ؟ .

— لا .

ونظر الاثنان إلى الصندوق فقال يوسف : « صندوق سيجار . فى العادة يستخدمون صناديق من الورق المقوى ، أو علباً من الصفيح أو حقائب من الورق . وصندوق السيجار يقوم مقام صندوق الدفن . أين تريد أن تضعه ؟ هنا فى الكنيسة ؟ » .

وهز جرين رأسه فقد خطرت بباله فجأة فكرة أرشدته إلى ما يمكن أن يفعله . فقال : « فى بستان الصليب ، فهو مدفن أيضاً » .

وأومأ يوسف فسأل جرين : « أيمكننى أن أؤدى لك خدمة أخرى ؟ » .

— نعم ، باستطاعتك أن تخرج من الباب الجانبى وترى إن كان فى الطريق ما يثير الشك ، إذ على أن أرحل الآن ، فالراهب عدو السامعين يبدأ عمله فى الواحدة بعد الظهر . وإن لم تعد فى ظرف خمس دقائق ، فعنى هذا أن الطريق آمن » .

— حسن .

ووقف جرير فى الشمس ، وبعد برهة خرج يوسف من الباب ومر بجوار جرير وهمس : « أتمنى لك كل خير ! » .

— وأنا أيضاً ! .

* * *

وعاد جرير إلى بستان الصليب ، وكان خالياً فى هذا الوقت من النهار . وشاهد فراشتين صفراوين وعلى أجنحتهما نقط حمراء تدوران حول فرع يحمل زهوراً بيضاء صغيرة ، قد نبتت بجوار قبر شهيد الكنيسة « الويسيوس بليمر » ، فاقترب جرير وتفحص المكان . ووجد ثلاثة قبور هابطة . أما قبر بليمر فقد هبط بحيث خلق جحراً يمتد أسفل التربة المتزرعة بالحشائش ويؤدى إلى القبر . ورأى فى الجحر مكاناً طيباً .

كتب ورقة بين عليها أن هذا الصندوق يحتوى رماد جثة أحد الكاثوليك المسجونين فى معسكرات التعذيب . وتركها لتنفع فى حالة ما إذا اكتشف أحدهم الصندوق ، وذلك بعد أن وضعها تحت الغلاف الذى المحيط بها . ثم قطع بمطواة جزءاً من الحشائش حتى يتسع الجحر للصندوق ، ودفعه بحذر إلى الداخل ، ونهض بعد أن دفع التراب ثانية داخل الجحر وغطاه بالحشائش . . . ها قد وجد برنارد كروزه مكاناً فى أرض مقدسة بجوار كنيسة مقدسة — هذا إن كان هو حقاً برنارد كروزة .

وعاد جرير وجلس على حائط ممر الصليب . وكانت الأحجار دافئة من أشعة الشمس وفكر . ربما ارتكبت خطيئة ، بل ربما لم يكن هذا أكثر من تعاطف زائد عن الحد . فقد كان برنارد كروزة كاثوليكياً . ويحرم على الكاثوليك أن تحرق جثثهم بعد الموت . ولكن على الكنيسة فى هذه الظروف أن تتغاضى عن هذا . وفكر أيضاً . حتى لو كان الصندوق ممتلئاً برماد آخرين غير كروزة ، فنهم الكاثوليكى والإنجيلى واليهودى من مختلف الضحايا ، فلن يكون فى هذا أى بأس . فلا إله اليهود ولا رب الإنجيليين ، ولا رب الكاثوليك يعارضون هذا .

ونظر إلى القبر الذى احتوى الصندوق . وكأن الصندوق بيضة عصفور وضعت فى عش . لم يحس طوال هذه الفترة بشىء . أما الآن وبعد أن انتهى كل شىء فقد أحس بمرارة عميقة لا حد لها . مرارة أكثر من مجرد تلك الناجمة عن التفكير فى الإنسان الميت . إذ امتد تفكيره فشمل بوتان ، ويوسف ، وكل البؤس الذى عاناه ، والحرب ، ثم قدره هو أيضاً .

ونهض . لقد شاهد فى باريس النصب التذكارى للجندى المجهول ، ينتصب رائعاً تحت قوس النصر الذى سجلت عليه أكبر معارك فرنسا . وأحس كأن الأرض المائلة المغطاة بالحشائش ، بما عليها من لوحة تحمل اسم الشهيد بليمر ، وصندوق السيجار فى باطنها أشبه بقوس النصر . بل حتى أكبر من قوس النصر . رغم أنها بدون ألوان قوس قزح

الدالة على النصر وبطول سجل للمعارك .

* * *

وسألت إليزابيث : « أين تنام الليلة ؟ في الكنيسة ؟ » .

— لا فقد حدثت معجزة . إذ كنت عند السيدة فيته ولديها غرفة خالية . فقد رحلت ابنتها منذ بضعة أيام إلى الريف . وبإمكاننا أن نبيت هناك . بل بإمكانك أن تحتفظي بالغرفة بعد رحيلي . وقد نقلت كل الأمتعة . هل وافقوا على منحك الإجازة ؟ .

— نعم ولن أتركك لأذهب إلى المصنع وسوف لا تضطر لانتظاري .

— حمداً لله ! سنحتفل اليوم بهذا . لنسهر الليلة بطيئاً وننام غداً حتى الظهر .

— نعم لنجلس في الحديقة إلى أن تظهر كل النجوم . ولكن هيا لنسرع بشراء قبعة فهذا أنسب يوم لذلك .

— وماذا تصنعين اليوم بالقبعة ؟ أترتدينها هذا المساء في الحديقة ؟ .

وضحكت إليزابيث : « ربما . ولكن ليس هذا هو المهم . المهم أن أشتريها . فهي مسألة رمزية والقبعة كالعلم . يشتريها الإنسان إن كان سعيداً أو حزيناً . ألا تعرف هذا ؟ » .

— لا . ولكن هيا لنشتر القبعة كي تحتفي بحريتك . فهذا أهم

الآن من العشاء . أما زالت هناك متاجر مفتوحة ؟ ألست بحاجة لبطاقة التموين لشرائها ؟ .

— لدى بطاقة التموين . وأعرف المتاجر التي تبيع القبعات .

— حسن . سنشتري قبعة تناسب الرداء الذهبي .

— هذا الرداء لا يحتاج القبعة فهو رداء للسهرة . سنشتري أية قبعة من ضرورية . وبذا نكون قد انتهينا من المصنع .

* * *

وأمكن رؤية جزء من نافذة العرض . أما الباقي فقد غطى بألواح خشبية . ونظرا إلى الداخل فوجدا قبعتين . واحدة مزينة بزهور صناعية . والأخرى بريش ملون . وتأملهما جريبر متشككاً فهو لا يتصور إليزابيث في واحدة من هاتين . ثم رأى سيدة بيضاء الشعر تزمع أن تغلق المتجر فقال : « هيا لنسرع ! » وأدخلتهما صاحبة المتجر إلى غرفة مظلمة خلف المتجر . وبدأت على الفور حديثاً مع إليزابيث لم يدرك منه شيئاً . فجلس على مقعد ذهبي رقيق بجوار الباب . وأضاءت السيدة النور أمام مرآة . وأحضرت القبعات . وأخرجتها من صناديقها . فتحول المتجر أمامه فجأة إلى كهف سحري اشتعلت فيه القبعات الحمراء والزرقاء والبيضاء .

وفي وسط كل هذا لمع المشمس الملون وجعل القبعات تبدو كتيجان

يقيس الناس ما يناسبهم منها استعداداً لحفل غامض . وتحركت إليزابيث هنا وهناك أمام المرآة ، غارقة فى الأضواء ، وكأنها بزغت من صورة تجمعت خلفها عتمة الغروب التى شملت بقية الغرفة . وجلس جرير ساكناً يتأمل المنظر ، الذى بدا له بعد كل ما صادفه ، منظراً غير حقيقى . إذ رأى إليزابيث لأول مرة متحررة تماماً من الزمن ، غارقة فى ذاتها ومندمجة فى لعبة عميقة غير مفهومة ، تسبح فى بحر من الضوء والحنان والحب ، جادة ومنتبهة كصائد يجرب سلاحه استعداداً لمعركته .

وسمع النقاش المنخفض الدائر بين المرأتين ، دون أن يبذل جهداً للاستماع ، فقد كان الصوت كخرير المياه المتدفق برفق من أحد الينابيع . ورأى دائرة النور المحيطة بإليزابيث ، وكأن اليزابيث هى التى تشع هذا النور فأحبها واشتهاها ، ونسى كل ما عداها فى هذه السعادة الساكنة التى يقبع خلفها ظل الضياع ، مما يعمقها ويزيدها بريقاً ، ويجعلها غالية وزائلة ، كانعكاسات الأضواء على نسيج الحرير والدمقس .

وقالت إليزابيث : « أريد قلنسوة ، قلنسوة ذهبية اللون بسيطة تحيط بالرأس تماماً » .

الفصل الرابع والعشرون

وامتلأت النافذة بالنجوم وأحاط نبات العنب البرى بإطار النافذة وتدلى منه عنقودان يتأرجحان وكأنهما « بندولا » ساعة صامتة .

وقالت إليزابيث : « إننى حقاً لا أبكى . . . وإن بكيت فلا تهتم ، لست أنا التى تبكى ، وإنما شىء فىّ يريد أن يخرج . وأحياناً لا يجد المرء أمامه إلا أن يبكى ، ولا يكون هذا حزناً . فأنا سعيدة .

ونامت على ذراعه ووضعت رأسها على كتفه ، وكان السرير عريضاً ومصنوعاً من خشب الجوز الداكن ، كما كان طرفا السرير مرتفعين والخشب مقصوصاً بشكل متحن . وفى ركن الغرفة صوان من خشب الجوز والمقعدة أمام النافذة يحيط بها مقعدان . وعلى الحائط صندوق زجاجى يحتوى على إكليل عروس من زهور الريحان الصناعية . وفى الحائط المقابل للنافذة مرآة تعكس صورة داكنة لأفرع العنب وللضوء الخافت المتأرجح بالخارج .

وقالت إليزابيث : « أنا سعيدة فقد حفلت هذه الأسابيع الأخيرة بالأحداث لدرجة لم أستطع أن أستوعبها كلها داخلى . . . لقد حاولت ولكن لم أنجح وعليك الليلة أن تتذرع بالصبر معى » .

— وددت الليلة لو ذهبت بك خارج المدينة إلى أية قرية .

— سواء عندى أينا أكون طالما أنت بعيد عنى .

— لا . ليس الأمر سواء . فالقرية لا تضرب بالقنابل .

— سيكفون يومًا ما عن إلقاء القنابل ، فلم يعد فى مدننا شىء لم يدمر . ولا أستطيع أن أبرح المدينة إذ على أن أعمل فى المصنع . وأنا سعيدة بعثورى على هذه الغرفة الساحرة وعلى السيدة فيته .

واستعاد نفسها بعض الهدوء وقالت : « ها قد تغلبت على هذه الحالة . فلا تعتبرنى هستيرية . إذ أننى سعيدة . ولكنها سعادة متأرجحة وليست سعادة غبية حمقاء كسعادة البقر » .

فاستنكر جريبر : « سعادة البقر ؟ ! ومن يريد هذه السعادة ؟ » .

— لا أدرى . ولكن بإمكانى أن أتحمل قدراً كبيراً منها ولفترة طويلة .

— وأنا أيضًا . ولكنى لا أريد أن أسلم بهذا ، إذ ليس بإمكاننا أن نحصل عليها حاليًا .

— عشر سنوات آمنة مليئة بسعادة الطبقة المتوسطة التى تسير على وتيرة واحدة أترى كثير علينا أن تستمر الحياة كلها على مثل هذه السعادة ؟ . . .

وضحك جريبر : هذا سببه أننا نحيا هذه الحياة المقلقة الملعونة .

أما أجدادنا فكانوا يفكرون بطريقة أخرى ، كانوا يتوقون لحياة المغامرات ويكرهون سعادة البقر التى يتمرغون فيها .

— ولكننا لا نكرهها فقد عدنا بشراً بسطاء تعتمل فى نفوسنا رغبات وأمان بسيطة . ثم نظرت إليه وقالت : « ألا تريد الآن أن تنام ليلة كاملة نومًا متواصلا ؟ من يدرى متى تتاح لك هذه الفرصة بعد أن ترحل غداً إلى الجبهة ؟ » .

— بوسعى أن أنام وأنا فى الطريق . فالطريق يستغرق يومين حتى نصل .

— أتنام فى سرير ؟ .

— لا ، فأقصى ما أتوقعه ابتداء من الغد بضعة ألواح خشبية . وقد أمرّ من حين لآخر على كيس من القش . والمرء يعتاد هذا الأمر بسرعة . . . لا بأس ، فنحن مقدمون على الصيف ، وروسيا فى الشتاء فظيعة .

— ربما اضطررت للبقاء شتاء آخر فى روسيا .

— إذا واصلنا التقهقر بهذه السرعة ، فسنصل فى الشتاء القادم إلى بولندا بل ألمانيا نفسها . وفى هذه الحالة لن نعانى من البرودة ما عانيناه فبرودة ألمانيا عرفناها وألفناها .

وفكر جريبر : ستسألنى الآن عن موعد الإجازة القادمة . وددت لو انتهى كل هذا . فأمامها أن تسأل وعلى أن أجيب . آه لو انتهى هذا

الأمر ؟ . وأنا لست هنا بجماع نفسى ، فالجزء الموجود أحس به وكأنه لا جلد له ولذا فأنا غير معرض لأى جراح . إلا أن هذا الجزء أكثر حساسية من جرح لم يلتئم ، ونظر إلى عناقيد العنب التى تتأرجح أمام النافذة ، والظلال المتأرجحة المرسومة على صفحة المرآة ، فضية تارة وداكنة تارة أخرى ، وأحس كأن سراً غامضاً يختفى وأن عليه فى اللحظة القادمة أن يكشف مكنون نفسه .

ثم سمعا صفارة الإنذار . فقالت إليزابيث : « لنبق هنا . لا أريد أن أرتدى ملابسى وأركض إلى المخبأ .

— حسن .

وذهب جريبر إلى النافذة وأزاح المنصفة جانباً ، ثم نظر إلى الخارج فرأى الليل زاهياً ساكناً ولمعت الحديقة تحت أضواء القمر . . . كانت ليلة رائعة تصلح للأحلام كما تصلح للغارات الجوية . ثم شاهد السيدة ﻟﻴﺒﻪ تخرج من الباب شاحبة الوجه . ففتح النافذة وصاحت هى وسط ضوضاء الغارة : « أردت أن أوقظكما » ، فأومأ جريبر ، وسمعها تقول : المخبأ فى شارع ليستر ! » . فلوح لها ثم رآها تعود ثانية إلى المنزل . فانتظر لحظة ، ولكنها لم تخرج بل ظلت هى أيضاً . فلم يندهش .

وأحس كأن هذا أمر طبيعى . فهى ليست بحاجة إلى الذهاب ، فالحديقة والمنزل تحميهما رقية سحرية غير معروفة . ولهذا ساكنين بعيدين عما يجرى فوقهما . كما سكنت الأشجار وافترشت الضياء الفضية الباهتة

الأرض المزروعة بالخشاش . وحتى عناقيد العنب قد كفت هى الأخرى عن التأرجح . وهكذا استقرت جزيرة السلام تحت أشعة القمر وكأنها موضوعة فى مخبأ زجاجى يقيها سيل الدمار .

* * *

واستدار جريبر ، ونهضت إليزابيث جالسة فى الفراش . وقد لمع كتفاها لمعاناً باهتاً . وامتلأ مكان الاستدارة بظلال رقيقة بينما تبدو ثدياها ذا جرأة ، وقد ظهرا أكبر مما هما فى الواقع . وكان فمها غارقاً فى الظلام ومظلماً وكانت عيناها نفاذتين وبدون لون تقريباً . ولوت إليزابيث ذراعيها على الوسادة خلفها واستقرت جالسة وكأنها إنسان قدم فجأة من مكان بعيد جداً . بقيت اللحظة غريبة هكذا ، ساكنة وغامضة ، تماماً كالحديقة التى تنعم فى الخارج بضوء القمر وتستمتع بدمار العالم .

وقال جريبر : لقد بقيت السيدة ﻟﻴﺒﻪ هى الأخرى .

— تعال ! .

وأثناء ذهابه إلى الفراش شاهد وجهه فى المرآة الفضية الداكنة فلم يتعرف عليه . كان وجه إنسان آخر . ونادته إليزابيث ثانية : « تعال ! » .

فانحنى عليها ولفت ذراعيها حوله وهمست : « ليحدث الآن ما حدث » .

فأجاب : « لا يمكن أن يحدث شيء . لن يحدث شيء هذه الليلة » . ولم يدر من أين له هذا اليقين . وكان لهذا اليقين علاقة بالحديقة وأشعة القمر والمرآة وكتفي إيزابيث وإحساس ملأه بالراحة التامة . . وردد ثانية : « لن يحدث شيء » .

فأمسكت إيزابيث بغطاء السرير وألقت به على الأرض . ورقدت عارية وقد انثنى فخذاها من عجزها . وكانت الساقان طويلتين قويتين . أما الجسم الذي ارتفع من الكتفين إلى الصدر فقد انخفض عند البطن باستواء . ولم يكن عجزها نحيفاً بل ظهر ممتلئاً محيطاً يحاكي مثلث الحوض . كان جسم سيدة صغيرة ولم يعد جسم آنسة .

وأحس بها بين ذراعيه . فانزلقت نحوه وكأن آلاف الأيدي تمسك به وتحمله . ولم تعد بين الاثنين مسافة . إذ انطبق كل جسم على الآخر بإحكام . أصبح إحساسهما يختلف عن إحساس الأيام الأولى المليئة باللهفة والقلق . إذ كان ارتفاعاً تدريجياً عصف بكل شيء واكتسح الكلمات والحدود والأفق بل والنفس ذاتها .

ورفع رأسه وعاد إلى نفسه ثانية وركز حواسه . ولم يدر كم غاب عن نفسه فقد سكن كل شيء بالخارج : وظن أنه مخدوع فبقي راقداً يتسمع . ولكنه لم يسمع شيئاً . لم يسمع انفجارات ولا قنابل ولا طلقات مدافع . فأغلق عينيه وانحدر في سريره . ثم استيقظ ثانية وقال : « لم تأت الطائرات يا إيزابيث » .

فهمست : « بل أنت » .

ونام كل منهما بجوار الآخر وشاهد جريير سقف الغرفة وأرضها ، ثم المرآة والنافذة المفتوحة . وظن أن الليلة لا تنتهي . ولكنه أحس بزحف الزمن البطيء يبدأ من جديد وسط الهدوء والسكون . وعادت عناقيد العنب إلى التأرجح في الريح أمام النافذة ، وبدأت ظلالها تروح وتجيء على صفحة المرآة . ووصلت أصوات آلية من بعيد . فنظر إلى إيزابيث ووجدها مغلقة العينين مفتوحة الفم ، وتتنفس بعمق وهدوء . إذ لم تعد بعد إلى إدراكها . وعاد يفكر ثانية : إنها دائماً تغيب عن حواسها مدة أطول منه . وهو يحسدها على هذا ، ويحبها لأجله . بل إن هذا الشيء يفزعه أيضاً . فهي قد ذهبت إلى مكان ما لا يستطيع أن يتبعها إليه ، أو لا يستطيع أن يتبعها طول الطريق . وربما كان هذا ما يفزعه . وأحس بالوحدة واجتاحه بطريقة غريبة شعور بأنه أقل من غيره .

* * *

وفتحت إيزابيث عينيها وسألت : « ماذا جرى للطائرات » .

— لا أدري .

فأزاحت شعرها إلى الخلف وقالت : « أشعر بجوع شديد » .

— وأنا أيضاً . لدينا طعام كثير .

ونهض جريير وأحضر الطعام المحفوظ الذي جلبه من منزل بيندنج

وقال : لدينا دجاج ولحم بقرى صغير ، بل وأرنبة وفاكهة مطبوخة أيضاً .

– دعنا نأكل الأرنب والفاكهة المطبوخة .

وفتح جريبر الزجاجات وكان يفضل ألا تساعده إليزابيث ، بل تبقى راقدة ومنتظرة . فهو لا يحتمل النساء اللاتى يتحولن فجأة وبسرعة من الجو النفسى الذى كان يغمرهن بالسحر والغموض إلى سيدات بيوت .

وقال : « إننى لأخجل دائماً من أشياء الفونس هذه ، إذ تصرفت معه تصرفات غير لائقة » .

– وتصرف هو ولا شك ، تصرفات غير لائقة مع الآخرين . الأمر متعادل إذن . هل اشتركت فى تشييع الجنازة ؟ .

– لا ، فقد امتلأت بالكثيرين من أعضاء الحزب ، يرتدون أزياءهم الرسمية ، فلم أصحبهم . ولكننى بقيت حتى سمعت رثاء القائد هيلدا برانت . وقد قال : « إن علينا أن نقلد الفونس ونحقق رغبته الأخيرة » . وقصد بذلك قتال العدو إلى النهاية ، ولكن لم تكن هذه هى رغبة بيلديج الأخيرة ، إذ كان فى القبو مرتدياً قميص نومه مع سيدة شقراء ترتدى قميص نومها .

وأخرج جريبر اللحم والفاكهة المطبوخة فى طبقين أعطتهما إياه

السيدة قبته . ثم قطع الخبز ، وفتح زجاجة النبيذ ، فنهضت إليزابيث ووقفت أمام السرير ، فقال جريبر : « لا تبدين كفتاة تنحنى منذ شهور لتخيط معاطف الجند بل كسيدة تمارس تدريبات رياضية يومياً » .

– تدريبات رياضية ؟ يقوم الإنسان بهذه التدريبات عند ما يكون يائساً .

– حقاً ؟ لم يخطر هذا ببالى أبداً .

– فى حالة اليأس تقوم بالتدريبات حتى تسقط إعياء ، ثم تجرى حتى تعجز عن الحركة ، وتنظف الغرفة عشر مرات وتمشط شعرك حتى يدمى . . . وهكذا .

– أيفيد هذا فى شىء .

– يفيد . ولكنه لا يجدى فى حالة اليأس التام . يفيد عند ما ترغب فى التوقف عن التفكير . أما فى حالة اليأس التام فليس أمامك غير أن تسقط .

– وبعد ذلك ؟ .

– تنتظر حتى تأتى الحياة عند يطفو بك ثانية . أقصد الحياة التى تجعلك تتنفس ، لا تلك التى تجعلك تعيش .

ورفع جريبر كأسه وقال : « أظن أننا نعرف عن اليأس أكثر مما يتناسبه عمرنا . ونريد أن ننسى هذا » .

فقالت إليزابيث : « ونعرف أيضاً الكثير عن النسيان ونريد أن ننسى هذا أيضاً .

— حسن ، فى صحة السيدة كلايثرت التى طبخت هذا الأرنب .

— وفى صحة السيدة فيته التى أعطتنا الحديقة وهذه الغرفة .

وأفرغا كأسيهما . وكان النبيذ بارداً ، ممازجاً وحسن المذاق . فأعاد جرير ملء الكأسين ، وقد انعكس فيهما القمر ذهبياً ، وقالت إليزابيث « يا حبيبى ! رائع حقاً أن يظل الإنسان ليلة يقظاً . فالليل يجعل الحديث أكثر رقة وعلوية » .

— هذا صحيح . فأنت بالليل ملك صغير ممتلىء عافية . ولست خائفة معاطف عسكرية . كما أنى لست جندياً .

— يا ليل يكون الإنسان ما يود أن يكونه لا ما صار إليه .

— « وربما » ونظر جرير إلى الأرنب والفاكهة المطبوخة والخبز : « الليل يصنع منا أناساً سطحيين لا هم لهم غير الأكل والنوم .

— والحب أيضاً ، وهذا أمر ليس سطحياً .

— والشراب .

« والشراب » ، قالتها إليزابيث وهى تقدم له كأساً .

وضحك جرير : « كان علينا الآن أن نكون محزونين مهمومين ، ونتخوض فى أحاديث عميقة . ولكننا بدلا من هذا كله أكلنا نصف أرنب ونجد الحياة رائعة ونحمد الله » .

— هذا أفضل . ما رأيك ؟ .

— ليس أمامنا غير هذا . فالإنسان غير الطموح الذى لا مطلب له فى الحياة ، يجد كل شىء هدية ونعمة .

— هل تعلمت هذا فى ميدان القتال ؟ .

— لا ، بل هنا ! .

— طيب ، وهو كل ما نحتاج إلى تعلمه ، أليس كذلك ؟ .

— نعم ، والإنسان إلى جانب ذلك ، فى حاجة إلى قليل من الحظ .

— أكنا محظوظين ؟ .

— نعم إذ لدينا كل ما هو موجود .

— أتحسين بالأسى لأن حياتنا معاً انتهت ؟ .

— لم تنته بل تغيرت .

ونظرت إليه فقال : « بل أنا حزين ، حزين حتى لتجلبنى أعتقد أنى سأموت غداً . وعندما أفكر فيما يجب أن يحدث — حتى لا أحس بالحزن — لا أجد غير شىء واحد : ذلك أن أتمنى لو أنى لم أقابلك أبداً كى لا أحس بالتعاسة ، فأسافر شاعراً بالفراغ واللامبالاة . لو فكرت هكذا ما أحسست بالحزن . إنها السعادة السوداء . الوجه الآخر للسعادة .

ونهضت إليزابيث فقال جرير : « ربما لم أحسن التعبير عن نفسى .

أتفهمين ما أقصده ؟ . . .

— نعم فهمت ، ولقد أحسنت التعبير وما كان بإمكانى أن أعبر أحسن من هذا . . . وقد عرفت أنك ستقول هذا .

واقتربت منه فأحس بها ، أحس أن لا اسم لها ، وأن لها كل ما فى العالم من أسماء . وبرق داخله شىء كالضوء لا يطاق ، فعرف أن كل شىء سواء : الفراق واللقاء ، الخسارة والكسب ، الموت والحياة ، الماضى والحاضر . وعرف أن وجه الديمومة الحجرى كائن فى كل مكان . وأن شيئاً لا يمحى . فأحس بالأرض تتكور تحته وتستدير تحت أقدامه . وأنه يجب عليه أن يقفز فى اندفاعه إلى الأمام . فأمسك بإليزابيث وسقط معها فى أحضانها .

* * *

وكان هذا آخر عصر له ، وجلسا فى الحديقة . وتسللت القطة بخفة بجوارهما ، وكانت حبلى مشغولة بنفسها ، لا تعبأ بما حولها . فقالت إليزابيث : « أرجو أن أكون حاملا » .

فحملق فيها جريبر : « حامل ؟ ولم ؟ » .

— ولم لا ؟ .

— أتريدين طفلا ؟ وفى هذه الظروف ؟ أتظنين أنك حامل حقاً ؟ .

— أرجو ذلك ؟ .

ونظر إليها وقال : « أعتقد أن المفروض يا إليزابيث فى هذه المناسبة ، أن أقول شيئاً أو أفعل شيئاً فأنهض لأقبلك وقد هزتنى المفاجأة وغمرنى الحنان لكن لا يمكننى أن أفعل هذا . . . لم أفكر أبداً فى طفل فى هذا الظرف ! .

— وليس من الضرورى أن تفكر فى هذا ، فهو لا يعنيك ، كما أننى لم أتأكد بعد .

— طفل ! يكبر ليكون وقوداً لحرب جديدة ويلقى نفس مصيرنا ! فكرى فى البؤس الذى سيولد فيه ! .

وعادت القطة بخفة قاطعة الطريق إلى المطبخ ، فقالت إليزابيث : « سيولد كل يوم أطفال » .

وفكر جريبر فى منظمات الشباب الهتلرية وفى الأولاد الذين وشوا بآبائهم .

فقال : « ولكن لم نناقش هذا الأمر وهو مجرد أمنية ، إنه أمنية أليس كذلك ؟ » .

— ألا تريد أبداً أن يكون لك طفل ؟ .

— لا أدرى ، ربما أريد ذلك عندما يستقر السلام ، فأنا لم أفكر فى الأمر ، والعالم مسمم حولنا ، مسمم لدرجة ستظل معها الأرض كذلك لسنين طويلة . كيف يريد الإنسان طفلا فى هذه الظروف ؟ .

فقالت إليزابيث : « بل لهذا السبب أريد طفلا » .

— لم ؟ .

— لأعلمه كيف يعارض هذا . إذ ماذا يحدث لو كان كل الناس المعارضين لما هو حادث الآن لا يريدون أطفالا ؟ أيرزق البرابرة فقط دون غيرهم أطفالا ؟ ومن يعيد للعالم نظامه إذن ؟ .

— ألهذا السبب تريدين طفلا ؟ .

— لا ، وإنما خطر لى هذا الآن فقط .

وصمت جريبر ، إذ لم يجد ما يعارض به منطقها فهى على حق ، إلا أنه قال : « إنك تسيرين بسرعة لا يمكننى مجاراتها ، فما كدت آلف نفسى متزوجاً حتى وجدت نفسى فى موقف يحتم على أن أقرر ما إذا كنت أرغب فى طفل » .

وضحكت إليزابيث ، ثم نهضت قائلة : « إنك لم تدرك بعد أبسط ما فى الموضوع ، فأنا لا أريد مجرد طفل ، بل طفلاً منك أنت . وسأذهب الآن لأدبر مع السيدة ﭬيته أمر العشاء ، إذ يجب أن يكون عشاء رائعاً معداً من العلب المحفوظة » .

* * *

وجلس جريبر بمفرده على مقعده فى الحديقة . وكانت السماء ملبدة بالغيوم التى انعكست عليها أضواء الغروب الحمراء . . . فقد مضى النهار ، وكان هذا اليوم مسروقاً ، فقد جاوز إجازته بأربع وعشرين ساعة . ورغم أنه سجل نفسه فى العائدين إلا أنه بقى . والآن ها قد حل المساء وسيرحل فى ظرف ساعة .

كان قد ذهب إلى مكتب البريد ثانية ولم يجد أخباراً من والديه . ورتب ما استطاع ترتيبه من الأمور . فقد أبدت السيدة ﭬيته استعدادها لأن تترك لإليزابيث الغرفة لتقطن فيها . ثم فحص مخبأ المنزل ووجده غير عميق فى باطن الأرض بحيث يضمن السلامة ، إلا أنه متين البناء ، كما فحص المخبأ العام الموجود بشارع ليبشتر ، وكان كغيره من مخابئ المدينة متيناً . ثم مال إلى الخلف بهدوء وسمع قرقعة أوانى الطعام والأطباق تصل إليه من المطبخ . . . .

كانت إجازة طويلة . . . ثلاثة أعوام وليست ثلاثة أسابيع . وبدت له هذه الأيام كأنها لم تكن آمنة تماماً . بل قامت بسرعة وعلى أساس غير متين ، إلا أنه يريد أن يعتقد أنها كانت آمنة .

وسمع صوت إليزابيث وفكر فيما قالته عن الطفل . فأحس وكأن حائطاً قد انهار ، وظهرت فجوة ، تبدى منها المستقبل متأرجحاً ، وكأنه حديقة . ولم يكن جريبر يفكر أبداً فيما خلف الحائط . عندما أتى إلى هنا أراد أن يجد شيئاً يأخذه ويمتلكه ليتركه ثانية قبل أن يرحل ، شيئاً يحمل اسمه وبالتالى كيانه . ولكن لم تكن هناك فكرة عن طفل . وتأمل ضوء الغروب وهو يتخلل فروع شجيرات « الليلاك » . إن الحياة خلف الحائط حياة لا نهائية . ورغم أن حياتنا تتوقف عنده إلا أن فى إمكانها أن تستمر . وهذا الذى أعتبره الآن خطفاً سريعاً ، يمكن أن يكون امتلاكاً هادئاً ، يورث لكائن غريب لم يولد بعد ، بل ما زال

فى عالم الغيب اللانهائى المليء بالحنان ، العالم الذى لم يعرفه أبداً . فا مدى اتساع هذا العالم وما هو كيانه ؟ بل ما مدى رغبته التى تعتمل داخله لامتلاكه أو عدم امتلاكه ؟ لا بل امتلاكه ، امتلاك هذا السراب المريع ، سراب الخلود .

* * *

وقال : « سيرحل القطار فى السادسة ، وقد حزمت كل أمتعتى وعلى أن أرحل ، فلا تصحبينى إلى المحطة . أريد أن يتم الوداع هنا ، وأن آخذ كل أمتعتى من هنا — والوداع من هنا وأنت كما أنت هنا . لا أريد أن تكون آخر صورة فى ذهنى هى صورة الارتباك والتدافع فى المحطة . فقد صحبتنى أمى آخر مرة إلى هناك ، ولم أستطع أن أعارض فى الأمر ، وإن كان فظيعاً بالنسبة لى ولها . ولقد قضيت فترة طويلة حتى تمكنت من التغلب على آثاره ، فآخر صورة علقت بذهنى كانت صورة السيدة المجهدة الباكية التى انساب العرق عليها ، وهى واقفة على رصيف المحطة ، ولم تكن هذه صورة أمى كما هى فى الواقع . . . أتفهمين هذا ؟ » .

— نعم .

— والآن دعينا نفعل هذا ! فلا تصحبينى إلى المكان الذى أكون فيه شخصاً آخر غير ذاتى بل مجرد رقم ، مجرد زى عسكرى ، أحمل أمتعتى كالحمار . أرجو أن يتم الوداع هنا كما نحن الآن . وخذى هذه النقود فقد احتفظت لك بها ، ولن أحتاج إليها فى الجبهة .

— لست بحاجة إلى نقود فأنا أكسب ما يكفينى .

— وأنا ليس بوسعى إنفاقها فى الميدان ، خذيها واشترى بها رداء ! رداء لا فائدة منه ، رداء جميلا يتناسب مع القلنسوة الذهبية التى لديك .

— سأرسل لك بالنقود هدايا ومأكولات .

— لا ترسل شيئاً من هذا ! فلدى من الطعام أكثر مما لديكم هنا . بل اشترى رداء ! فقد تعلمت شيئاً عند ما اشتريت القبعة . عليك أن تشترى بالمبلغ رداء ! غير عملى . غير مفيد بالمرة . ألم أن المبلغ لا يكفى لذلك ؟ .

— بل يكفى . يكفى للرداء ويفيض منه ما يكفى لشراء زوج من الأحذية .

— رائع ! اشترى أيضاً زوجاً من الأحذية الذهبية ! .

فقالت إليزابيث : طيب . أحذية ذهبية ذات كعب عال خفيفة كالريش ، سأرتديها وأطير بها القنابل عند ما تعود .

وأخرج جريبر من حقيبة الميدان صورة أحد القديسين مرسومة بألوان داكنة أراد من قبل أن يهديها لأمه ، ثم قال : احتفظى بهذه الصورة ، فقد عثرت عليها فى روسيا ! » .

— لا يا إرنست ، أعطها لإنسان آخر أو خذها معك ثانية ! وإلا صار وداعاً أبدياً ، خذها معك ! .

وتأمل الصورة وقال : « عثرت عليها فى أحد البيوت المدمرة . ربما لا تجلب الحظ ولكننى لم أفكر فى هذا أبداً » ، ثم وضعها ثانية فى حقيبته وكانت صورة القديس نيكولاوس ولون أرضية الصورة ذهبياً بينما تحيط الملائكة بالقديس .

وقالت إليزابيث : « يمكننى إن أردت ، أن أهديها لأية كنيسة ، للكنيسة التى قضينا بها الليلة . كنيسة كاترين » .

وفكر جرير ، فى الكنيسة التى قضينا بها الليلة . وكانت ذكرى الكنيسة بعيدة جداً ، بينما كانت أمس قريبة تشغل ذهنه . إنها تبدو الآن بعيدة بعداً لا نهائياً . ثم قال : « لن يأخذوها منك . فهذه تمثل مذهباً مختلفاً . وكهنة إله المحبة ليسوا متسامحين » .

وفكر ، لو أنه وضع هذه الصورة مع رماد كروزة فى قبر الشهيد بليمر ! ! !

ولكن ربما كان هذا أيضاً تجديفاً وكفراً .

* * *

ولم يلتفت حوله ، ولم يبطئ أو يسرع فى المسير ، فقد كانت حقيبة الميدان ثقيلة ، والشارع طويلاً . واستدار حول الناصية ثم حول نواص عديدة ، وأحس فى لحظة برائحة شعر إليزابيث ، ولكن حلت رائحة حرائق القنابل ورائحة حرارة بعد الظهر والعفن الذى يتصاعد من التحلل فى الطقس الحار محل رائحة إليزابيث .

وعبر مجرى الماء . وكان جانب من الطريق المحاط بأشجار الكافور قد احترق واسود بينما بقى الجانب الآخر مخضراً . وانسد المجرى فزحف الماء متكاسلا فوق قطع الخرسانة والقش والوسائد وبقايا السلالم والأسرة الملقاة فيه . وفكر ، آه لو حدثت غارة جوية لاختبأت ووجدت العذر فى عدم اللحاق بالقطار . وماذا تقول إليزابيث عند ما تلقانى فجأة أمامها ، وتأمل الأمر ولكن لم يدر ماذا تقول عند ما تراه . ربما تحول كل إحساس طيب جميل إلى ألم . إنه نفس ما يحدث عند ما يتأخر القطار فى القيام نصف ساعة تقضيها فى حديث مرتبك . ولن تفيده الغارة . إذ لن يتحرك القطار أثناءها وإنما سينتظر . عليه أن يلحق به .

ووصل إلى شارع برامشر . هنا بدأ طريقه عند عودته إلى داخل المدينة . وهنا كانت تقف العربة التى حملته . وركب ورحلت العربة بعد عشر دقائق وانتقلت المحطة فى هذه الأثناء مرة أخرى ، وأصبحت سقفاً من القماش المضلع طلى بألوان قصد بها تعمية الطائرات . وفى إحدى الجوانب شدت قطع من القماش رمادية وغرست بجوارها أشجار صناعية . ثم حظيرة صناعية بها أبقار خشبية وحصانان عجوزان خشبيان يرعيان .

وكان القطار واقفاً بجوار الرصيف . تحمل بعض عرباته لافتات كتب عليها « للعسكريين فقط » . وقامت حارسة بمراجعة الأوراق ولم تذكر شيئاً بخصوص تأخر جرير يوماً كاملا . فصعد إلى القطار ووجد مقعداً بجوار النافذة . وبعد فترة ، وصل ثلاثة رجال : صف ضابط

وجاويش برأسه ندبة ورجل مدفعية . وما إن جلس الأخير حتى بدأ يأكل ، وطاف بالرصيف مطبخ ميدان متنقل . وظهرت ممرضتان تحت التمرين ترأسهما ممرضة أكبر سناً وترتدى الصليب المعقوف الحديدى على صدرها وكأنه دبوس للزينة .

وقال صف الضابط : « انظر ، إنهم يصبون القهوة » .

فأجاب الجاويش : ليست لنا ، بل القطار يحمل جنوداً جدداً ذاهبين إلى الجبهة للمرة الأولى . ولقد سمعت بنبأ هذا وعرفت أيضاً أن خطبة ستلقى . أما نحن فلم يعد أحد يفعل معنا هذا .

ثم ظهرت مجموعة من القادرين من الميدان وقد وقفوا فى صفين يحملون الحقائب والصناديق ، وأخذ أحد الجنود يعدهم وهم يحملقون فى غلاية القهوة . ثم ظهر ضابطان من ضباط الحزب النازى يرتديان الأحذية الأنيقة وسراويل الفرسان ، ويذرعان الرصيف مختالين كطيور اللقلق . ودخل ثلاثة آخرون من العائدين من الإجازة . وفتح أحدهم النافذة ومال عليها إلى الخارج ، وقد وقفت أمامه سيدة تحمل طفلا ، فتأمل جريبر الطفل ، ثم المرأة . وكانت رقبتها مليئة بالثنيات والتجاعيد وجفونها ثقيلة وصدرها نحيفاً متهدلا ، وكانت ترتدى ثياباً خفيفة صيفية قد بهت لونها من كثرة الغسيل ، منقوش عليها طواحين هواء زرقاء ، واتضح له كل شىء أكثر من ذى قبل ، اتضح له الضوء وكل شىء رآه .

وقالت السيدة : « آه يا هاينريش » .

— طيب يا مارى . اهتمى بنفسك والقلى تحياتى للجميع ! .

— نعم .

ونظر كل منهما إلى الآخر وصمت ، ثم وقف بعض الجنود فى منتصف الرصيف يحملون آلات موسيقية .

فقال الجاويش : « يا لنبل الأخلاق ! سيتناول الجنود الجدد طعامهم على أنغام الموسيقى . ظننت أنهم توقفوا عن فعل هذا منذ زمن طويل » .

وقال صف الضابط : « آه لو أعطونا بعض القهوة ! إننا على أية حال محاربون قدامى وخارجون للقتال أيضاً ! » .

— انتظر حتى المساء فتحصل على قهوة كالحساء ! .

وسمعوا وقع خطوات عسكرية ، ثم أوامر صادرة . لقد وصل بعض الجنود الجدد . وكان معظمهم صغيراً جداً ، وبينهم اثنان أو ثلاثة أقوياء وأكبر من الباقين سناً . وربما كان هؤلاء من رجال الحزب أو المخابرات ، وقال الجاويش : « كثيرون منهم لم تنبت لحاهم بعد . ما زالوا فتياناً ، إنهم من سنعتمد عليهم فى القتال بالجبهة . » واصطف الجنود الجدد وصاح بهم ضابط الصف ، ثم ساد السكون . وأخذ أحدهم يلقى خطاباً .

فقال الجاويش للرجل الواقف بالنافذة أمام زوجته : « أغلق النافذة ! » .

ولم يجب الرجل . وجلجل صوت الخطيب وكأنه صادر عن أوتار صوتية مصنوعة من الصفيح . ومال جرين إلى الخلف وأغلق عينيه . بينما استمر هايتريش واقفاً بالنافذة . إذ لم يسمع ما قاله الخاويش . ونظر إلى مارى بغباء وحزن وارتباك . وبادلته مارى نفس النظرة وفكر جرين : لقد أحسن صنعاً إذ لم يدع إليزابيث تحضر .

وصمت الخطيب . بينما بدأ رجال الموسيقى الأربعة يعزفون نشيد « ألمانيا فوق الجميع » . ونشيد « هورست – ويسيل » . عزفوا النشيدين بسرعة . لم يعزفوهما كاملين بل مقتطفات منهما . ولم يتحرك إنسان فى عربة القطار . وإنما لعب الخاويش بأصبعه فى أنفه وهو ينظر إلى ما يدور بغير اهتمام .

وصعد الجنود الجدد إلى عرباتهم تتبعهم ثلاثة القهوة التى عادت بعد برهة فارغة . فقال صف الضابط : « يا لهم من أوغاد ! يتركون جنودهم القدامى يموتون من العطش » .

وتوقف رجل المدفعية عن الأكل لحظة ثم سأل : « ماذا قلت ؟ » .

– قلت إنهم أوغاد . ماذا تضع ؟ لحم بقرى ؟ .

وقضم رجل المدفعية لقمة مغطاة بالطعام وقال : « لحم خنزير » .

« خنزير ! » . قالها صف الضابط وهو ينظر إلى الجالسين فى العربة واحداً بعد الآخر . ويبحث عن مشارك له فى شعوره . ولكن لم يهتم رجل المدفعية بما يجرى . وكان هايتريش ما زال واقفاً أمام النافذة يقول

لمارى : « بلغى سلامى للحالة برتا » .

– سأفعل .

وصمتا ثانية . فسأل أحدهم : « لم لم يقم القطار ؟ لقد جاوزت الساعة السادسة » .

– ربما ننتظر أحد الجنرالات ! .

– الجنرالات لا يسافرون بالقطار بل يطيرون بالطائرة .

كان عليهم أن ينتظروا نصف ساعة أخرى . بينما كان هايتريش يقول لمارى من حين لآخر : « هيا اذهبى يا مارى » .

– يوسعى أن أنتظر .

– يجب أن يتناول الطفل وجبته .

– أمامه الليل بطوله .

وصمتا ثانية فترة طويلة ثم قال هايتريش أخيراً : « بلغى سلامى إلى يوسف أيضاً ! » .

– نعم . طيب . سأفعل .

وضرط رجل المدفعية بقوة ، ثم تنهد بعمق ونام فوراً . وكأن القطار كان ينتظر هذه الإشارة ليتحرك ببطء .

– « والآن يا مارى وداعاً ؟ » .

– وداعاً يا هايتريش .

وزادت سرعة القطار وجرت مارى بجوار العربة .

— اعتنى بالصغير يا مارى ! .

— حاضر ، حاضر يا هايْنريش واهتم أنت بنفسك ! .

ورأى جريبر وجه السيدة المتألم أسفل النافذة فقد كانت تجرى وكأن حياتها مرتبطة بعشر ثوان أخرى ترى فيها وجه هاينريش . . . . وفجأة رأى جريبر اليزابيث تقف خلف حظيرة المحطة بشكل لم يستطع معه أن يراها من القطار . وتشككت لحظة إلا أنه رأى وجهها بوضوح . رآه جامداً بغير تعبير وكأن الحياة قد فارقته . فقفز واقفاً وأمسك بهاينريش من رقبته وقال : « دع النافذة لى ! » .

نسى كل شئ ، لم يعد يفهم سبب حضوره بمفرده إلى المحطة ، لم يعد يدرك شيئاً ، يجب أن يراها وأن ينادى عليها فهو لم يقل لها بعد أهم شئ يريد أن يقوله .

وتشنجت يداه على رقبة هاينريش . بينما تدلى هاينريش إلى منتصفه خارج النافذة فأحس بمرفقيه مستندين على إطار النافذة وهو يصيح وسط دوى القطار : « سلمى على ليزة أيضاً » .

— دعنى أطل من النافذة ! أترك النافذة فزوجتى تقف بالخارج !

وألقى جريبر بذراعيه فوق كتفى هاينريش وجذبه وركله هاينريش بقدمه وتخلص كتفيه فأصاب ذقن جريبر وصاح : « اعتنِ بكل شئ ! » .

ولم يعد صوت الزوجة مسموعاً . وركل جريبر هاينريش فى ركبته وجذبه من كتفه . إلا أن هاينريش لم يترك النافذة فلوح بيد واحدة بينما

استند بمرفقه وذراعه الأخرى على النافذة . وهنا دار القطار منحنياً فرأى جريبر اليزابيث من فوق رأس هاينريش وكانت بعيدة وصغيرة جداً ووحيدة أمام الحظيرة فلوح جريبر من فوق رأس هاينريش التى كانت كالمكنسة القش . إذ ربما استطاعت إليزابيث أن ترى اليد إلا أنها لا تتمكن من معرفة من الذى لوح . وظهرت المنازل واختفت المحطة .

ابتعد هاينريش عن النافذة ببطء وأخذ جريبر يلعن غاضباً :

« أيها الملعون ! » ، إلا أنه توقف عند ما استدار هاينريش وبدت الدموع الغزيرة تسيل على وجهه . فترك يديه تسقطان ، وقال : « أوه ، زفت ! » .

فصاح الجاويش : « ما هذه اللغة يا رجل ! » .

الفصل الخامس والعشرون

وصل جريير إلى فصيلته بعد يومين وسجل نفسه فى المكتب . إلا أنه لم يجد الجاويش ، بل كان الكاتب يجلس بمفرده متكاسلا . كما كانت القرية التى يعسكرون بها تبعد مائة وعشرين كيلومتراً عن القرية التى كان بها قبل الإجازة . فسأل : « كيف الحال هنا ؟ » .

— قطران . كيف كانت الإجازة ؟ .

— لم تكن كلها أياماً حلوة ، هل حدث شىء ؟ .

— أشياء كثيرة جداً ، فأنت ترى الآن أين نحن .

— وأين الزملاء .

— جماعة يحفرون الخنادق وجماعة يدفنون الموتى وسيعودون ظهراً .

— هل تغيرت أمور كثيرة ؟ .

— سترى بنفسك . إذ لست أدرى من كان يعيش وقت أن سافرت . فقد وصل إلينا عدد كبير ليحل محل الموتى والجرحى ، إنهم أطفال يتساقطون كالذباب فى الشتاء ولا خبرة لهم بالقتال . أما رئيسنا القديم المشلى « مايرت » ، فقد مات وحضر إلينا رئيس جديد .

— تعنى إنه خرج ليقاتل فمات ؟ .

— بل أصابته رصاصة وهو بالمرحاض فطار مع برازه فى الهواء .

وتثاءب الكاتب : « سترى ماحدث . لم لم تدع شظية صغيرة تخترق مؤخرتك وأنت فى ألمانيا ؟ » .

وقال جريير : « نعم . لم لم أفعل ؟ الأفكار الجيدة لاتخطر بالبال إلا بعد فوات الأوان » .

— لوكنت مكانك لما حضرت فى موعدى بل تأخرت بضعة أيام . ولن يحس أحد بغيابك فى هذه الفوضى .

— وهذا أيضاً لم يخطر ببالى إلا عند ما حضرت .

* * *

سار جريير عبر القرية وكانت تشبه القرية التى كان فيها آخر مرة ، فكل هذه القرى متشابهة . كلها مدمرة ومخربة بنفس الطريقة . والفارق الوحيد هو عدم وجود الجليد ، فكل شىء موحل ومبلل ، والتصق حذاؤه ، وأمسكت به الأرض بقوة ، وكأنها تريد أن تجذبه إلى أسفل . وعلى الأرض الموحلة وضعت الألواح الخشبية الواحد بجوار الآخر ، حتى يتمكن الجند من السير عليها . ولكن الألواح تنزلق . ولو دست على أحد أطرافها ارتفع الطرف الآخر .

ظهرت الشمس وتزايدت الحرارة فأحس جريير أن الحرارة هنا أشد منها فى ألمانيا . وأصغى لما يحدث فى الجبهة ، فسمع دوى المدفعية بين المد والجزر . وبحث عن المخبأ الذى أرشده إليه الكاتب حتى وجده فوضع

أمتعته فى مكان خال . وغضب جداً لأنه لم يطل إجازته يومين أو ثلاثة . فما من إنسان هنا يحتاج إليه .

وخرج ثانية فوجد الخنادق محفورة أمام القرية وممتلئة بالماء مما جعل الجدران تتداعى . وشيدت هنا وهناك بين الأراضى الزراعية المبتلة ، ساترات من الخرسانة انتصبت كشواهد القبور .

ثم عاد، وفى طريق عودته شاهد راهى قائد الفصيلة يجاهد فى حفظ توازنه على الألواح الخشبية وكأنه طائر من طيور اللقلق يرتدى نظارة فتقدم إليه جريير .

قال راهى : « كنت محظوظاً . إذ ألغيت إجازتك فور رحيلك » .

ثم تأمل جريير بعينيه فانحنى اللون وسأل : « هل استمتعت بها ؟ » .

— نعم .

— حسن . موقعنا الآن قذر وموحل إلا أنه موقع مؤقت . إذ ربما عدنا إلى خط الدفاع الثانى الذى شيد حديثاً . أرأيته ؟ لا بد أنك مررت به أثناء حضورك .

— لا لم أره .

— لا ؟ .

فقال جريير : « لا يا سيدى الملازم » .

— إنه يبعد أربعين كيلومتراً عن هذا الموقع .

— كنا بالليل أثناء مرورنا به وقد نمت كثيراً أثناء الطريق .

« هذا هو السبب » ، وتأمل راهى جريير متفحصاً وكأنه يود أن يوجه إليه أسئلة أخرى ، ثم قال : « قتل قائد فصيلتك . أعنى الملازم مايدرت . وقائدك الآن هو الملازم ماس » .

— سمعاً وطاعة ! .

* * *

وغرس راهى عصا تسياره فى الطين والوحل ثم قال : «لو استمر الحال على ما هو عليه الآن فسيصعب على الروس التقدم بدباباتهم ومدفعياتهم ، الأمر الذى يتيح لنا فرصة إعادة تنظيم صفوفنا . لكل شىء محاسنه ومساوئه . أليس كذلك ؟ حسن أنك عدت إلينا يا جريير ، فنحن بحاجة إلى مجربين خبراء لتدريب الشباب الجديد الذى حل محل القدامى » ، وواصل غرس عصاه فى الطين : « كيف كان الحال فى ألمانيا ؟ » .

— كالحال هنا تقريباً . غارات جوية كثيرة .

— حقاً ؟ هل ساءت الدرجة إلى هذا السوء ؟ .

— لا أدرى مدى السوء ، لو قارناها ببقية البلاد . ولكن تحدث غارة كل يومين على الأقل تقريباً .

ونظر راهى إلى جريير وهو يتوقع منه أن يزيد الأمر تفصيلا إلا أن جريير صمت .

وعاد البالقول ظهراً فقال إمرمان : « صاحب الإجازة ! لم عدت يا رجل فى هذه الظروف السيئة ؟ لم لم تهرب ؟ » .

فسأل جريبر : « وإلى أين أهرب ؟ » .

فهرش أمومان رأسه ، ثم قال : « إلى سويسرا » .

— لم أفكر في هذا الموضوع أيها المهرج . رغم القطارات الفاخرة التي تسير يومياً حاملة الفارين إلى هناك ، وقد امتلأت سطوحها بالصلبان الحمراء كي لا تتعرض للقنابل ، بينما أقيمت أقواس الترحيب على طول حدود سويسرا ، كتب عليها جمل الترحيب . أتعرف شيئاً آخر أيها المهرج ؟ ولكن منذ متى تجرأت على الحديث هكذا ؟ .

— أنا جرىء دائماً ولكنك نسيت هذا في غمرة لياليك الحامسة في ألمانيا . ومع ذلك فنحن نتقهقر ، بل تكاد تفر أمامهم ، وتزداد النعمة تحرراً كلما تقهقرنا مائة كيلومتر .

وأخذ إمومان ينظف زيه من الأوحال ، ثم قال : « مات ميللر ومايير وبرواله شرويدر في المستشفى ، بينما أصابت ميكة طلقة في بطنه ، ويقولون إنه مات في وارسو . ومن أيضاً من القدامى ؟ آه تماماً ، برانيج فقد ساقه اليمنى ونزف حتى الموت » .

— كيف حال شتاين برنر ؟ .

— بصحة جيدة وسعيد . لم تسأل ؟ .

— مجرد سؤال .

بعد العشاء قابل جريبر شتاين برنر وكان الأخير كذلك من الطراز القوطي لوجه الشمس . وسأل شتاين برنر : « كيف وجدت الروح

المعنوية في الوطن ؟ » .

فأنزل جريبر وعاء الطبيخ وقال : « عندما وصلنا إلى الحدود نادى علينا رائد من قوات العاصفة وأخبرنا أنه غير مسموح لأي إنسان أن يذكر كلمة واحدة عن الحالة في الوطن وإلا تعرض لأشد عقوبة ؟ » .

وضحك شتاين برنر : « بإمكانك أن تخبرني بهذا وأنت مطمئن » .

— لو حدث لكنت أكبر حمار في الدنيا ، فأشد عقوبة معناها أن تعدم كمخرب لخطط الجيش العسكرية .

كف شتاين برنر عن الضحك وقال : « تقول هذا وكأن هناك حقاً ما يستحق هذا القول أو كأن كارثة قد وقعت » .

— لم أقل شيئاً . وإنما أعيد فقط ما قاله لنا رائد العاصفة .

وتفحص شتاين برنر جريبر من جديد وقال وهو يزن كلماته : « لقد تزوجت ، أليس كذلك ؟ » .

— وكيف عرفت هذا ؟ .

— أنا أعلم كل شيء » .

— عرفت من المكتب فلا تدع نفسك الأهبة ، إنك تكثر من التردد على المكتب أليس كذلك ؟ .

— عندما يستدعي الأمر الذهاب إليه . وحين أعود في إجازتي سأتزوج أنا الآخر .

— أهكذا ؟ ألديك فتاة معينة تريد أن تتزوجها ؟ .

— ابنة قائد قوة العاصفة فى مدينتنا .

— طبعاً .

ولم يفهم شتاين برنر السخرية المتضمنة فقال : « اللهم آرى من الدرجة الأولى فأنا شهالى — فريزى وهى من الراين وتيادرسا كسون .

* * *

أطال جريبر النظر فى الأضبة الرومية الحمراء ورفرفت بضعة ديكة بأجنحتها فبدت كحرق سوداء تطير حولها .

غادر شتاين برنر المكان وهو يصفر لحناً . بينما رقد جريبر يسمع دوى المدافع ويشاهد رفرفة الديكة ، فأحس وكأنه لم يبرح الجبهة أبداً .

* * *

قام جريبر بنوبة حراسة من منتصف الليل حتى الثانية . ودار حول القرية التى تنتصب أطلالها سوداء وسط لهيب نيران المدفعية . وكانت السماء تضطرب وتضئ كلما انطلقت المدافع . ثم تعود ثانية إلى ظلمتها . وكلما التصق حذاؤه بالطين صدر عنه صوت كأنين أرواح أصابتها اللعنة .

واعتراه ألم كبير فجأة ودون أية بادرة ، مع أنه لم يفكر فى شئ . بل كان طيلة الرحلة لا يفكر فى شئ ولا يستجيب لأية مشاعر . أما الآن فقد اقتحمه ألم تغلغل فيه وكأنه يمزقه إرباً .

توقف ثم انتظر ولم يتحرك . انتظر أن تتحرك سكين داخله لتدور فى أجزاء جسمه وتحول عذابه إلى عذاب مادى ، انتظر أن يكتسب العذاب اسماً ، وبذلك يتحول إلى أمر خاص به يخصصه للتفكير والعزاء أو على الأقل يتقبله كما يتقبل الإنسان قدراً .

لكن لم يحدث شئ ، لا شئ غير ألم الخسارة ، وكانت خسارة مستمرة دائمة . ولم يكن هناك المعبر الذى كان فيا مضى ، فحتى هذا قد فقد . وأخذ يستمع إلى ذاته : لا بد أن أصواتاً تصدر من مكان ما ، لا بد أنها أصداء الأمل تطوف حوله كالأشباح . إلا أنه لم يجد شيئاً ، غير الفراغ والألم الذى لا يعرف له اسماً .

وفكر ، ما زال الوقت مبكراً . وربما عاد هذا الشئ فيما بعد ، عندما يزول الألم ، حاول أن يركز نفسه على هذا الشئ ، فهو لا يريده أن يفلت . أراد أن يحتفظ به حتى لو تحول إلى ألم لا يطاق ، وفكر ، سيعود إذا أنا صمدت . . . سرد أسماء وحاول أن يتذكر . وظهر وجه إليزابيث مضطرباً فى هالة من الغمام ، بنفس الصورة التى رآه عليها آخر مرة بينما غامت صور وجهها الأخرى . لم يتبد له غير هذا الوجه ، فحاول أن يتصور منزل السيدة فيته والحديقة . وتسنى له ذلك إلا أنه كان كمن يحاول أن يعزف على البيانو ، فلا تخرج الأصوات . فكر ثانية : ماذا حدث ؟ ربما حدث لها شئ . ربما أصيبت وغابت عن الوعى . ربما انهار المنزل الآن ، ربما ماتت .

انتزع حذاءه من الطين فتأوهت الأرض المبتلة وغمره العرق . ثم سمع أحدهم يقول : « سيتعبك هذا » .

كان المتكلم ساور متعباً فى ركن من أركان حظيرة الماشية آلة تعرفها القبائل .

— ومع ذلك فهذا الشيء يسمع على بعد كيلومتر .

— ماذا تفعل أتقوم بتمرينات رياضية ؟ .

— إنك متزوج يا ساور أليس كذلك .

— طبعاً يجب أن أكون متزوجاً ما دمت أملك مزرعة ، إذ لا قيمة للمزرعة بغير زوجة .

— أمتزوج أنت منذ زمن طويل ؟ .

— خمس عشرة سنة . لم تسأل ؟ .

— ما حال المتزوج منذ أمد طويل ؟ .

— يا له من سؤال . . . كيف يكون الحال ؟ .

— هل الزواج كمرساة السفينة تمسك بها ؟ أقصد كشيء يشغل فكرك دائماً وتود باستمرار أن تعود إليه ؟ .

— مرساة ؟ ما معنى مرساة ؟ طبعاً يشغل فكرى دائماً ، بل طول اليوم . فقد حان وقت الحرث والزرع . بل أصابنى طول التفكير بالغباء .

— لا أقصد المزرعة بل الزوجة .

— إنهما مرتبطتان . ولقد شرحت لك هذا تواً ، فلا قيمة للمزرعة بدون زوجة . ولكن ما نصيبى من هذا كله إلا الهموم . . . . وهذا الملعون إمرمان الذى يبغى إقناع كل إنسان بأن أسرى الحرب ينامون فى فراش كل زوجة وحيدة ! .

أفرغ ساور أنفه ثم أضاف لسبب غامض غير معروف :

— الفراش كبير مزدوج يسع شخصين .

— إمرمان مهرج لا يدرى ما يقول .

يقول إن السيدة التى عرفت معنى الرجل : لا تطيق طويلا أن تبقى بلا رجل ، وإنما تبحث لنفسها دائماً عمن يحل محل الغائب .

— أخ ! كلام فارغ ! .

قالها جريير فجأة وهو فى أشد حالات الغضب . « يظن هذا المعتوه أن جميع الناس سواء وهذا هراء لا مثيل له » .

الفصل السادس والعشرون

لم يعد أى منهم يعرف الآخر ، بل لم يعد الرى نفسه وسيلة للتعارف ولذا لم يتبق غير الصوت والخوذة واللغة كى يدرك الجندى أنه ينتمى إلى هذا الجيش أو ذاك . وانهارت الخنادق وأصبحت الجبهة خطًا غير منتظم من حفر القنابل والاستحكامات الخرسانية . وتبادل الجيشان المواقع بشكل مستمر وسيطر على الجو العام دوىّ القنابل والمطر والليل ثم الأضواء التى تتصاعد من الانفجارات وكذلك الطين المتطاير ، ومزقت طائرات « ستورموفيك » الروسية السماء وتساقطت مع الأمطار شظايا القنابل والقنابل اليدوية .

واندفعت الكشافات الضوئية الباحثة عن الطائرات تطارد السحب المتناثرة كالكلاب البيضاء . وتعالت نيران المدافع المضادة للطائرات تدوى فى الآفاق المرتعدة . وتهاوت الطائرات المحترقة محاطة بالقنابل المضيئة والمتلألئة كالبرد الذهبى ، والتى سرعان ما تنحدر خابية فى هاوية اللانهاية . وفى نفس الوقت تعلقت المصابيح الطائرة فى الفضاء بيضاء وصفراء تسطع ، ثم تخبو وكأنها تتطفأ فى الماء . ثم عادت النيران تدوى ثانية .

كان هذا هو اليوم الثانى عشر . وكانت القوات الألمانية قد احتفظت بمواقعها فى الجبهة طوال الأيام الثلاثة الأولى . كما تمكنت التحصينات العسكرية من مقاومة النيران دون خسارة كبيرة . ولكن انهارت التحصينات الأمامية ، بعد أن تمكنت فرقة الدبابات الروسية من اقتحام الخطوط الدفاعية والتوغل عدة كيلومترات . وكانت الدبابات المشتعلة المقلوبة تبدو وقد واصل جنزيرها دورانه لبعض الوقت وكأنها خناقس عملاقة مقلوبة . وتقدمت فصيلة من الجنود لتعيد إنشاء المعابر والخطوط التليفونية دون حماية جوية ، مما أدى إلى فقد أكثر من نصف رجالها فى ساعتين . إذ تكاثرت عليهم سحب من الطائرات الروسية متدفقة من السماء على ارتفاع منخفض لا يتصادى لها شىء .

وفى اليوم السادس أصبحت نصف التحصينات لا تصلح إلا كمخفر واق فقط . وفى الليلة السابعة انهمر المطر وكأنه الطوفان ، فلم يعد فى الإمكان التعرف على الجنود أو تمييزهم ، وهو يزحفون فى حفر القنابل التى تحولت إلى طين ، فأصبحوا كحشرات متشابهة الألوان . وثبّت الفرقة موقعان مهدمان من التحصينات تحتمى خلفهما ، وبكل موقع بطارية مدافع وبضعة مدافع خفيفة . أما الفصيلة فقد تبعثرت فى حفرات القنابل وخلف الحوائط الباقية من التحصينات . واحتل « راهى » أحد الموقعين بينما احتل « مامى » الموقع الآخر .

وتمكن الضابطان من الاحتفاظ بالموقعين ثلاثة أيام ، وفى اليوم الثانى

منها أصبح الجنود بلا ذخيرة تقريباً . بإمكان الروس التقدم إلى الأمام ولكن لم يحدث هجوم . وفى آخر النهار عند غروب آخر شعاع من أشعة الشمس قدمت بضع طائرات ألمانية وألقت ذخيرة وطعاماً . ووسع الفصيلة أن تسحب جزءاً منها وأكلت ووصلت بالليل تعزيزات . وتمكنت فصيلة من سلاح المهندسين من إقامة تحصينات جديدة ، ثم توالت الأسلحة والمدافع وبعدها بساعة حدث هجوم مفاجئ لم تمهد له المدفعية ، إذ ظهر الروس فجأة على بعد خمسين متراً من خطوط القتال . ولم تتفجر بعض القنابل اليدوية التى ألقاها الألمان . واخترق الروس التحصينات .

ووجد جرير أمامه ، وسط تيران المتفجرات ، خوذة لمحت تحتها عينان بيضاوان وفم مفتوح . وظهر خلف هذا ذراع مرفوعة وكأنه فرع حى من فروع الشجر . فصوب إليه جرير ، ثم خطف من الجندى حديث الخدمة المجاور له ، قنبلة يدوية لم يعرف هذا الأخير كيف يستخدمها ، وقذفها فانفجرت القنبلة ، وصاح جرير فى زميله : « فك الغطاء يا غبى ! أعطنى هذه القنبلة ولا تحاول فتحها ! » .

ولم تنفجر القنبلة الثانية فبرق فى ذهنه خاطر : « تخريب ! » نعم تخريب قام به الأسرى ، تخريب موجه ضدنا . وألقى قنبلة أخرى ثم انحنى ليخنق نفسه . وفى هذه الأثناء شاهد قنبلة روسية تطير متجهة نحوه . فدفن نفسه فى الطين . ولكنه أحس بضغط الهواء الناتج عن الانفجار كما أحس بلسعة سياط وضربات ولين ينهال عليه . ومد يده

ثانية وقال : « هيا اعطنى قنبلة بسرعة ! » . ولما طلت يده فارغة أدار رأسه ونظر فلم يجد الجندى . ورأى أن ما ظنه طيناً على ذراعه . كان شرائح من لحم زميله . فزحف إلى الخلف وبحث حتى اهتدى إلى شريط من القنابل اليدوية . انتزع منها اثنين وشاهد فى هذه الأثناء ظلالا تنزلق على حافة الحفرة وتقفز ثم تواصل الحدو فانكمش على ذاته ليخنق .

وفكر : إنهم أسرى ، نعم أسرى هربوا . وزحف يحذر على حافة الحفرة . وكان الطين يحميه طالما كان راقداً بهدوء . وفى نور إحدى القنابل الضوئية رأى جسد زميله الجندى وقد تناثر فى كل مكان . رأى ساقه فى ناحية وذراعه العارية فى ناحية أخرى وجسده ممزقاً . لقد استقرت القنبلة اليدوية فى جوفه وتلقى جسمه الانفجار فأنقذ جرير .

وظل راقداً محتفظاً برأسه فى وضع لا يرتفع عن حافة الحفرة . ورأى مدفعاً من الموقع الأيمن يطلق نيرانه ، ثم انطلق المدفع الأيسر . فاطمأن . إذ طالما ينطلق المدفعان فهو بخير لم يضع بعد . فهذه النيران المتقاطعة تحمى المنطقة وتوقف الروس عن الهجوم ، وكانوا قد اخترقوا جزءاً فقط من الاستحكامات . وفكر جرير : يجب أن أسرع إلى الذهاب خلف التحصينات . ولكن رأسه آلمته وداخ . إلا أن شيئاً يقظاً موجوداً فى مؤخرة رأسه كان يفكر بدقة وحدة ووضوح . وهذا الشىء هو ما يميز الجندى المدرب عن الجندى الحديث . إذ سرعان ما يسيطر الرعب على

الأخير فيستسلم له . وأدرك جرير أن بإمكانه عند ما يعود الروس أن يتظاهر بالموت وسيصعب عليهم اكتشاف مكانه فى الطين . ومع ذلك فكلما اقترب من الاستحكامات كانت الفرصة أمامه أحسن .

وانزلق على حافة الحفرة متجهاً إلى حفرة أخرى ، إلا أنه سقط فيها . فامتلأ فمه بالماء . ومع ذلك استأنف الزحف بعد برهة ومضى يتسلق . ووجد فى الحفرة اثنين من الموتى . وانتظر لحظة إذ سمع دوى قنابل يدوية ، ثم رأى انفجارات قريبة من الاستحكامات اليسرى . . . لقد اخترق الروس خطوط الدفاع وهاجموا من جهتين . وانطلقت نيران المدافع . ومع أن انفجارات القنابل اليدوية قد توقفت ، إلا أن الاستحكامات واصلت إطلاق النيران . وواصل جرير زحفه إلى الأمام فهو يعرف أن الروس لا بد أنهم سيعودون ثانية وسيتعرضون وجود قوات ألمانية فى الحفر الكبيرة ، ولذا فالاختباء فى الحفر الصغيرة أكثر أمناً . ووصل إلى واحدة منها وبقى فيها راقداً . وانهمر سيل المطر وتلاشت المدفعية ثم عادت ثانية وأصابت طلقة مدفع الاستحكامات اليمنى إصابة مباشرة ، فبدت وكأنها طارت فى الهواء وتناثرت . وأخيراً طلع الصباح مطيراً بعد طول الانتظار .

وقبل بزوغ الشمس تمكن جرير من الوصول . ووجد ساور خلف إحدى الدبابات المصابة ومعه اثنان من الجنود الجديين . وكانت أنف ساور تدمى لانفجار قنبلة يدوية بالقرب منه . كما تمزقت بطن أحد

الجنود ، وأطلت منها أمعاؤه ، وتسربت الأمطار داخل جوفه ، ولم يكن لديهم ما يصلح لأن يربط به الجرح ، وحتى لو توفر ما كان لهذا أى جدوى فالموت له أرحم . أما الجندى الجديد الثانى فقد كسرت ساقه إذ سقط فى حفرة ولم يفهم جرير كيف يمكن أن تتكسر ساق إنسان فى الطين المرحل .

أما الدبابة المحترقة التى انفتح فيها متفجراً فقد كان بداخلها جماجم رجالها منفحمة سوداء . وتدلى الجزء الأعلى من جسم أحدهم خارجاً ، بينما احترق نصف وجهه وتورم النصف الآخر وقد اصطبغ باللونين الأحمر والبنفسجى . وتشقق الجلد وبانت الأسنان بيضاء ناصعة كجير مطفى .

وجاء جندى اتصال من التحصينات اليسرى وصاح بصوت مشروخ :

— تجمعوا بجانب التحصينات ، هل هناك أحد فى حفر القنابل ؟ .

— لا أدرى ، ألا يوجد أحد من رجال الوحدة الطبية ؟ .

— إما موتى أو جرحى ! .

وواصل الرجل الزحف . وقال جرير للجندى الذى ينهمر المطر فى جوفه : « سأحضر لك طبيباً أو أربطة . سأعود ثانية » ولم يجب الجندى بل رقد شاحب الشفتين ضئيلا وسط الطين . ثم قال جرير للجندى ذى الساق المكسورة : « ليس بإمكاننا أن نسحبك فوق قطعة من قماش

الخيام ، إذ الطين يعوقنا عن هذا . فاستند إلينا وحاول أن تقفز بالساق السليمة » .

وأخذاه بينهما وقفز الثلاثة من حفرة لأخرى . واستمر الحال وقتاً طويلا وتأوه الجندى المكسور : متألما عند ما ألقى الثلاثة بأنفسهم ، إذ التوى ساقه ولم يستطع أن يستمر فتركاه خلف جدار ووضعا الخوذة فوق الجدار كى يهتدى إليه رجال الوحدة الطبية . وكان بجواره الثلاثة من الروس لم يكن للأول رأس . أما الآخر فقد رقد على بطنه وقد اصطبغ الطين تحته باللون الأحمر .

وطافا بكثير من المرقى الروس قبل أن يصلا إلى المرقى الألمان . وجرح « راهى » إذ كانت ذراعه اليسرى مربوطة بشكل غير محكم . وبالقرب منه رقد ثلاثة من ذوى الجراح الخطيرة ، وقد ألقيت فوقهم قطعة من قماش الخيام تحميهم من الأمطار . ولم تكن هناك أربطة . وبعد ساعة حلقت طائرة من طراز يونكرز وألقت مؤنا . ولكنها سقطت بعيداً عن موقع الألمان وبالقرب من الروس .

وقدم سبعة رجال آخرون . أما الباقى فقد تجمع بجوار الاستحكامات اليمنى . ومات الملازم « ماس » وتولى الجاويش « راين رايكه » القيادة ولم تكن الذخيرة كافية ، إذ دمرتها قاذفات القنابل ، فلم يكن لديهم غير اثنين من المدافع الثقيلة واثنين من المدافع الخفيفة فى حالة صالحة للعمل .

ثم وصل عشرة رجال يحملون ذخيرة ، وعلب الأكل المحفوظ ، وحملوا الجرحى على النقالات التى كانت معهم . وعلى بعد مائة متر طار اثنان منهم فى الهواء . إذ أطلقت المدفعية الروسية طريق الاتصال طول الصباح .

وتوقف هطول الأمطار عند الظهيرة ، فسطعت الشمس واشتدت الحرارة وتكونت فوق الطين قشرة . فقال راهى :

— سيهجمون الآن بالدبابات الخفيفة . لعنهم الله ! أين المدافع المضادة للدبابات ؟ يجب أن نحصل على بعض منها . وإلا هلكنا .

واستمرت النيران ، وبعد الظهر حلقت طائرة من طراز « اليونكرز » يحيط بها سرب من مقاتلات « مسّر شميدت » فصعدت إليها طائرات ستورموفيك الروسية ، وهاجمتها ، وأصيبت طائرتان روسيتان كما سقطت طائرتان ألمانيتان . ولم يتسن لطائرة اليونكرز أن تتقدم فألقت بحمولتها بعيداً خلف الخطوط . واشتبكت الطائرات الألمانية بالروسية . ولئن كانت الطائرات الألمانية أسرع من الروسية ، إلا أن عدد الطائرات الروسية كان ثلاثة أضعاف الطائرات الألمانية . مما اضطر الطائرات الأخيرة إلى العودة .

ولاحت فى اليوم الثانى رائحة الموت . ومكث جريح فى الاستحكامات ومعه اثنان وعشرون رجلا هم الأحياء من الفصيلة . وجمع راين رايكه مثل هذا العدد فى الجانب الآخر . أما باقى المائة والعشرين فقد كانوا إما

جرحى أو موتى . وجلس جريبر ينظف سلاحه من الطين الذى كساه ولم يفكر فى شيء ، فقد كان مجرد آلة لا يدرى شيئاً مما مر به . . . جلس وانتظر ثم نام ثم استيقظ ولكنه كان متأهباً للدفاع عن نفسه .

وهجمت الدبابات الروسية فى الصباح التالى ، بعد أن استمرت المدفعية الثقيلة والقاذفات فى قصف المواقع وعزل خط القتال . وأصلحت الخطوط التليفونية مرتين ، ولكنها قطعت ثانية . ولم تصل التعزيزات المنتظرة . وواجهت المدفعية الألمانية الضعيفة مدفعية روسية قاتلة . وأصيبت الاستحكامات مرتين ولكنها صمدت ، وفى الحق لم تعد هناك استحكامات ، بل كانت مجرد نتوءات خرسانية تتأرجح فى الطين كالسفينة وسط العاصفة . وبعد ست ضربات قريبة ، انهارت وسقط الرجال حينئذ بجوار الحائط .

ولم يتمكن جريبر من ربط الجرح الذى أصاب كتفه . فصب عليه بعض الكونياك الذى معه ، وتدحرجت نتوءات الاستحكامات مرعدة . وتحولت من سفينة وسط الأمواج إلى غواصة ذات آلات ميتة تغرق فى قاع البحر . وأصيب جريبر هو الآخر ، ففقد الإحساس بالزمن والنهار وجلس هو الآخر فى الظلام مع الباقين ينتظر .

لم يعد يتذكر شيئاً ولا حتى المدينة التى عاش بها فى ألمانيا وكان بها قبل أسبوعين . ولم يعد يتذكر إجازته ولا حتى إليزابيث ، فقد كان هذا كله مجرد حلم خطر له فى فترة سبقها الموت ولحقها الموت . وظلت عيناه نصف ساعة فى نوم قلق مريع ، طار أثناءها صاروخ

عبر السماء ، ثم خبا ، وصحا ولم يجد غير النتوء الخرسانى .

وتقدمت الدبابات الروسية ، واخترقت الصفوف يتبعها ويحيط بها جنود المشاة . وترك الألمان الدبابات تمر ، إلا أنهم سلطوا النيران على المشاة . وارتفعت حرارة مواسير البنادق من الطلقات ولسعت أيديهم ولكنهم واصلوا إطلاق النيران . ولم يكن بوسع المدفعية الروسية أن تصوب إليهم ، فاستدارت دبابتان روسيتان وأطلقتا النيران . وكان الأمر بالنسبة للدبابتين جد يسير ، إذ لم يكن لدى الألمان سلاح يمكنه أن يصيب الدبابات ، إلا أن الألمان صوبوا على الفتحات ولكن الإصابات كانت نادرة . واستدارت الدبابتان وخرجتا من النيران ، وهما تواصلان إطلاق النيران . فاهتز النتوء الخرسانى وانشطر .

وصاح راين رايكه : « قنابل يدوية » ثم جمع مجموعة منها فى حبل علقه على كتفه وزحف ليخرج مستتراً خلف النتوء .

وأصدر راهى أمراً : « مدفعان يصوبان للدبابات » وحاولت النيران أن تغطى راين رايكه ، الذى زحف فى خط دائر مستهدفاً تفجير الدبابات بما يحمل من قنابل يدوية وكانت عملية انتحارية فقد انطلقت المدافع الثقيلة . وبعد فترة توقفت دبابة عن إطلاق النيران ولم ير أحد أى انفجار وزأر إمرمان « لقد أصبناها » .

وتوقفت الدبابة تماماً عن إطلاق النيران . فركزت المدفعية على الثانية التى استدارت واختفت . وصاح راهى : « ست دبابات اخترقت

خطوطنا وستعود ثانية ، فأغلقوا الطريق بالنيران حتى توقف المشاة ».

وعند ما هدأ الموقف وأصبح بوسعهم أن يفكروا ، سأل إمرمان : « أين راين إيكه ؟ » .

ولم يعرف أحد أين هو . إذ لم يعد ثانية .

وصمد الألمان طوال ما بعد الظهر ورغم انهيار الاستحكامات إلا أن النيران لم تتوقف من الجانبين . وكان التصف متباطئاً إذ لم يتبق غير جزء ضئيل من الذخيرة . وأكل الجنود طعاماً محفوظاً . وشربوا الماء من حفر القنابل . وأصابت رصاصة يد هيرشلاند .

وأرسلت الشمس لهيبها ، بينما امتلأت السماء بالسحب اللامعة وامتلأت الاستحكامات برائحة الدم والبارود . وانتفخ الموتى بالخارج . ونام من استطاع أن ينام . ولم يعد أحد يدرى إن كانوا على اتصال ببقية الجيش أم لا .

وفى المساء اشتدت حدة النيران ثم صمتت فجأة تماماً . فالدفع الجند خارجين وتوقعوا الهجوم . ولكن لم يحدث شىء لمدة ساعتين . . . وقد أنهكت هاتان الساعتان من قواهم أكثر مما فعل القتال .

وفى الثالثة صباحاً تحولت استحكاماتهم إلى مجرد كتل متناثرة من الخرسانة والصلب الملتوى . فخرجوا بعد أن مات منهم ستة جنود وجرح ثلاثة . إذ تحتم عليهم أن يتراجعوا وتمكنوا من حمل الجريح الذى أصيب فى بطنه مسافة مائتى متر ثم مات .

وهجم الروس ثانية فى وقت لم يعد فيه مع الفصيلة غير مدفعين . فاختبأ بإحدى الحفر . وأطلقت المدفعين ، فظن الروس أنهم أقوى مما هم فى الواقع . وقد أتقدم هذا . وسقط ساور فى الهجمة الثانية إذ تلقى رصاصة فى رأسه ومات فوراً . وبعده أصيب هيرشمان عند ما كان يزحف منحنياً . فاستدار حول نفسه ثم ظل راقداً . وصحبه جرير إلى حفرة انزلق إلى قاعها بعد أن مزقت الطلقات صدره . وعند ما فحصه جرير وجد حافظة نقوده غارقة فى الدم فاحتفظ بها .

ووصل الألمان إلى خط الدفاع التالى . وبعدها صدر الأمر بمواصلة الانسحاب . فتراجعت الفصيلة خلف جبهة القتال وأصبحت فى الصف الثانى ، بينما أصبح الصف الثانى هو الجبهة . وتجمعوا خلف خط القتال ببضعة كيلومترات . ولم يتبق من الفصيلة غير الثلاثين رجلا إلا أنها وصلت فى اليوم التالى إلى مائة وعشرين .

* * *

وفى أحد مستشفيات الميدان عثر جرير على فريزينبورج . وكان المستشفى عبارة عن ثكنات شيدت على عجل لتواجه الطوارئ . وقد رقد فريزينبورج ممزق الساق وقال لجرير : « أرادوا أن يبتروها . إنه مجرد مساعد طبيب اللذى أراد أن يفعل هذا . إنسان جاهل لم يدرس دراسة كافية . إلا أنى حجزت مكاناً فى عربات الإسعاف غداً ، إذ أبغى أن أعرض ساق أولا على طبيب ماهر » .

رقد فى فراشه وقد وضع فوق ركبته جميرة من السلك . وكان فراشه مجاوراً للنافذة ومطلا على أرض منبسطة أزهرت حشائشها زهوراً حمراء وخضراء وصفراء . وامتلأت الغرفة برائحة غير طيبة لوجود ثلاثة أسرة أخرى بها .

وسأل فريزينبورج : « كيف حال راهى ؟ » .

— أصيب فى ذراعه يجرح فى العضل .

— أهو بالمستشفى ؟ .

— لا ، بل ما زال مع فصيلته .

« هذا ما توقعته » ، وتحرك وجه فريزينبورج وابتسم نصف وجهه ، أما النصف الذى به الجرح فقد بقى جامداً ، وقال : « جلد كبير من الجند لا يريد العودة . وراهى كذلك لا يريدها » .

— وما السبب ؟ .

— اليأس . لم يعد لديه أمل أو عقيدة .

ونظر جرين إلى الوجه الشاحب وقال : « وأنت ؟ » .

فأشار إلى الجميرة المصنوعة من السلك وقال : « لا أدرى ، إذ يجب أن أطمئن أولا على هذه » .

وهبت ريح حارة من الأرض العشبية فقال فريزينبورج : « غريب ! . أليس كذلك ؟ اعتقدنا وقت سقوط الجليد أنه لن يأتى صيف ثم يأتى الصيف فجأة وعنيفاً .

— نعم .

— كيف كان الحال فى ألمانيا ؟ .

— لا أدرى ، إذ لا يمكننى أن أتذكرهما معاً ، أعنى الإجازة والميدان . كنت من قبل أستطيع هذا ، أما الآن فلم يعد بوسعى هذا . فالاثنان بعيدان جداً عن بعضهما . ولم أعد أدرى ما هى الحقيقة .

— ومن يدرى ؟ .

— ظننت هناك أننى عرفتها ، إذ بدا كل شىء حقيقياً . ولكننى الآن لا أدرى . كانت الإجازة قصيرة جداً وبعيدة كل البعد عن هذا الذى يجرى هنا . لقد وصل فى المآل هناك إلى أن فكرت أننى لن أقتل ثانية .

— كثيرون فعلوا مثلك .

— نعم . أتحس بألم فظيع ؟ .

وهز فريزينبورج رأسه : تصور أن لدينا فى هذا الحجر شيئاً لم نتوقع وجوده ، أقصد المورفين ، فقد أعطونى جرعة ما زال مفعولها قائماً . فالآلام موجودة . إلا أننى لا أحس بها ، وكأنها ليست آلامى . . . وأمامى ساعة أو ساعتان أنعم فيهما بالتفكير . . . .

— هل سيأتى قطار طبى إلى هنا ؟ .

— بل عربة إسعاف تنقلنى من هنا إلى أقرب محطة .

وقال جرين : وفى هذه اللحظة لا يكون أى منا هنا ، فستذهب أنت أيضاً .

— ربما عالجوني وعدت ثانية .

ونظر كل منهما إلى الآخر وقد عرف كلاهما أن هذا غير صحيح .

وقال فريزينبورج : « أود أن أعتقد هذا . على الأقل في هذه الساعة الباقية لتأثير المورفين . فأحياناً تكون فترة من فترات الحياة قصيرة بشكل رهيب . أليس كذلك ؟ ثم تحل الفترة التالية التي لا تعرف عنها شيئاً . وهذه الفترة القادمة هي حربي الثانية » .

— وماذا ستفعل بعد هذا ؟ هل قررت شيئاً ؟ .

وابتسم فريزينبورج ابتسامة خفيفة وقال : « بل لا أدري حتى الآن ما سيفعله الآخرون بي . سأنظر هذا أولاً . ولم يخطر ببالي أبداً أنني سأخرج من هذا ، إذ أعتقد دائماً أنني سأفشل وينتهي أمري . وعلى الآن أن أتعود ، على أن أكون نصف مقتول . لا أدري إن كان هذا أسهل ، إذ بدا لي أن الاحتمال الأول أسهل . فقد وطنت نفسي على عدم الاهتمام بهذا العبث الذي يجري الآن ما دمت سأدفع حياتي ثمناً له وينتهي الأمر . وها أنا أجد نفسي الآن وسط الدوامة ..... تصورت أن الموت سيمحو كل شيء ولكن ليس الأمر كذلك . أحس بالتعب يا إرنست وسأحاول أن أنام قبل أن أعود إلى الإحساس بأني عاجز ، فانتبه إلى نفسك » .

ومد لجريير يده فصافحها وقال : « وأنت أيضاً يا لودفيج » .

— وسأصبح الآن طبعاً مع التيار ، فهي غريزة حب الحياة البدائية .

وقد كان الأمر يختلف عنه الآن . ولكن ربما كان هذا مجرد وهم . إذ كان بعض الأمل متضمناً . لا بأس . . . فأنا أنسى دائماً أن يوسعي أن أنهي حياتي بنفسي ، لقد منحنا هذه الهبة ويجانبها ما يسمونه بالعقل .

وهز جريير رأسه .

وابتسم فريزينبورج ابتسامته التي ترتسم على نصف وجهه وقال : « الحق معك فلن تفعل هذا إذ الواجب أن تعمل على ألا يتكرر هذا ثانية » .

وألقى برأسه إلى الخلف وقد بانت عليه دلالة الإعياء . وما إن وصل جريير إلى الباب حتى كان قد أغلق عينيه .

* * *

وعاد جريير إلى القرية التي كان يعسكر بها . وكان شفق المساء الأحمر يصبغ السماء خفيفاً . ولم تمطر السماء ثانية وجف الطين ، ونمت في الحقول التي هجرها أصحابها زهور برية وأعشاب وسمع دوي الجبهة . وفجأة أصبح كل شيء في نظره غريباً وزالت كل الرشائح . وقد جرب جريير هذا الإحساس إذ كان يخامره دائماً عند ما كان يستيقظ في الليالي ويجد نفسه لا يدري أين هو .

كان كمن سقط خارج هذا العالم وسبح وحيداً في الظلام . لا يدوم هذا الإحساس طويلاً ، إذ سرعان ما يهتدي الإنسان إلى طريقه ، ولكن

يتخلف عن هذا الإحساس جزء بسيط غريب يوحى إلى الإنسان أنه لن يستطيع فى يوم ما أن يجد طريقه .

ولم ينعكس عليه هذا كخوف ، بل انطوى على نفسه كطفل صغير جداً ترك وسط برية شاسعة لا سبيل له إلى الخروج منها . فالخروج منها طويل جداً ، أطول مما هو مائة مرة . ووضع جريبر يديه فى جيوبه ونظر حوله وتراءت له الصورة القديمة ، صورة الخرائب والأراضى الزراعية المهجورة وغروب الشمس ، ويقابل هذا أضواء الجبهة الباهتة وقد بدأت تلمع . إنها نفس الأضواء بنفس الطريقة التى وجدت بها دائماً . تصحبها برودة تتغلغل إلى القلب وتدفع إلى اليأس .

وتحسس خطابات إليزابيث فى جيبه ممتلئة دفئاً وحناناً ، وحباً ، إلا أنها رغم هذا لم تكن مصابيح الأمان الهادئة التى تضىء بيتاً مستقراً ، بل كانت السراب الذى يلمع فوق المستنقعات يجذب الإنسان إليه ، وكلما حاول الوصول إليه انغرس أكثر فى الوحل . أراد أن يقيم لنفسه مصباحاً يهتدى به فى العودة ، ولكنه أقام المصباح قبل أن يشيد البيت الذى يعود إليه . فوضع المصباح فى الخرائب فلم يجملها بل جعلها أكثر بؤساً . لم يدرك هذا وهو فى ألمانيا وإنما استقبله الضوء فسار نحوه دون أن يسأل ، إذ اعتقد أنه يكفى أن يسترشد به ، ولكن لم يكن هذا يكفى .

وبذل جهده لمقاومة هذا الإدراك فلم يكن هيناً أن ينتهى إلى أن هذا الشىء الذى انعقدت عليه آماله فى معاونته وتعضيده لم يكن غير

عازل له ، ولم يؤد المطلوب منه ، فقد حرك قلبه دون أن يقويه ثم اختفى ... كان مجرد سعادة شخصية لم تقو على مواجهة مستنقعات البؤس العام واليأس الشامل ... هذه المستنقعات اللانهائية . فأخرج خطابات إليزابيث وأعاد قراءتها فى ضوء شفق الغروب ومع أنه كان يحفظها عن ظهر قلب إلا أنه قرأها ثانية وزادته الخطابات إحساساً بالوحدة ، فالسعادة التى تحملها مؤقته بينما بؤسه أبدى . كانت سعادته إجازة . أما حياة الجندى فتحسب بالوقت الذى يقضيه فى الجبهة لا فى الإجازات .

وطوى خطاباته ثانية ووضعها بجانب خطابات والديه التى وجدها تنتظره فى المكتب . فلا داعى لأن يثير الماضى ، وفريزبورج على حق ، فعلى الإنسان أن يسير مع التيار خطوة خطوة ولا يشغل باله بحل ألغاز العالم خاصة وهو محاط بالأخطار . وفكر فى إليزابيث لا كشىء ضاع . إذ لديه خطاباتها فهى ما زالت حية .

واقتربت القرية وبانت مهجورة وخربة . وبدت له كل هذه القرى وكأن يد التعمير لن تمتد إليها أبداً ، وقاده طريق محفوف بالأشجار إلى أطلال بيت أبيض لا بد أنه قد أحاطت به حديقة فيما مضى . فالزهور متفتحة هنا وهناك ، وبجانبه نافورة قذرة ، انتصب تمثال يمثل إله الرعاة ينفخ فى نايه ، دون أن يحضر أحد لحفل غنائه ، ولم تقع عينه إلا على بعض الجنود الخائبين يبحثون فى أشجار الفاكهة عن حبات الكرز غير الناضجة .

الفصل السابع والعشرون

ورطب شتاين برتر شفتيه بلسانه وهو ينظر إلى الروس وقال : « رجال حرب العصابات ! » . . وكان الروس أربعة أشخاص ، رجلين وسيدتين ، وقفوا فى ميدان القرية . وصغرى السيدتين شابة يافعة قد برزت عظام حوضها . وكان الألمان قد تسلموا الروس الأربعة هذا الصباح .

ورد جرينر : لا يبدون كأفراد حرب العصابات .

— بل هم كذلك . . . كيف عرفت أنهم ليسوا كذلك ؟ .

— لا يبدو عليهم هذا . بل يبدون كفلاحين فقراء .

فضحك شتاين برتر ، وقال : « لو سارت الأمور على هذا المنوال ، لما كان هناك مجرم » . وفكر جرينر فى نفسه : « هذا صحيح فأنت خير دليل عليه ، ثم رأى راهى قادماً وسأل الجاويش الذى يصحب الروس ، وماذا ستصنع بهؤلاء الآن ؟ » .

وأجاب الجاويش : « لقد أسروا هنا وعلينا أن نحجزهم حتى نتلقى الأوامر بشأنهم .

— يعلم الله ما فى أعناقنا من أعباء . لم لا ترسلهم إلى القيادة العامة ؟ .

ولم يتوقع راهى إجابة على سؤاله . إذ لم يعد للقيادة مكان ثابت . وأقصى ما يمكن أن تفعله القيادة أن ترسل أحدهم لاستجواب الروس ثم يكتب تقريراً عما يجب أن يصنع بهم . وقال شتاين برتر : « فى خارج القرية مبنى كان فيما مضى فندقاً . وبه قبو له سور حديدى يغلقه باب حديدى ذو قفل » .

ورمقه راهى وعرف قصده . فهو سيمنح الروس — كما هى العادة — فرصة الفرار لتكون فى هذه المحاولة نهايتهم وتدبير هذا الأمر خارج القرية أمر سهل .

والتفت راهى حوله ثم قال : « جرينر ! تول أنت أمر هؤلاء الناس وسيقوم شتاين برتر بإرشادك لمكان القبو . فافحص المكان جيداً واختبر مدى صلاحيته ، ثم تعال وأخبرنى . . . دع حرساً لحراستهم ، خذ جنوداً من فصيلتك فأنت مسئول عنهم » . ثم أضاف : « عليك وحدك تقع المسئولية . . . » .

* * *

وكان أحد الأسرى يعرج بينما كانت السيدة العجوز معروقة الأطراف والصغرى حافية القدمين . وسار الأربعة حتى خرجوا من القرية فذكر شتاين برتر أصغر الأسرى وصاح : « هيه ! أنت ! ؟ هيا اهرب ! » .

واستدار الرجل فضحك شتاين برتر وأشار له قائلا : « اركض ! اركض هيا ! أنت حر . . . »

ودمدم الروسي العجوز شيئاً بالروسية فلم يهرب الآخر . فضربه شتاين برنر بحذائه في مفصل الساق وقال : « اهرب أيها الحمار ! »

فقال جريير : « دعك من هذا فقد سمعت بنفسك ما أمر به راهي »

فأسر إليه شتاين برنر : لنتركهم هنا يهربون ، أقصد الرجلين فقط . . . مجرد عشر خطوات ، ثم نطلق عليهما النار . ونحتجز المرأتين ونذال المرأة الشابة ليلا .

— دعهم والحرب فأنا القائد المسئول هنا ! .

وتأمل شتاين برنر سمنة ساق المرأة الشابة ، ثم ساقيها القويتين السمراوين الظاهرتين من ردائها القصير وقال : « سيقتلون في النهاية . إما قتلناهم نحن أو قتلهم رجال المخابرات . . . وبإمكاننا أن نستمتع بالمرأة الشابة . إنك عائد من الإجازة وبإمكانك أن تتحدث كما يحلو لك » .

فقال جريير : اخرس وتذكر خطيئاتك . فلقد أمرك راهي أن ترشدنا إلى القبو . وهذا كل ما عليك أن تصنعه . . .

* * *

وسار الجميع في الشارع متجهين إلى البيت الأبيض ، وزمجر شتاين برنر بمرارة : « هنا » ، وأشار إلى مبنى صغير قائم شيد من حجر متين ، له باب من القضبان الحديدية يمكن إغلاقه من الخارج .

وفحص جريير المبنى فوجده كحظيرة الماشية وأرضيته من الأسمنت

ولن يتسنى للأسرى الهروب منه دون معاونة . ثم فتش الأسرى خشية أن يكون معهم شيء » .

وفتح الباب وأدخلهم . ووقف الثان من الجنود حديثي الخدمة كانا قد حضرا معهم ، رافعي السلاح في وضع الاستعداد كحرس للأسرى ، ودخل الأسرى إلى الحظيرة الواحد تلو الآخر . ثم أغلق جريير الباب الحديد واختبر القفل فوجده متيناً .

وصاح شتاين برنر ساخراً : « كالقرود في القفص . أتريدون الموز أيها القرود ؟ الموز ! الموز ! » . . .

واستدار جريير إلى الحرس وقال : « ستبقيان هنا كحرس ومسئوليتكما أن تمنعا حدوث أي شيء ! وستنالان بعد فترة الحراسة فترة للراحة . . . ثم التفت إلى الروس وسألهم . . . أيتحدث أحدكم اللغة الألمانية ؟ » .

ولم يجب أحد فقال جريير لشتاين برنر . سندبر لهم فيما بعد ، بعض القش . هيا تعال . . . » .

— بل دبر لهم فراشاً وثيراً أيضاً ! .

— هيا تعال . وأنتما هناك ! افتحا أعينكما ! . . .

وأخبر جريير راهي أن السجن محكم فقال راهي : تول أنت الحراسة مع بعض الحراس . وأرجو عندما تستقر الأحوال في الأيام القليلة القادمة ، أن تتخلص من هؤلاء الناس . . .

— سمعاً وطاعة . . .

– أتحتاج إلى أكثر من رجلين ؟ » .

– لا ، فالحظيرة محكمة ويمكنني أن أتولى الأمر بمفردي لو تمت هناك . إذ ليس بوسع أحد منهم أن يخرج . . .

– حسن ، لتفعل هذا ! فنحن بحاجة للحارسين لتدريبهما بسرعة على طرق القتال . فالتقارير ، وسكت راهبي وقد بدا الإجهاد عليه . ثم قال : « إنك تعرف الحكاية – هيا اذهب ! » .

وأحضر جرينر حاجياته . إذ أنه لم يعد يعرف غير قليل من أفراد فصيلته . وسأله إمرمان : « لقد أصبحت سجاناً ؟ » . . .

– نعم فهناك يمكنني أن أنال كفايتي من النوم وهذا أفضل من تدريب هؤلاء الفتيان الجهلة . . .

– لن يتسنى لك الوقت لذلك . ألا تعرف ما يجري بالجبهة ؟

– يبدو أن هناك قتالاً .

– بل عملية انسحاب أخرى . فقد اخترق الروس الخطوط من كل مكان . ومنذ ساعة وصلت إلينا أخبار غير مفرحة : أخبار هجوم ضخم . والأرض هنا مسطحة وليس بها مكان تحتمي فيه . وسنضطر هذه المرة إلى التقهقر مسافة كبيرة .

– أتظن أن الحرب ستنتهي بوصولنا إلى حدود ألمانيا ؟ .

– وهل تظن أنت هذا ؟ .

– لا .

فقال إمرمان بسخرية مرة : « ولا أنا أيضاً ، فمن عندنا سينهي الحرب ؟ لن ينهيه قائد أركان الحرب . إذ لن يأخذ المسئولية على عاتقه . ولئن كان قد تمكن في الحرب الماضية من أن يحملها على عاتق حكومة جديدة تكونت بسرعة قبل التسليم ، وقدم البلهاء أعناقهم ووقعوا الهدنة وأصبحوا بعد أسبوع متهمين بالخيانة العظمى للوطن – إلا أن هذا لن يحدث اليوم . فهم يطالبون التسليم بلا قيد ولا شرط . ويطلبونه من الدولة كلها ولا يوجد الآن حزب آخر يساوم » .

فقال جرينر بحرارة : « عدا الشيوعيين . فهم على استعداد لتكوين دولة أخرى . إنه نفس الأسلوب ، سأذهب لأنام . كل ما أبغيه في الدنيا هو أن أفكر كما يحلو لي ، وأقول ما أبغي وأعمل ما أريد . ولكن طالما لدينا أنبياء أدعياء من اليمين ومن اليسار ، فبغيضي هذه أخطر كثيراً من أية جريمة أو قتل » .

* * *

وأخذ حقيبة الميدان وأسرع إلى المطبخ . وهل نصيبه من حساء الباذلاء والخبز والسجق كي لا يعود إلى القرية ثانية لأخذ عشائه .

كان العصر هادئاً بشكل غير مألوف . وعاد الحارسان إلى المعسكر بعد أن أحضرا القش . وفصفت المدافع في الجبهة ، ولكن كانت البشائر تدل رغم هذا على أن اليوم سيظل هادئاً . وامتدت أمام الحظيرة أرض بريه معشبة داستها الأقدام وامتلأت بحفر القنابل ، ولكنها رغم هذا

مخضرة نامية حيث ازهرت بعض الشجيرات . على جانبى الطريق الذى كان يشقها فيما مضى .

واهتدى جرير فى الحديقة « الواقعة » خلف الطريق المشجر إلى كوخ خشبى أتت يد الدمار على نصفه فقط ، ويتسنى لمن بالكوخ أن يشرف على الحظيرة ، ووجد بالكوخ كتباً ذات أغلفة جلدية مذهبة الأطراف بهت لونها وقد أفسد المطر وإلجليد أوراق الكتب فلم يتبق منها غير كتاب واحد يصلح للقراءة . مكتوب بالفرنسية ويحتوى صوراً رومانتيكية تمثل الطبيعة . فقلب جرير صفحاته ببطء ، واستوعبه الكتاب تماماً وأخذ عليه لبه فأثار فيه حنيناً مبهماً لأشياء لا أمل فى الوصول إليها .

وظل مأخوذاً بما فى الكتاب حتى بعد أن أغلقه بفترة طويلة .

فقام وسار فى الطريق بين الأشجار المنتصبة حتى وصل إلى النافورة حيث وجد تمثال لاعب الناى قائماً بين الأوحال والأعشاب البرية . ورغم أن التمثال قد فقد قرناً من قرنيه إلا أنه استطاع أن يتغلب على الحرب ويقاوم الثورة والشيوعية . فالتمثال كالكتب يرجع إلى عهد أسطورى ، عهد ما قبل الحرب العالمية الأولى . ولم يكن جرير وقتها قد أتى إلى الوجود ولا اكتسلت عيناه بنور الدنيا . إذ قد ولد بعد الحرب الأولى ، وتمرغت طفولته فى الأزمات المالية وفترة ما بعد الحرب المضطربة وما إن أدرك الدنيا ووعى ما حوله حتى كانت الحرب الجديدة . ودار

حول النافورة متجولا ومر بالكوخ الخشبى وعاد إلى الأسرى يرقب بأيهم الحديدى المغلق عليهم الذى لم يكن فى الأصل باب حظيرة للماشية بل ركب فيما بعد . وربما اضطر الرجل الذى بنى هذا البيت وامتلك هذه الحديقة أن يقضى حياته خلف هذا الباب فى انتظار الموت .

* * *

كانت السيدة العجوز تغط فى النوم بينما جلست الشابة فى أحد الأركان تنظر إلى الأمام ، ووقف كل من الرجلين يرقبان شمس العصر وينظران إلى جرير . وركز الروسى العجوز بصره على جرير فاستدار هذا مبتعداً ورقد على الحشائش .

وطافت السحب متوالية بالسماء ورنت شقشقة العصافير على فنن الأشجار بينما طارت فراشة زرقاء عبر حفر القنابل متنقلة من زهرة إلى زهرة ثم تبعتها أخرى . ولعبت الفراشتان سوياً ثم لحق كل منهما بالأخرى وعلا فى هذه اللحظة قصف المدافع فى الجبهة . فتقاربت الفراشتان وطارتا سوياً متلاصقتين فى الهواء الذى رفعت الشمس المسلطة عليه درجة حرارته . . . وقام جرير .

وفى المساء أحضر أحد الجنود الحديثى الالتحاق بالجندية بعض الطعام للأسرى وكان يتكون من حساء البازلاء المتبقى من الظهر بعد أن خفف بالماء ، وانتظر الجندى إلى أن انتهى الأسرى من طعامهم فحمل الآنية معه ورحل . ولاحظ جرير أن كمية السجائر التى أحضرها له

الجندى أكبر من المعتاد وكان هذا نذير أوقات عصبية قادمة . فالأكل الجيد والسجائر الكثيرة لا يتوفران إلا إذا كانت المصائب متوقعة .

ونظر الجندى لجرير وقال بحزن : تلقينا الليلة ساعتين إضافيتين من التدريب على القتال وإلقاء القنابل اليدوية والاشتباك بالسونكى . . .

« لا بأس فقائد الفصيلة عالم بما يفعل وهو لا يبغى مجرد إجهادكم » .

وأومأ المتطوع ، ثم تأمل الروس وكأنهم حيوانات فى حديقة فقال له جرير :

— هؤلاء بشر مثلنا . . .

— نعم ، روس .

— حسن ، روس ، احمل سلاحك وقف مستعداً فسنطلق الآن سراح السيدتين ، الواحدة بعد الأخرى ! .

ثم صاح جرير من خلال القضبان الحديدية . ليتجمع الكل فى الركن الأيسر بينما تحضر السيدة العجوز إلى هنا . وسيتاح لكل منكم فرصته للخروج .

وتحدث الروسى العجوز مع الباقين الذين أطاعوه ، وأمسك الجندى بسلاحه مستعداً ، بينما أقبلت السيدة العجوز وفتح لها جرير الباب وأخرجها ثم أغلق الباب خلفها . فأعولت العجوز إذ توقعت أن يطلق عليها النار ، فقال جرير للروسى العجوز أفهمها أنه لن يصيبها ضرر . وما عليها إلا أن تقضى حاجتها .

وتحدث إليها فهدأت وكفت عن البكاء . فقادها جرير والجندى إلى ركن من أركان المنزل تحيط به حائطان . وانتظرا حتى عادت فأخرج العصفورى التى مرت بهما مسرعة منحنية . وكان الأمر أكثر سهولة مع الرجلين . إذ قادهما حول المبنى تحت بصره ، بينما أمسك الجندى بسلاحه متوتراً ماطًّا شفته السفلى وكله اهتمام وغيرة . وأعيد آخر رجل ثم أغلق الباب . وقال الجندى :

— « كان هذا مثيراً » .

« أهكذا ؟ » ثم أغمد جرير سلاحه وقال : « يمكنك الآن أن تعود » . وانتظر حتى ابتعد الجندى فأخرج سجائره وأعطى الرجل العجوز سيجارتين لكل منهما واحدة ثم أشعل عود ثقاب وناوله لهما من خلف القضبان ، فدخن الجميع السجائر وتوهجت السجائر فى العتمة فأضاءت الوجوه ، وشاهد جرير وجه الفتاة : فاعتمل فى نفسه حنين لا يطاق إلى إليزابيث ، وتابع الروسى العجوز نظراته وقال بصوت منخفض : « أنت رجل طيب » .

وقال ثانية ، ووجهه ملتصق بالقضبان الحديدية : « الألمان خسروا الحرب — أيها الرجل الطيب » .

— كلام فارغ .

— أطلق سراحنا ! لم لا ؟ تعال معنا ! .

استدار الوجه المليء بالندوب إلى الفتاة لحظة ، ثم اعتدل ثانية

« تعال معنا – ما روسيا – تخيلك – مكان طيب – تحيا – تحيا » وأعاد الكلمة بطريقة غريبة .

وهز جريير رأسه وفكر . ليس هذا هو المخرج . ليس بهذه الطريقة . ولكن هل هناك مخرج ؟ وهمس الروسي . . . « دعنا نعش – لا تقتلنا – اسجنا فقط . وأنت أيضاً لا تموت – تسعد بيننا – نحن أبرياء » .

ولاح الكلام بسيطاً فاستدار جريير . لاح بسيطاً في الشعاع الأخير الناعس للأمسية . ربما كانوا حقاً أبرياء ، إذ لم تجد معهم سلاحاً ومظهرهم لا يدل على أنهم من رجال حرب العصابات وخاصة هذان العجوزان . وفكر ، لو أطلقت سراحهم . أكون قد أسديت جميلاً . جميلاً واحداً على الأقل وأنقذت بضعة أبرياء . ولكن ليس بوسعى أن أذهب معهم . لا أقوى على الذهاب إلى روسيا . إلى نفس البلد الذى أتوق إلى مغادرته . وتجول حول المكان . ثم عاد إلى النافورة ورأى الأشجار سوداء في الأفق . ثم عاد ثانية وكانت سيجارة أحد الروس ما زالت متوهجة في الحظيرة وقد لمع خلفها وخلف القضبان وجه الروسي العجوز الذى قال : « تعيش وتسعد بيننا » .

وأخرج جريير بقية السجائر ووضعها في كف الروسي الكبير . ثم ناوله بضعة أعواد من الثقاب . وقال : « خذوا . دخنوا هذه السجائر ليلاً » .

« تعيش – أنت شباب – وتنتهى من الحرب – إنك إنسان طيب –

نحن أبرياء . نعيش – نحن – أنت – كلنا » .

كان الصوت منخفضاً عميقاً . يقول نعيش . وكأنه تاجر من تجار السوق السوداء ينادى على الزبد أو كعاهرة تعرض الحب . صوت حنون ومؤثر وعفر ، ولكنه في نفس الوقت زائف وكان بإمكانه حتماً أن يبيع . . . « الحياة » . وأحس جريير أن الصوت ينفذ إلى أعماقه ويهزه . فصاح في العجوز :

« اخرس وكف عن المراء وإلا أبلغت عنك فتنتهى حياتكم جميعاً ! واستأنف جولته . وازداد دوى الجبهة . كما سطعت بوادر النجوم فأحس فجأة بالوحدة وتمنى لو نام في الخندق بين شخير زملائه . أحس كأن الجميع قد تخلفوا عنه وأن عليه أن يتخذ قراراً .

وحاول أن ينام ، فرقد في الكوخ ، على القش وخطر بباله أنهم ربما تمكنوا من الهرب دون أن يلحظ . ولم تجد عليه معرفته باستحالة هذا عليهم إذ أن من أعاد بناء الحظيرة قد كفل ذلك . . . .

وتزايدت حركة القتال في الجبهة فامتلأ الليل بأزيز الطائرات وقصف المدافع ، وأخيراً سمع انفجار القنابل المكتومة . فاستجمع جريير حواسه وظلت الضجة . وفكر جريير ثانية . لنفترض أنهم اخترقوا الخطوط . ثم نهض وذهب إلى المبنى . ووجد كل شيء هادئاً إذ كان الأسرى نائمين إلا أنه شاهد وجه العجوز بشكل غير واضح . فعاد ثانية .

وعرف بعد منتصف الليل أن معركة حامية تدور في الجبهة ، فقد

انطلقت المدافع الثقيلة ووصلت طلقاتها إلى مسافة كبيرة خلف الخطوط . بل كادت القنابل وطلقات المدافع تصل إلى القرية فأدرك جريير أن مركز الألمان ضعيف واستطاع أن يتبع القتال بكل دقائقه . واهتزت الأرض تحت ضربات المدافع والقنابل وتردد الرعد من أفق إلى أفق . وأحس جريير بذلك كله يتغلغل في كل عظامه . أحس أن كل هذا سيدركه في مكمنه . ومع ذلك أحس بما يحدث بطريقة غريبة وكأنه دوامة من العواصف تطوف حوله . . . وتطوف حول المبنى الأبيض الذى يقبع فيه الروس . وتحول الروس فجأة وسط كل هذا الدوار والموت فأصبحوا المركز الذى يدور حوله كل شيء . ويتوقف كل شيء على ما سيحدث لهم .

وسار جيئة وذهاباً . يقترب من الحظيرة . ثم يعود ثانية . وتحسس المفتاح في جيبه . ثم ألقى بنفسه على القش الخاص به . وفي الصباح فقط دهمه نوم ثقيل قلق .

وعندما استيقظ وجد الجو غائماً والجبهة جحيماً . ووصلت نيران المدافع فوق القرية وخلفها . فنظر إلى المبنى ووجد الباب سليماً والروس يتحركون خلفه . ثم وقعت عيناه على شتاين برنر يعدو مقترباً وهو يصيح : انسحاب . فقد اخترق الروس الخطوط . انضم إلى الباقين بالقرية . هيا أسرع . فكل شيء مرتبك . احمل أشياءك ؟ . . . وعندما وصل إليه قال : « وسننتهى من أمر هؤلاء حالا » . وأحس جريير بقلبه يدق بعنف فسأله : « ألديك أمر بذلك ؟ » .

— أمر ! لو رأيت حال القرية لما طلبت أمراً . ألم تسمع بأمر الهجوم ؟ .

— نعم سمعت .

— إذن . ها قد عرفت . هيا إذن ! أتظن أن بإمكاننا أن نجر معنا كل هؤلاء ؟ سنقتلهم من خلف قضبان هذا الباب .

ولمعت عينا شتاين برنر بزرقة شديدة واشتد جلد أنفه فوق العظمة ولمس مسدسه .

فقال جريير : « أنا المسئول هنا . هيا اهرب إن لم يكن معك أمر ! » . وضحك شتاين برنر : « حسن . إذن أطلق أنت الرصاص ! » .

— لا .

— لا بد أن يقتلهم أحدنا . فليس بوسعنا أن نصحبهم معنا . هيا استجمع أعصابك الرقيقة وتقدم وسأتبعك ! .

— لا . لن تردبهم . . .

— لا ؟ . . . ورفع شتاين برنر بصره ثم أعاد الكلمة ببطء : « لا . ! أتقدر معنى ما تقوله الآن ؟ » .

— نعم . .

— هكذا ؟ أنت تعرف معناه ؟ ! إذن فأنت تعرف أنك . . .

وتغير وجه شتاين برنر . وأسرع يمسك مسدسه . فرفع جريير سلاحه وأطلق الرصاص فتخبط شتاين برنر . ثم سقط وهو يتأوه كطفل . كما

سقط المسدس من يده . وحملق جرير فى الجثة وفكر فى نفسه ، دفاع عن النفس . ودوى فى هذه اللحظة صفير طلقة مدفع وهى تعبر فوق الحديقة .

وأفاق جرير فسار إلى الحظيرة . وأخرج المفتاح من جيبه ، ثم فتح الباب وقال : « اخرجوا » .

ونظر إليه الروس ولم يصدقوه فألقى سلاحه وقال بصبر نافد وهو يريهم يديه الفارغتين : « اذهبوا ! اذهبوا ! » .

وتقدم الرومى الصغير خطوة حذراً فاستدار جرير عائداً إلى حيث يرقد شتاين برلر وقال : « قاتل ! » ولم يعرف من يقصد بهذه الكلمة . وحملق فى شتاين برلر دون أن ينتابه أى إحساس .

وبدأت الأفكار تتدافع فجأة فى رأسه وكأن الحجر الذى سد الطريق أمامه قد انزاح . لقد تقرر الأمر إلى الأبد . فلم يعد يحس بأى شىء يثقله . وكأنه لا وزن له . أدرك أن عليه أن يفعل شيئاً . ولكنه أحس أنه يجب أن يتماسك كى لا يطير بعيداً . لقد خف رأسه ، فسار يقطع الطريق بحذر . إذ أن شيئاً بالغ الأهمية لا بد أن يحدث ، ولكنه لا يدرى كنهه ولم يصل بعد إلى إدراكه .

ومع أن هذا الشىء واضح إلى حد الإيلام إلا أنه كان بعيداً جداً وجديداً عليه .

ورأى الروس يجرون متجمعين ومنحنين ، تقدمهم النساء . والتفت

أحدهم إلى الخلف وشاهد جرير فرفع سلاحه فجأة وصوبه . ففكر جرير : إذن كانوا من رجال حرب العصابات . ورأى جرير فوهة السلاح سوداء تتسع فأراد أن يصيح عالياً ، إذ كانت لديه أمور كثيرة يرغب فى الإفصاح عنها بسرعة وبصوت عال .

ولم يحس جرير بالطلقة ، وإنما رأى الحشائش أمامه كتبات قريب جداً من عينيه لم يذبل بعد من وطأة الأقدام ، بل يحمل زهوراً عشبية حمراء . وأوراقه الرقيقة تكبر .

لقد حدث له هذا من قبل . ولكن لم يعد يذكر متى ، واهتز عود النبات وانتصب وحيداً أمام أنفه الذى بدأ يضيق نتيجة لهبوط رأسه . . . انتصب النبات ساكناً متماسكاً يحمل فى طياته سكينة أصغر نظام فى الكون ، وسلامه . . . وكبر النبات وكبر حتى ملأ السماء كلها ، ثم أغمضت عينا جرير .

للحب وقت . . وللموت وقت

هذه الرواية . . ومؤلفها

« إريك ماريا ريمارك » – مؤلف هذه الرواية – من أشهر الروائيين الألمان فى القرن العشرين ، وقد لمع اسمه منذ أصدر – فى عام ١٩٢٩ – روايته الخالدة « لا جديد فى الميدان الغربى » ، (أو « كل شىء هادئ فى الميدان الغربى ») ، التى صورت أحداث الحرب العالمية الأولى تصويراً إنسانياً رائعاً. ومنذ ذلك التاريخ أصدر ريمارك عشرات الروايات الأخرى منها : الرفاق الثلاثة ، قوس النصر ، طريق العودة ، فلتحب جارك ، قبس الحياة ، المحطة الأخيرة ، ليلة فى لشبونة . . إلخ .

وهو فى هذه الرواية الرائعة يصور قطاعاً من قطاعات الحياة خلال الحرب العالمية الثانية ، على جبهة القتال بين الألمان والروس . . وقد أبدع فى تصوير قصته الإنسانية هذه كما أبدع فى تصوير روايته الأولى « كل شىء هادئ فى الميدان الغربى » .

وقد اختار « ريمارك » لروايته هذه عنوانها من أقوال « سليمان الحكيم » التى وردت فى سفر الجامعة (٣ : ١) وقد جاء فيها : « لكل شىء زمان ، ولكل أمر تحت السموات وقت : للولادة وقت وللموت وقت . للغرس وقت ولقلع المغروس وقت . للقتل وقت وللشفاء وقت . للهدم وقت وللبناء وقت . للبكاء وقت وللضحك وقت . للنوح وقت وللرقص وقت . للكسب وقت وللخسارة وقت . للسكوت وقت وللتكلم وقت . للحب وقت وللبغض وقت . للحرب وقت وللصلح وقت . فأى منفعة لمن يتعب مما يتعب به ؟ » .